

بِحَمْدِ اللَّهِ

المختار

من البحوث والمقالات

الجزء الرابع

فهرس

الجزء الرابع من "المختار"

• مقدمة

- (١) موقف المفكر العربي تجاه المذاهب السياسية
- (٢) أخت الصلاة المهجورة (الزكاة)
- (٣) مخاوف لا أساس لها من المجتمع الإسلامي
- (٤) بعض الخطوط التي تحكم موضوع الصحوة الإسلامية
- (٥) ملف ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م
- (٦) أمريكا تنقلب على حلفائها .. فاعتبروا يا أولى الألباب
- (٧) تجديد الخطاب الديني
- (٨) ضرب الديمقراطية باسم الديمقراطية
- (٩) الطريق إلى فقه جديد للمرأة
- (١٠) إلهام آية
- (١١) الحرية .. الحرية .. الحرية

مُتَلَمَّتْ

يتصدر هذا الجزء من « المختار » بحث هام كتبه الأستاذ جمال البنا سنة ١٩٥٧م باسم « موقف المفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصرة » وقد صادره البوليس وإن كان قد أعاده، وهو يمثل إحدى المحطات الفكرية للكاتب ونفدت نسخه، ويتلوه بحث آخر أقل حجماً عن الزكاة بعنوان « أخت الصلاة المهجورة » كتب سنة ١٩٨٢م كأحد الكتيبات الثقافية للاتحاد الإسلامي الدولي للعمل، كما يتضمن هذا الجزء « ملف ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م » الذي يضم مقالاً موسعاً كتبه جمال البنا لدار الشروق الدولية عن ١١ سبتمبر بعنوان « هذا الحدث المريع الرائع »، ومقال بعنوان « لا راحة لأمریکا بعد اليوم »، ثم هجوم الأستاذ شاكر النابلسي بمقالين أحدهما بعنوان « جمال البنا.. حلقة جديدة في سلسلة المرتدين »، والآخر بعنوان « جمال البنا.. لا تعتذر »، وأخيراً « رد جمال البنا ».

يضم الجزء أيضاً بحثاً عن « نقاط القوة والضعف في الصحوة الإسلامية »، و « مخاوف لا أساس لها من الصحة »، و « تجديد الخطاب الديني »، و « إلهام آية »، و « الطريق إلى فقه جديد »، و « الحرية.. الحرية.. الحرية »، ومقالات أخرى كتب بعضها في الثمانينات، ونشر البعض الآخر في عامي ٢٠٠١ و ٢٠٠٢م.

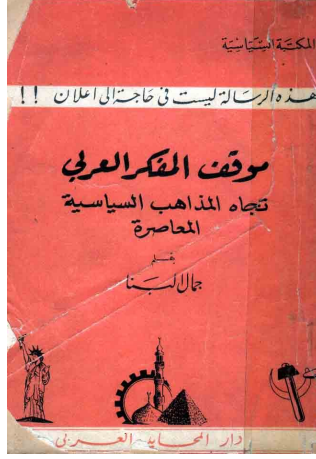
وسيصدر الجزء الخامس قريباً.

القاهرة في ذي القعدة ١٤٢٨ هـ

نوفمبر ٢٠٠٧ م

(١)

موقف المفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصرة



كتبت هذه الرسالة في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م عندما تأمرت بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل دون أن تخطر الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة فكان عاقبة ذلك أن ثارا على الدول المتآمرة، وأندرز بولجانين رئيس السوفييت إسرائيل باستخدام الوسائل التي توقفتها عند حدها، فضلت المؤامرة واضطر المتآمرون للانتساب من المواقع التي اكتسبوها في سيناء وبورسعيد، وكان العدوان رغم فشله (بروفة) لعدوان ١٩٦٧م كما لم تعدم إسرائيل بعض المكاسب، ولكن (الجوقة) الناصرية نفخت في أبواقها واعتبرته النصر العظيم المؤزر لعبد الناصر.

في هذه الفترة كنت منغمساً بكليتي في قراءات للنظم السياسية، والحركات الشعبية والآداب الأوروبية خاصة الرواية والقصة، وكنت قد طويت الدراسة الإسلامية بعد أن احتدمت العداوة بين عبد الناصر والإخوان، وبدأت الموجة الأولى من الاعتقالات الوهابية وما اصطحبت به من تعذيب مروع خسيس.

كانت رسالة موقف المفكر العربي.. الخ، تصور صراعاً ما بين المفكر العربي (المحايد) وما بين الديمقراطية والاشتراكية و (الإسلامية)، كان هناك جزئ إسلامي كامن، ولكن الروافد الأوروبية الحديثة كانت لا تقل قوة فصورت الرسالة موقفاً يحتفظ بالإسلامية كأصل، ولكنه يجري عليها تطويراً يجاوز الحدود المألوفة.

وقد تطور فكري بعد ذلك في الاتجاه الإسلامي بحيث أمكن التوصل إلى الصيغة التي انتهينا إليها وهي أكثر إسلامية من موقف المفكر العربي، فقد جري صقلها عبر أربعين عاماً لتحقيق توافق بين الإسلام والعصر.

من المسائل التي اختلف فكري الأخير عن فكري الأول رفض النسخ في القرآن الكريم تماماً، وكذلك رفض التنظيم الاقتصادي الذي طبقه الاتحاد السوفيتي، وكنت قد تقبلتهما في الرسالة.

ويجب أن نذكر أن الرسالة هي عن موقف المفكر العربي، وليس عن موقف المفكر الإسلامي، مع التأكيد على ما ينبغي للمفكر أن يكون عليه من حرية واستقلال وأمانة، وأنها أيضاً صدرت سنة ١٩٥٧م أي منذ خمسين عاماً. وقد صدرت الرسالة ككتيب جيب، على غرار رسائل أقرأ في ١٢٨ صفحة وطبعت على ورق جرائد وكان ثمنها خمسة قروش.

وتعرضت لمصادرة محدودة، فصادر البوليس من مكتبة وهبه، وجمعة، وغيرها مجموعات من النسخ، ولكنه عاد فسلم النسخ المصادرة بعد أن كان قد (حرزها) وخنمها بالشمع الأحمر، وقد عرضنا صورة لبعض هذه (الأحران).

ولم تحدث الرسالة عندما صدرت صدى لدى الكتاب والنقاد بشكل عام، ولكنني أعتقد إن كان لها أثرها في العدد المحدود الذي قرأها، وقد كان لزاماً أن تثبتتها في المختارات لأنها كانت إحدى (المحطات) الفكرية لنا، وهي تصور فكر الكاتب في هذه المرحلة، وتكشف عن البراعة في المعالجة، والأمانة، والرغبة المحرقة للتوصل إلى الحقيقة.

الفصل الأول

عن الموضوع بصفة عامة

مقدمة:

يشهد المجتمع العربي هذه الأيام نشاطاً فكرياً رائعاً، وفورة من الاهتمام بالنظم والدراسات السياسية بصفة خاصة تعود إلى أن التطورات السياسية الأخيرة، أعني تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي الأثيم على مصر، أثارت البركان الذي كان يضطرم في الداخل ببطء منذ أن بدأ الاستعمار هجومه على البلاد العربية، وأوقفت مصر وجهاً لوجه مع بريطانيا ووقفت مع مصر الدول العربية والدول الصديقة.. ووقفت مع بريطانيا الدول الاستعمارية والدول الرأسمالية واكتسب الموقف طابعاً شعبياً ودولياً مثيراً.

كان من آثار ذلك أن تعددت في مصر والبلاد العربية الرسائل والكتب والنشرات التي تعالج المواضيع السياسية والنظم والمذاهب ولاسيما ما كان معنياً منها بدراسة المذاهب السياسية الاشتراكية التي كان الاستعمار قد حال بين البلاد وبين الإطلاع عليها ثم جاءت المحنة فوقفت الدول الشيوعية من مصر موقفاً مجيداً مشكوراً.

رأينا في هذه المناسبة أن نقدم هذا البحث السريع عن موقف المفكر العربي تجاه هذه المذاهب محاولين أن نرسم بعض الخطوط العريضة في الوضع حتى يضعها المفكر العربي في تقديره أو يهتدي بها أو تكون على الأقل محل الدراسة والمناقشة.

قاعدة البحث:

فلنبداً من قاعدة لا يختلف فيها إلا القليل من الناس، تلك هي أن الفكر مرتبط بالحياة، وأنه لم يعد، بل لعله لم يكن قط، نظريات مطلقة سابعة في جو من الفراغ المحيط، والموضوعية المطلقة، وأن هذا الارتباط بين الفكر والحياة موجود بحكم الواقع، وبمقتضى طبائع الأشياء، وأنه لو لم يكن موجوداً بمقتضى تلك الحقيقة لوجب أن يوجد إيجاباً.

إذا كان ذلك صحيحاً، وهو صحيح في رأي الأغلبية الساحقة، فإنه ليرتّب واجباً ثقيلاً على المفكر العربي الذي يجد أن عليه أن يحسب بالدقة حساب العوامل العديدة التي تحيط به، وتميزه عن زميله الغربي.

موقف المفكر الغربي:

إن الديمقراطية، والماركسية، والديكتاتورية وغيرها من المذاهب إنما هي في نظر المفكر الغربي تعبيرات مألوفة لصور من التنظيم الاجتماعي أثارتها ظروف بينته بالفعل، وتعتمد على جذور تتغلغل في الماضي البعيد، وتطورت من مرحلة إلى أخرى حتى انتهت إلى العصر الحديث، وقد يكون هذا التطور عنيفاً في بعض المراحل أو في بعض البلاد أو تدريجياً في مراحل وبلاد أخرى، ولكنه في جميع الحالات يجد مبرراته في البيئة نفسها، ويستلهم أصولاً في الثقافة والفكر ليست بعيدة أو أجنبية عنه ولا توجد فجوة في الزمان أو المكان بين مرحلة آتية، ومرحلة سابقة.

فالفلسفة، والآداب، والعلوم، والنظم السياسية بدأت جميعها في اليونان، ولدى الرومان، واعتبرت اللاتينية اللغة "الأم" التي تنتفع عنها اللغات الأوروبية الحديثة، وبهذه اللغة قرأ الأوروبيون في القرون الوسطى فلسفة بن رشد وابن سينا والفارابي التي لم تكن بدورها جديدة تماماً على العالم الأوروبي أو غريبة عنه، لأنها استلهمت فلسفة اليونان ودارت في جوهرها حول أسس الفلسفة اليونانية، وهكذا لم يكن النصيب الذي أسهم به الشرق في الثقافة العالمية غريباً على الأوروبيين، كما لم يقدم إليهم بلغة غريبة عنهم، فكان في أسلوبه ومضمونه قريباً

منهم، وحق لهم أن يقولوا عنه إنه بضاعتهم قد ردت إليهم، ولو كانت محسنة، ومزيدة ومضافة إليها الكثير بحكم التطور من ناحية، وبحكم الأصالة الفكرية لفلاسفة وعلماء الشرق والإسلام من ناحية أخرى.

ومن هذا الأصل تسلسلت الآداب والنظم السياسية، بل وحتى العلوم، فاعتبرت الميثولوجيا اليونانية المصدر الرئيسي للآداب الكلاسيكية، واعتبرت الجمهورية لأفلاطون والأخلاق لأرسطو، قواعد الدراسة السياسية، كما اقتبست النظم التي سنها الرومان بحيث أصبحت حية بألفاظها القديمة كديكتاتورية وقناصل وسينات.. الخ، واعتبر أفلاطون من فلاسفة الدعوة الشيوعية، كما اعتبر ديمقريطس من فلاسفة المذهب المادي الذي يستند عليه ويعجب به "الينين".

وأضافت العصور الوسطى قليلاً إلى هذا التراث اليوناني الروماني، ثم جاء عصر النهضة، فأضرم ناراً أفعمت نفوس الأوروبيين حياة وحرارة، وأضاءت بنورها الآفاق الجديدة المجهولة فاكتشفت العوالم الجغرافية، وبدأ فلاسفة الحرية، كما بدأ علماء الطبيعة كل يعمل للثورة المقبلة، وانتهى هؤلاء إلى الثورة الفرنسية، وانتهى أولئك إلى الانقلاب الصناعي، وكانت الديمقراطية ثمرة للأولى والرأسمالية ثمرة للثانية، وصارت أسماء روسو ومونتسكيو وأدم سميث وريكاردو تمثل أدواراً في هذا الكفاح قام بها كل واحد من هؤلاء، واشترك فيها المؤمنون والصحاب والأتباع، كما كانت صدق لصيحات الإخاء، والحرية والمساواة أو ترجيحاً لقعقة الآلات الجديدة والقوى المحركة وأظهرت كل من الديمقراطية والرأسمالية نقيضها، فظهرت فلسفات القوة والفاشية ممثلة في مدرسة "هيجيل" و "نيتشه"، كما ظهرت بذور الإصلاح الاقتصادي والاشتراكية والتعاون على يدي المصلحين الإنجليز.

في هذا النسق البديع غير المتقطع، المتجانس في مجموعة، الذي لم يكدر صفاءه ولا اتساقه غزو فكري أو جنسي. أجنبي تماماً، والذي يرتبط الأول فيه بالآخر، والحاضر بالماضي، وتحتوي المتاحف فيه على البواكير من كل اكتشاف أو اختراع يؤثر الآن في حياتنا بعد مروره بمراحل عديدة من التحسين كالفطرات الأولى من البنزين أو القاطرة الأولى والطائرة الأولى.. الخ، نقول إن المفكر الغربي يجد مهمته سهلة، فهو إذا دعا إلى ديمقراطية أو ماركسية، أو ابتداعية أو كلاسيكية.. الخ، فإنه يجد الأذان الصاغية، والعقول التي تفهم مراده على وجه التحديد، والقلوب التي تلمس فيما يقول صدق الأجيال، وتلك الأغوار العميقة التي حفرها فلاسفة ودعاة وخذلوا على مر الزمان بالعرق والتضحية والدم والجهود، حتى أصبحت جزءاً من التراث الشعبي لا يرى فيها رجل الشارع شيئاً نابياً عن سمعه أو غريباً على فهمه، كما يرجع المفكر فيها إلى أصولها الثقافية بلغاته لفلاسفة من بني جلدته، أو من الدائرة التي يمكن أن تعدد في مجموعها دائرة واحدة، وهي البلاد الأوروبية.

الدين قاعدة المجتمع الشرقي:

هذا هو شأن المفكر الغربي، فلننظر إلى حظ المفكر العربي، فقد بدأ الشرق تاريخه على أساس واضح صريح من الدين الذي ألهم الفنان والمشرع والفيلسوف كما أثر على الشكل السياسي، وبعد أن أفلت شمس آمون، وازيس، ظهرت المسيحية ثم ظهر الإسلام، وكانت هذه الأديان الثلاثة تختلف في صفاتها الثانوية اختلافاً كبيراً، أما لبّها العقدي فهو في حقيقته واحد، فالفكرة الأساسية فيها جميعاً هي عقيدة الألوهية والحساب وثمة تشابه كبير بين الثالوث المسيحي والثالوث الفرعوني: (إيزيس - أوزوريس - حوريس) كما أن ثمة تشابه كبير بين الجنة والنار في الإسلام، والجنة والنار في الديانة المصرية القديمة، وأبرز الاختلافات بين هذه الأديان وهو وحدانية الله في الإسلام وتعددده في الديانة المصرية القديمة والمسيحية ليس إلا تقسيماً للموضوع فحسب، وسيان وجد الله واحداً، أو وجد آلهة متعددة، فالمهم في الأمر هو وجود الله، وقد عجز العقل القديم عن فهم إله تجتمع في صفاته ما يراه أصداداً، فصاغ آلهة بقدر ما يرى من صفات، بينما رأى الإسلام أن الله فوق العقل البشري،

ومن هنا يمكن أن تجتمع فيه صفات يعسر على العقل البشري الجمع بينها، وكانت الاختلافات في الصفات الثانوية من طقوس أو مراسيم أو أسماء.. الخ، تعود إلى اختلاف مصادر هذه الأديان الثلاثة، واختلاف أزمانها، ولكن طول بقائها في الشرق قد جعل الشعوب تتمثلها، كما جعلها نفسها تتكيف مع فهم الشعوب، وقد مضى ثلاثون قرناً على مصر قبل أن تأفل فيها شمس الديانة القديمة وكانت المسيحية أقلها حظاً إذ فجاها الإسلام ولما تستكمل سبعة قرون، أما الإسلام نفسه فقد مضى عليه أربعة عشر قرناً ونصف، ومن الطبيعي أن تكون هذه المدد الطويلة كافية كل الكفاية لإيجاد التفاعل بين الدين والشعب بحيث يتمثل الشعب الدين بقدر ما يتأقلم الدين مع الشعب.

أمضى الشرق هذه المدد الطويلة مغلقاً مع أديانه، لا تكاد تفتح نافذة من نوافذه على الغرب إلا في حالات استثنائية. فمع أن أرضه كانت مسرحاً لخيول الفاتحين، وميداناً لحروب العالم وهي من أشد عوامل الاتصال بين العوالم القديمة، إلا أنها لم تسفر عن تفاعل ذي بال لأن الاتصال الوحيد الذي كان له قيمة هو اتصال العالم الشرقي بالرومان، ولكن الرومان كانوا يرون ترك الشؤون الداخلية والنظم المحلية والأديان للشعوب - على ما هي عليه - ولا يعنيه إلا أخذ جزيتهم مالا أو غلالاً، وحماية طرقهم المشهورة، ومواصلاتهم الإمبراطورية والحالة الاستثنائية الوحيدة الناجحة لوجود تفاعل بين البلاد الشرقية والعالم الأوروبي حدثت بفضل الإسكندر، ومحاولته نشر الحضارة الهلينية وتشجيعه التزاوج.. الخ، وقد أثمرت هذه المحاولة فيما بعد مدرسة الإسكندرية الفكرية، كما أوجدت مدينة الإسكندرية نفسها وطبعتها بطابع لعله لا يزال موجوداً حتى اليوم.

في هذه القرون المتوالية المتغلغلة في أعماق الآباد، كان الدين هو ملهم الفنان الذي أقام الصخور ركاماً وجبالاً ومعابد وأهرامات لكي يحقق فكر الخلود، وجعل "العمارة" من بين الفنون هي الرمز الأولى الذي يميز الحضارة المصرية القديمة بين الحضارات، وكان الدين مصدر التشريع القضائي والجنائي والمدني، كما كان أصل الفلسفة التي لم تنفك قط، في أي صورة من صورها عن الارتباط بالدين، والقيام على أسسه، وأما أثر الدين في النظم السياسية فهو ملحوظ في ازدواج السلطة الزمنية والدينية في الفرعون في مصر القديمة، وفي الكاهن في مصر المسيحية، وفي الأمير أو الخليفة في الإسلام، تلك الحقيقة التي ميّعت الوجود السياسي، وحالت دون وجود تنظيم عملي دقيق أو محدد لطرق الحكم السياسي كما كان الحال في اليونان وروما، وأما أثر الدين في الآداب فتظهره آداب مصر القديمة بكل جلاء، فقد كانت كلها دينية أو تمت إلى الدين بسبب وثيق، كما تظهره تلك الحقيقة الحديثة: حقيقة كون اللغة العربية ربيبة للإسلام، وأنها في الواقع تعود، كأى نص ديني إلى الأصلين العظيمين في الإسلام: القرآن والحديث، فهما عيبة اللغة العربية الحديثة، أما ما قبل ذلك من أسجاع وأشعار فقد عفي عليها الزمان⁽¹⁾ أو كاد، وتؤدي العربية اليوم لغة وتاريخاً للعرب ما أدته اليونانية واللاتينية لأوروبا، ففيها تجد الأجيال الحديثة البطولات وعظماء الرجال والحروب الأولى، والنبع الصافي السليم للغة والآداب، فجساس وكليب والمهلهل في الجاهلية، وعمر وأبو بكر وعلى وخالد وعمرو ومعاوية وأبو عبيدة في الصدر الأول للإسلام، وحروب البسوس وداحس والغبراء في الجاهلية ثم حروب الغزو والفتوح الإسلامية، هذا كله يشبه شيئاً كبيراً ما تحفل به الآداب اليونانية والتاريخ الروماني وعظماء "بلوتارك"، والمتقف العربي يستطيع بعد أن يقرأ المصادر القديمة وما تحفل به من "أيام العرب" والتاريخ ابتداء من آدم والنبوات والشعوب والأساطير والإسرائيليات وهي مثيلة الميثولوجيا و "الفولكور" كما يستطيع أن يقرأ الأدب والتفسير.. الخ، دون أن يتعلم لغة أخرى، حتى وإن كانت قريبة إلى لغته قرب اللاتينية إلى اللغات الحديثة.

(1) وإذا أخذنا بما ذهب إليه الأستاذ الدكتور طه حسين من أن معظم الشعر الجاهلي منحول لتضاعف أثر الإسلام وثقافته في الأدب والشعر.

ولكن هذا كله مربوط إلى الإسلام برباط وثيق، كما هو شأن كل شيء فالقصّاص القديم كان يبدأ بالصلاة على النبي، بينما كان الشاعر الماجن يختم فحشه ومجونه بالاستغفار والاعتذار والإنابة إلى الله، والصلاة على النبي أيضاً^(٢)، ومن السهل في مثل هذا الجو تقدير العلاقة القوية، والإحاطة الشاملة حتى وإن لم تحس، التي يحيط بها الإسلام كل دوائر الفكر والثقافة وجذور الفن والآداب.

والواقع أن أصالة الدين في الشرق وأحاطته كادت تجعله مقوماً بارزاً من مقومات المجتمع العربي، إن لم يكن أبرز المقومات فيه على الإطلاق، مقوماً تتركز فيه روح الشعوب، وتزدوج فيه الجنسية والعقيدة ويعد الحارس الأمين والمشخص الحقيقي لها، على أن هذا موضوع آخر لا نريد أن نستطرد فيه حتى لا نخرج عن صلب موضوعنا الأساسي.

وما نريد أن نقوله هو أن الدين كان في البلاد العربية المصدر الذي يزود المجتمع بالآداب والعلوم والفنون، والذي يشخص روح الشعب وتنبؤ فيه أبرز مقوماته، وأن هذا يصدق في التاريخ القديم كما يصدق بصفة خاصة في التاريخ الوسيط عندما كان المفكر العربي عراقياً أو شامياً أو مصرياً يستطيع أن يخترق الحدود حتى الجزيرة العربية غرباً، ما دام عربي اللسان، مسلم العقيدة، لا يحس غربة في هذه البلاد كما كان الروماني القديم يستطيع أن يخترق العالم مزهواً بجنسيته التي تفتح له الأبواب، وتخضع له الرقاب، وأن العالم العربي قد ظل سعيداً، ولو بالصفة النسبية، في حفاظ العملاق العظيم "الإسلام" وربيبته التي حلاها من عطل، وشهرها من نكر "العربية" حتى بدأ الوهن بالهجوم على العربية أولاً، إذ لم يكن من السهل الهجوم على العملاق العظيم، بظهور الترك والمماليك في أواخر الخلافة العباسية. وكانت موقعة مرج دابق في الحقيقة هي نهاية ازدهار المجتمع العربي وبداية الانكماش، إذ تراجعت المجتمعات العربية إلى حدودها الداخلية، ولذت بالقرى والكفور والنجوع والوهاد وبدأت "الهجنة" لغوياً، وجنسياً، واجتماعياً تطفو فوق سطح المجتمع في العواصم والشواطئ والمدن التي كانت مراكز معسكرات الفاتحين، والتي بدأ منها التحلل، وكان العزاء الوحيد للشعوب العربية أنها وإن كانت قد أوتيت من ناحية سماحة الإسلام، وعدم تفرقة العنصرية، إلا أن هذه السماحة نفسها قد وطأت أكناف الفاتحين، فكانوا رغم رطانتهم وبربريتهم وجفائهم مسلمون ظلت فيهم آثاره دفينه من الإسلام جعلتهم يخشعون لتقريع الشيوخ القوميين الذين كانوا يمثلون الطابع القومي والمجتمع الأصلي واحتفظوا بقدر من الاعتزاز القديم كان من أسبابه أنهم أقرب إلى الإسلام بفضل اللغة العربية - لغة القرآن - من الغزاة، وظهر هذا عندما جاءت الحملة الفرنسية وفر الترك والمماليك فقاد الشيوخ المقاومة الشعبية وحملوا عبأها، وكانت مواقفهم في مجابهة داهية الحرب والسياسة "نابليون" جديرة بالإعجاب، وأظهروا دون أن يكون لهم أي تجربة سياسية حديثة أو تنظيم عسكري عصري براعة وصلابة استمدوها من روح العملاق العظيم فهدهم سواء السبيل، وكانت مقاومتهم أمينة على البلاد أكثر من مقاومات أخرى عرفها التاريخ المصري هزيلة واهية لأنها قامت مستقلة عن الإسلام، منبئة عن أصوله الراسخة المكيئة.

وكانت الحملة الفرنسية هي الخط الفاصل بين الماضي والحاضر، فمع أن الغزو التركي كان بداية النهاية، إلا أن الإسلامية التي أشرنا إليها لم تجعل الترك غزاة أو مستعمرين بمعنى الكلمة واستطاعت البلاد أن تحتفظ بقدر من مقوماتها تمكنت به في نهاية العهد التركي، وبعد كل بعث المماليك والترك طوال ثلاثة قرون تقريباً أن تقوم بالمقاومة التي أشرنا إليها.

(٢) لقد لاحظ هذه الملاحظة المستشرق ادوار وليم لين في كتاب "المصريون المحدثون، وعاداتهم في القرن التاسع عشر" وأورد ردود الذين ناقشه في النقطة واعتذارهم بفكرة التوبة ويمكن ملاحظة أن كلمة "صلى على النبي" لا تزال تتخذ كافتتاح للحديث.

بيد أن الحملة الفرنسية، وإن كانت قد انهزمت عسكرياً إلا أنها زلزلت قواعد المجتمع القديم وأنهت العهد الوسيط (بالنسبة لمصر) وأظهرت محمد على الذي لم يكن مصرياً، وكان إيمانه بالغرب أعظم من إيمانه بالإسلام فأفسح الطريق للاستعمار.

فترة الانتقال:

من هذه اللحظة حدثت الهوة العظيمة بين ماضي البلاد وحاضرها وأنبئت الصلة بين الأصل العظيم والفروع المستجدة، فقد استورد محمد على التجار والمهندسين والقواد من الغرب كما صدر إليه التلاميذ والطلبة حيث تعلموا لغة غريبة، بل هي إلى حد رمزي مضادة للغاتهم⁽¹⁾، وعاشوا في مجتمع يختلف تماماً عن مجتمعهم في المناخ والآداب والتقاليد.. الخ.

وبدأت صلة غير متكافئة بين العالم العربي والغرب لم يلبث الغرب فيها أن أخذ يقوض كافة مقومات الحياة والشعب حتى انتهى الأمر على يدي إسماعيل الذي كان مندوباً للغرب في مصر بالاستعمار السياسي. وكانت المقاومة في التل الكبير أضعف في كل ناحية من مقاومة الحملة الفرنسية بقدر ابتعاد الأولى عن المعنى الإسلامي، وضعف المقومات الشعبية.

وانكماش المجتمع المصري عقب الاحتلال الإنجليزي انكماشاً عظيماً، وتراجع متخناً بالجراح إلى الداخل ولاذ بالقرى والكفور والنجوع كما فعل غداة مرج دابق واتخذ من القوات العديدة والطرق الترابية الضيقة المتعرجة، وسيقان الذرة المرتفعة، بل ومن الحشرات، جيوش البعوض والبراغيث والقمل التي لا ترحم القادم الجديد، اتخذ من كل هذه عوازل تعزله عن البلاء الذي حم بالبلاد وتحملت العواصم والشواطئ ثقله وبلواه، وفي الأكوخ الطينية المعتمة كان الطابع القومي يستكن في أعماق "الفلاحة" المصرية الأمانة على سر مصر وحامية تراثها وتقاليدها وروحها، كما يقر المعدن الثمين وسط الصخور.

إن فترة الانتقال التي بدأت بدءاً صريحاً بالحملة الفرنسية بلغت ذروتها بالاحتلال الإنجليزي إذ أخذ المستعمر يقيم المدارس، ويؤسس المحاكم، ويضع النظم ويسن القوانين ويستورد السلع وهو في كل هذه يحطم في المقومات الشعبية.

ففي الناحية الاقتصادية أعلى شأن الأجانب ولم يكن للأجانب شأن أيام المماليك، إذ لم يكونوا أكثر من جاليات ضئيلة العدد، واهية النفوذ، منعزلة تماماً في أحياء خاصة، وكان محمد على هو الذي بدأ سياسة إعلاء شأن الأجانب من يونانيين وفرنسيين وإيطاليين وإنجليز.. الخ، ثم جاء إسماعيل فمكن للأجانب كما لم يحدث في أي عهد، وفي أي بلد. وجاء الاحتلال فجعل من طرق النهب والسلب قانوناً منظماً، وذلك للأجانب أعناق المصريين حتى أصبح أقل أجنبي أرفع مكاناً وأعز جناباً من أكبر كبير من أهل البلاد وأقام هؤلاء اقتصاديات البلاد على أساس يكمل الرأسمالية الأوروبية التي كانوا في الحقيقية يمثلونها أي على أساس تصدير المواد الخام واستيراد المواد المصنوعة والاستيلاء على الأراضي والمرافق الحيوية وكان لهؤلاء الأجانب بعد ذلك أثر اجتماعي وسياسي خطير، ومشئوم، إذ أصبحوا بذرة الفساد الاجتماعي والتحلل الخلقي، كما أصبحوا الأسفين السياسي والطبور الخامس والعملاء المتطوعين الدائمين للاستعمار، الذين يرون أن مصلحتهم، بل حياتهم إنما تتوقف على بقاء الجيش المحتل، ومنذ بدأت الحملة الفرنسية في سنة ١٧٩٨م حتى الحملة الفرنسية الإنجليزية الإسرائيلية على بور سعيد سنة ١٩٥٦م، وقد أظهر الأجانب أسوأ صور العقوق والجحود والنكران وأن ولاءهم سيكون دائماً أبداً لبلادهم وحدها، وليس لمصر، وسيظلون كذلك حتى يصفون من هذه البلاد تصفية تامة.

(١) الإشارة إلى كتابه اللغات الأوروبية من الشمال إلى اليمين.

وفي الناحية السياسية دمروا الجيش وهو رمز عزة البلاد وحامى كرامتها وركزوا السلطة في يد المندوب السامي البريطاني، واصطنعوا شأن الاستعمار دائماً القلة الأرستقراطية وعلى رأسهم الحاكم وسلطوهم على أبناء بلدهم وإن تظاهروا أمام الشعب بأنهم حماة أصحاب الجلايب الزرقاء وحرموا البلاد من أي سياسة خارجية ن ومزقوا وحدتها المقدسة مع السودان ولما أرادوا التظاهر بمنح البلاد استقلالها أدخلوا النظام النيابي الحديث وكان مستشار الحقانية "مسترايموس" هو المرجع النهائي الأخير في نصوص دستور سنة ١٩٢٣م.

وهذه نقطة هامة تستحق وقفة قصيرة، فالنظم النيابية تتفق في جوهرها مع روح الإسلام الذي كان ما يزال يهيمن على المجتمع المصري ولكن استيراد النظام واقتباسه اقتباساً تاماً والاحتفاظ له ببعض المظاهر الغربية عن المجتمع المصري واعتبار أسسه إنما تعود إلى "مونتسكيو" ونظرية فصل السلطات وليست الشورى ومسئولية الحاكم كما هي في الإسلام، هذه المظاهر لم تجعل الشعب يتجاوز مع النظام الدستوري الحديث تجاوزاً عميقاً، ولو ظهر النظام الدستوري كتنظيم عصري أقيم على أساس الآية "وأمرهم شورى بينهم" والحديث "كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته.. الخ" ولو حملت الأحزاب الجديدة الأسماء القديمة، مثل "الأنصار" أو الفرق الإسلامية أو غيرها، للمست هذه المعاني الأوتار الحساسة في الشعب، وتجاوبت مع الأغوار العميقة التي حفرها الإسلام في نفسيته ولا شعوره، وماذا كان على واضعي الدستور لو جعلوا البرلمان يفتح باباً من القرآن، ما دام البرلمان مظهر الإرادة الشعبية والإرادة الشعبية تجري على هذا في عرفها وتتفاعل به وترى فيه خيراً وبركة؟.

في سنة ١٨٨١م قدم شريف دستوره بناء على طلب عرابي وسلطان ومدرسة جمال الدين الفكرية فتحمس له الشعب حماساً كبيراً لأنه رغم استمداده للتفاصيل والنظم من الدساتير الحديثة إلا أنه قدم على أساس الإرادة الشعبية التي لا تفهم من الدستور والحكم النيابي سوى "الشورى" التي ذكرتها الآية "وأمرهم شورى بينهم" قيل أن تظهر الصور الحديثة للبرلمانات وجعلت الخطابات التي قدم بها الدستور والمطعمة بالآيات والأحاديث منه جزءاً من الكيان المألوف في المجتمع المصري أما في سنة ١٩٢٣م فلم يكن مستر ايموس بالطبع يفهم شيئاً من هذه المعاني وكان المصريون الذين قدموه حريصين على استيراده على طريقة المودة الفاشية في الاستيراد على أحدث الطرق، فقدم إلى الشعب متنكراً في لبوس غربية، فلم يتعرف على المعاني التي يحبها، رغم وجودها، ولم تلمس فيه هذه المعاني نفسها الأوتار الحساسة في نفسه عندما ذكرت له لأنها كانت تذكر له دائماً بأسماء غربية، ولم يكن من ذنب فلاحي "برقين" أن يعتقدوا أن الديمقراطية إنما هي مذهب في التحلل الخلقي، أن الديمقراطية والديوث سواء لأنه لا يفترض في فلاحي برقين ولا في غيرها أن يلماوا بالاشتقاق اليوناني للكلمة^(١).

وفي الناحية الاجتماعية أدخل المستعمر العادات والآداب الأوروبية التي كان الكثير منها جديداً على البلاد، وجعل غاية التعليم إخراج الكتبة والموظفين الذين لا يحسنون سوى "أجل يا سيدي" Yes Sir، وكون هؤلاء الموظفون الطبقة البورجوازية في المدن التي تميزت على الفلاحين وكانت وسيلتها إلى الترقى إلى المستعمر والاستسلام له والبعد عن المقومات الشعبية بدأت بؤرة التحلل الخلقي وأخذت تنشر سمومها، وتنفث تحللها في الدوائر التي تجاوزها وأصبحت الثقافة أوروبية فرنسية أو إنجليزية، فتجرد المثقف المصري من الاعتزاز الذي كان يحس به عندما كان يريد أن يستخرج نصاً فقهياً، فيرجع إلى أصوله بلغته، أو يرجع إلى ما هو أصل منها، القرآن أو الحديث وأصبح عليه إما أن يقنع بالنصوص المختصرة، والترجمات المقترضة، وإما أن يتبحر في اللغات الأوروبية وأصولها وآدابها، وهو في الحالة الأولى كلُّ على غيره، مستشعر لنقصه

(١) الإشارة هنا إلى الدعاية التي أثارها في أحد المعارك الانتخابية منافس أستاذنا الكبير أحمد لطفي السيد الذي كان يتبنى الفكرة الديمقراطية في دائرته الانتخابية "برقين" من أعمال مديرية الشرقية.

وقصوره، أما في الحالة الثانية فهناك الاحتمال القوي لتجرده من مقوماته قدر تبحره في الثقافة الأوروبية، لأنه سيسافر وسيعاشر أقواماً وسيصطنع عادات كلها غريبة عليه وشيئاً ستطمس العادات والعرف والتقليد والطابع القومي في نفسه وأوجد هذا مشاكل لا تزال نعانيها، منها تعدد الثقافات، واصطدام القديم منها بالجديد، ومنها ابتعاد مناهل الثقافة الحديثة عن المثقف المصري. ولو حدثت حركة ترجمة واسعة النطاق كالتى حدثت في عهد المأمون لأمكن الاستفادة من الثقافة العالمية دون التجرد من الحقائق القومية، ولكن المستعمر ما كان ليفعل شيئاً كهذا.

على أن أسوأ آثار فترة الانتقال وتدخل المستعمر كان تحطيم معنويات الشعب، وتدمير خلقه ومثله العليا القديمة التي كانت تستمد من الدين، وعدم إحلال المثل العليا الأخرى التي قامت عليها الحضارة الحديثة والاكتفاء بالمظاهر والسطحيات وهذا هو ما جعل المجتمع المصري بقدر ما يبتعد عن الريف بقدر ما يصبح ريشة في مهب الريح، تفتقد الثبات والرسوخ والطابع والجزور التي تربطها وتجعلها تعلو في شموخ وسمود وثبات، فلم تعرف هذه البلاد مثلاً علياً في غير الأديان من عهد إيزيس حتى عهد الإسلام، وعندما قوضت الحضارة الحديثة المقومات والمثل القديمة، لم يعن أحد بأن يدعو الشعب إلى الإيمان بالمثل العليا الحضارية أو فلسفة المعنويات التي قام عليها المجتمع الغربي من الفلسفة اليونانية حتى فلسفة كانت وحتى الفلسفات السياسية والاجتماعية.

آثار التركة الثقيلة، تركة فترة الانتقال، والملابس والظروف المتشابكة المعقدة لا تزال حية، ملموسة، تثبت وجودها بما نشهد من قلقلة واضطراب وتعدد وتنوع وتنافر وتضاد وحرب عنيفة بين القديم والجديد، الأصيل والدخيل، الشرقي والغربي.

وقد يظن الباحث السطحي أننا قد انتهينا من القديم نهائياً، وأن مصر لم تعد قطعة من أفريقيا وإنما هي قطعة من أوروبا كما قال إسماعيل، ولكن مسير نصف ساعة بالقطار ترد الإنسان في مصر إلى عهد الفراعنة وتجعله يقف بين مصدق ومكذب أمام الأكواخ الطينية وأمام الشادوف والنورج والساقية والمحراث، والآلات الزراعية التي كانت تستخدم في عهد الفراعنة ويحد رغم الإذاعة وهي أقوى وسائل التلقين والإيحاء، والصحف، لا يزال مؤمناً بالقديم يمنحه وحده قلبه ويقينه وثقته بينما يمنح كل ما سوى ذلك أذنيه وحدهما.

على أن النظرة العابرة للمدينة المصرية لا تسر مصرياً، فأى شيء أشد إيلاماً للنفس من هذا المسخ الدميم الذي تعرضه الشوارع الكبرى للمدينة؟ كل شيء فيها أجنبي مستورد والأجانب وحدهم هم السادة، والمصريون إما متسكعون، وإما بوابون وكل شيء مكتوب باللغات الأوروبية، بل إن الأسماء العربية نفسها تحرف تحريفاً مخجلاً، ونطالب نحن بإقرار هذا التحريف فنقرأ "كاپرو بالاس" وننطقها كذلك.

ودعك من بقية المشاكل والعقائيل التي نتعثر فيها كلما نخطو خطوة من التفاهة والسطحية والتهريج التي أصبحت سمات للشباب المصري المدني أو الموقف المحير التعس للمراة المصرية أو عشرات المشاكل الأخرى لأن هذا كله قد يدخل في باب التفاصيل التي تحتاج إلى كتب لا إلى كتاب واحد فضلاً عن رسالة مقتضبة عابرة لا تشير إلا إلى رؤوس المواضع.

فالمشكلة لا تزال، وأسباب ذلك في نظرنا أمران، الأول أن جذور المشكلة لا تزال متغلغلة في الأرض. لقد أصيب ساقها بالكثير من الكدمات والضربات وقلمت فروعها واقتطفت أوراقها ولكن الجذر العتيق لا يزال مكيناً منتشبتاً بالتربة، ذلك الجذر هو الطبيعة الزراعية لهذه البلاد، فإن البيئة الجغرافية، وأبرز ما فيها الزراعة، هي التي جعلت مصر من أول يوم من أيام تاريخها تهتدي إلى الدين، وتختلف عن اليونان فالحضارة الزراعية

حضارة دينية وسيكون هناك دائماً إله هو الذي يفسر للفلاح هذه المعجزة، معجزة نمو البذرة الصغيرة الجافة إلى شجرة وارفة الظلال غزيرة الثمار وسيان كان هذا الإله نهرًا أو شمسًا أو خالق النهر أو الشمس فلن يختلف الأمر - كما قدمنا - إلا قليلاً، ولن يفيد إلا قليلاً أيضاً أن نفهم الفلاح عملية التمثيل الضوئي. لأنه سيرى فيها نفسها معجزة جديدة، وسيفتقد وراءها القدرة الشاملة المحيطة التي لا يمكن أن تتوفر تلقائياً، أو لمخلوق، ومن أجل هذا كانت العلامة الوحيدة التي تناصر الماركسيين في هذه البلاد هي نمو الطبقة العاملة التي تصنع بالطرق الآلية والأسلوب الرأسمالي ولكن هذا النمو لا يزال ضئيلاً ولا تزال الأغلبية الساحقة فلاحين، وحتى الذين يكونون البورجوازية في المدن، والبلوريتاريا العمالية هؤلاء وأولئك مربوطون إلي الكتلة الريفية، والقرية والفلاح الذي لا يزال الشخص الحقيقي للشعب، والذي يمتد ظله الطويل علي المدينة المتبرجة بأسرها، ولا يزال رغم فاقته، وحاجته، وانعزاله هو المؤثر الأول في اقتصاديات واجتماعيات وسياسيات البلاد، وبقدر انعزال أية حركة عنه بقدر ما يكون فشلها وتدهورها رغم ما يمكن أن تكتسبه أو لا من مظهر وبريق، وبقدر ما يكون ارتباط أية حركة به بقدر ما تكون أصلتها وتمكنها.

والسبب الثاني أن المفكرين عجزوا عن فهم المشكلة، أو فهموها ولكنهم عجزوا عن حلها فالماركسي القح، والمتعصب الديني لا يريان المشكلة، لأن اندماج كل منهما في دوره يعزله عن الوجهة الأخرى للموضوع، ومن يلمس الناحيتين يعجز عادة وللأسف عن العلاج ويكتفي بدور المتفرج أو المتحسر أو الناقد، وينقصه التضلع والتكريس اللازمان لمن ينصب نفسه للعلاج.

موقف المفكر العربي:

والآن نصل إلي لب المشكلة، أي موقف المفكر العربي المعاصر من الآراء والمذاهب السياسية الحديثة فإذا كانت فترة الانتقال لا تزال ممتدة كما أوضحنا، وإذا كان الفكر يجب أن يرتبط بالواقع وأن لا يهيم في وديان الخيال أو يكون نظريات مجردة، وعقائد مطلقة فإنه يبدو لنا أن الموقف الذي يقفه من المذاهب السياسية يجب أن يكون فريداً في نوعه، مختلفاً في أصوله عن موقف المفكر الغربي فالماركسي المصري الذي يؤمن بالماركسية إيمان الفرنسي والإيطالي والروسي، والذي يلتحق بالرفاق يهوداً وأجانب ومنحطين وينسي أمه العجوز وأباه الشيخ، أو يشيد بالكفاح "الجواتيمالي" المجيد دون أن يلم بتاريخ بلده أو حدود وطنه أو يدعو للاندماج في الأسرة العالمية، دون أن يكون قد اندمج في المجتمع المصري الأصيل - مجتمع القرية - هذا الماركسي المصري سيتعثر، وسيكون في أكرم صورة كالمنجم الذي علق أنظاره بنجوم السماء ليستقرئ الغيب والمستقبل فهوي في حفرة من الأرض وحضيض من الواقع !

والمسلم المتعصب الذي يغتر بما أشرنا إليه من مكانة الدين في نفوس المصريين ومركزه في المجتمع العربي فيتجاهل ثلاثة عشر قرناً من التغيير المستمر، والتقدم الحثيث هو كالمفلس الذي يضيق بالحاضر، فينام، ليسعد في دنيا الأحلام بثناء مزعوم أو لتتراءى له صور ثراء آبائه العريض القديم لابد أن سيسيتيقظ وستكون يقظته مفاجئة.

والرأسمالي المملوء إعجاباً بما رآه في أمريكا أو انجلترا أو فرنسا يفضل أن يستورد كل الثقافة والنظم والأساليب من هناك من أن يصدرها إليها فيريح ويستريح.

الماركسيون الذين يريدون أن يفتحوا هذه البلاد للشيوعية ويكسبوا لماركس والرأسماليون الذين يريدون أن يستغلوا أرضها وشعبها بحجة الصناعة والحرية.. الخ، والمتعصبون الذين يريدون أن يعيدوا المجتمع المصري إلي الوراثة باسم رسوله هؤلاء جميعاً يحاولون أن يفرضوا علي المجتمع المصري آراءهم المستوردة

أو القديمة. ويتجاهلون أن المجتمع نفسه هو الذي يجب أن يستلهم، وأن أي فكرة غريبة عنه يراد أن يطعم بها ستلفظ، وتنحي جانباً لأن المجتمع كائن عضوي حي وليس نباتاً أو جماداً والجسم الحي يلفظ أي تطعيم له بغير نوعه، بل إن الدم البشري لا يقبل دمًا بشرياً آخر ما لم يكن من فصيلته المحددة نفسها.

ولا شك أن عدم نجاح الدعوات الماركسية والرأسمالية في هذه البلاد إنما يعود إلي ذلك كما أن انتكاس الهيئة الإسلامية التي حملت لواء الدعوة الدينية يدل علي أنها لم تستطع إحكام الملاءمة بين الإسلام والمجتمع المصري في حالته الحديثة ووضعيتها الراهنة.

إن أول ما يجب علي المفكر العربي ملاحظته قبل اختيار المذهب السياسي هو دراسة طبيعية مجتمعه من كافة النواحي، كالعوامل التاريخية القديمة والحديثة والوضع الاقتصادي والسياسي في الماضي والحاضر، ومقومات الشعب واعتزازاته وما ينفرد به من خصائص تختلف في بلد أو شعب أو زمان عنها في بلد أو شعب أو زمان آخر. وعليه أن يلحظ أن المجتمعات وإن كانت تتشابه إلا أنها تتفارق كذلك زماناً ومكاناً وأن لها ذاتيتها العضوية وأن الصلاحية الموضوعية لعقيدة - إذا كانت مثل هذه الصلاحية موجود - لا تبرر تطبيقها علي مجتمع، لأن ما يصلح في الماضي قد لا يصلح في الحاضر، وما يصلح لمجتمع قد لا يصلح لآخر، وقد تتقارب العوامل الاقتصادية مثلاً، ولكن خصائص المجتمع هي دائماً أكبر وأكثر من تعميمات المبادئ التي لا تجعل في حسابها مجتمعاً معيناً في زمن معين وإنما تنظر إلي المجتمعات كوحدة، وأن الأمر في المذاهب قد لا يكون مسألة منطق حسابي أو رياضي كما يظن ولهذا يحسن به أن يقتصد فيما يراه "طريقة علمية" فقد لا يراه الآخرون كذلك وقد لا يكون الأمر كله في نطاق الدائرة العلمية صحيحة أو مزعومة.

وعلي المفكر العربي أن يجعل ولاءه الأول لبلده، ولن نغالي أو نسرف في المعاني الوطنية والقومية ولن نقول إن شعباً ما فوق الجميع، أو إن بلداً ما له الحق في الحكم والسيطرة علي الآخرين أو دونهم، فنحن نري أن للمفكر العربي ثلاث دوائر تتوالى أهميتها حسب أولوية مباشرة كل واحد منها له فالدائرة الأولى الوطن أي مصر للمصريين وسوريا للسوريين والعراق للعراقيين والدائرة الثانية "العالم العربي" أي تلك الكتلة التي جمعها التاريخ، وقربت بين أحادها عوامل عدة تقريباً كبيراً، وإن لم تصل إلي الدرجة التي تنصهر فيها هذه البلاد في بوتقة الوحدة الكاملة وقد يأتي ذلك وتوجد المصلحة ما ترك حتى الآن للعاطفة وعلي كل حال فالأمر علي ما هو عليه حتى تقول الشعوب كلمتها وتحرر الدول العربية التي ربطها الاستعمار إلي عجلته من هذه القيود، حتى لا تكون وحدتها على ما هي عليه من ارتباطات بالمستعمرين ثغرة في كيان الوحدة العربية بأسرها، والدائرة الثالثة "الإنسانية جمعاء" التي يجب أن تعمل البلاد العربية منفردة أو مجتمعة لسلامها ورخائها وحريتها وعدالتها، لأن هذه المشاركة لا تقوم علي أساس العواطف والمبادئ المجردة، ولكن لأن مصائر العالم أصبحت تهم جميع البلاد أهمية مباشرة، فنحن نقرب حثيثاً من العهد العالمي، والحكومة العالمية.

فإذا أحسن المفكر العربي دراسة عوامل مجتمعه وبيئته ودخل ميدان المذاهب السياسية وليس في عقله إلا النزاهة، وليس في قلبه إلا وطنه فعليه أن ينظر إلي المذاهب السياسية من ناحيتها الناحية الموضوعية وناحية ما فيها من عناصر تتفق مع المجتمع المصري وتصلح له، وعليه أن يأنف وهو يحمل اسم "المفكر" أن يكون تبيعاً دون فهم مقوداً دون إدراك، أو أن يؤخذ بسحر الانتصار أو أن يعشي عينيه لألاء بعض المبادئ وشهرة عظماء الرجال إن آدم سميث ومونتسكيو، وماركس وانجلز وغيرهم يستحقون ولا شك تقدير كبيراً، ولكنهم لا يستحقون تقديساً، ولا يعيبيهم أن يكونوا قد أخطأوا، فما من أحد معصوم، بل إن الطبيعي هو أن يخطئوا وأن يظهر هذا الخطأ كلما طال عليهم الأمد أو بعد بهم العهد، وقد ظن الناس غداة ظهور "ثروة الأمم" و"روح القوانين" و"رأس المال" أنها كتب معصومة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ثم ما لبثت أن ظهرت

فيها وجوه النقص وعليه أن يحذر داء "الخبراء" فإذا عكف علي مذهب واحد فسيمرن عقله عليه وسيطوع له الاستحسان والانقياد أو سيصير خبيراً بمذهبه قدر جهله بغيره، ولا يلومن إلا نفسه إذا ابتلي بداء التعصب الذميم أو أصبح في واد وأصبح المجتمع في واد آخر.

* * *

الفصل الثاني

الموقف المختار للمفكر العربي

موقف الكاتب كمثال:

لعل مما يزيد الملاحظات السابقة وضوحاً، ويضع النقط علي الحروف كما يقولون، أن نقدم هنا، كمثال عملي محدد لموقف الكاتب العربي، موقف الكاتب نفسه، ومما يضاعف في أهمية هذا المثال أن يكون صاحبه قد تعرض أكثر من بعض المفكرين لقوي الشد والجذب المتعارضة، وأنه استغرق وقتاً طويلاً ينتهي إلى رأي يحقق به بعض التوازن، وحتى لما انتهى إلي هذا الرأي بدا غامضاً غير مفهوم ولنقل بصراحة أعظم، إن الشيوعيين كانوا يرونه من الإخوان، وإن الإخوان كانوا يرونه من الشيوعيين، أن هذه العوامل لمما تعطي المثال حيوية خاصة، وإن لم يكن الكاتب في الحقيقة فريداً في هذا الموقف، فلعله أحد المئات أو الألوف الذين يقفون في منتصف الطريق بين أقصى اليمين، وأقصى اليسار، يظن هؤلاء أنه منهم، ويعتقد أولئك أنه منهم وما هو من هؤلاء أو أولئك، ومما يريح الفؤاد أن تعرض الفرصة لكي يظهر الكاتب صفحته، ويحدد موقفه، ويعرض الرأي الذي يؤمن به، ويدعو إليه، وهو بعد، رأي الذين جعلوا القصد في الأمور دأباً، كما هو رأي الدار التي نشرت هذه الرسالة التمهيدية والتي تعترزم أن تنشر رسائل متوالية أخرى عن النظم والمذاهب السياسية.

المذاهب الثلاثة:

وفي المجتمع العربي مذاهب عديدة، ونظم سياسية كثيرة، ولكنها أساساً تنتهي إلي ثلاث فصائل رئيسية: الفصيلة الأولى الرأسمالية وهي التي تتسم بالحرية الاقتصادية وتمثلها النظم المطبقة حالياً في البلاد العربية، وهي بصفة عامة نصيرة الأوضاع الحالية، والشيوعية وهي تمثل خليطاً من المذاهب يبدأ بالاشتراكية ويتركز في الماركسية وينتهي إلي الشيوعية علي اختلاف في الوسيلة والمدى، والإسلامية وهي أيضاً مدرسة فكرية تنبذ في أكتف صورها "بالرجعية" وتنتهي بنوع من التجديد الإسلامي والجمع بين الفكرة الإسلامية والحضارة العصرية. ويمكن مع التجاوز أن نقول إن في المجتمع المصري مذهباً يستلهم الماضي وهو "الإسلامية" وآخر يستبقي الحاضر وهو "الرأسمالية"، وثالث يستطلع المستقبل وهو "الماركسية".

الرأسمالية:

من الطبيعي أن نبدأ بتحديد موقفنا من الرأسمالية، لأن الرأسمالية هي المذهب المطبق في المجتمع العربي، وما في هذا المجتمع من حسنات أو سيئات إنما يعود إلي الرأسمالية والأمر هنا ليس أمر الوضع الاقتصادي، ولكنه الوضع الاجتماعي وبالأكثر الوضع السياسي، فالبلاد العربية الراسفة منها في أغلال الاستعمار، والمتعثرة منها في عقابيله وهي تخطو خطواتها الأولى نحو الحرية، هذه وتلك تدين بلعنة الاستعمار إلي الرأسمالية التي فرضت الاستعمار فرضاً علي البلاد الأوروبية، وجعلت منه امتداداً لإنتاجها، ولازمة لا غناء عنها لطريقتها في الصنع والتوزيع، ومذهبها في الحرية والربح، الأمر الذي لا نري أنفسنا في حاجة إلي المحاجة فيه أو التدليل عليه لأنه من المسلم به أن الاستعمار الحديث هو أحد مراحل الرأسمالية.

من الطبيعي إذن أن يبدأ المفكر العربي بالرأسمالية وأن يكون اهتمامه بها أعظم من غيرها، والآن نقول إنه من الطبيعي أيضاً أن يكون عظيم العداوة لها صريحاً في محاربتة إياها.

ذلك أن المفكر العربي بحكم بيئته وتاريخه ومقوماته والمثل العليا التي يستهدفها والأصول التي يستلهمها هو مفكر معنوي، مربوط إلي أعلا المذاهب المعنوية وأشدّها تركيزاً وهي الأديان، ومن أجل هذا فهو عدو مطبوع لمذهب يجعل كيس النقود هدفاً والعجل الذهبي إلهاً ويحصر إيمانه في محفظته والرأسمالية في حقيقتها ليست إلا آخر صور الديانة الوثنية، إذ الأصل في هذه هي الفردية، والفردية هي عماد الرأسمالية، وليس من العسير قط ملاحظة معالم الوثنية الرأسمالية في استعلاء المليونير القدير الذي يقول "إبن لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب: أسباب السموات"، فتدق ألف مطرقة، وترتفع ناطحة سحاب، وفي عبادة نجمة السينما التي تتضاءل أمام ما يحيط بها من معجبين عابدين، مولهين، وما تلقاه من تمجيد، وما ترفل فيه ثراء، وبذخ ما كانت تظفر به "ميسالينا" و"بومبيا" و"وليفيا" وافروديت وفينوس^(١)، وحتى في الناحية العلمية لم يدق علي عالم طبيعي مثل هالدين أن يري السمة الوثنية تطبع هذا العصر لعنايته المفرطة بالجانب الطبيعي والمادي من العلوم، وإهماله الجانب الآخر والهام، جانب علوم النفس والروح والاجتماع.. الخ^(٢).

ليس من العجيب إذن أن تقف الرأسمالية دائماً موقف النقيض من الأديان، ومن كل مؤمن بالمعنويات "موحد" بالله، وأن تمثل الديانة الوثنية أمام الديانة السماوية والشيطان أمام الملاك فإن هذا في الحقيقة هو ما كان دائماً وهو التعليل الوحيد لما يحفل به الإسلام والمسيحية من آيات الوعيد والتقريع للأغنياء والحض علي الزهد.. الخ، الأمر الذي لا يقف عند الأديان أو لا يصدر إلا من الأنبياء، ولكنه يتعدى هذه الدائرة إلي دائرة كل المؤمنين بالقيم المعنوية، فالفلاسفة والكتّاب والشعراء والفنانون كلهم يقفون في مواجهة عبدة الأوثان، وخزنة المال والمؤمنين بالذات وليس بالموضوع بالمادة وليس بالفكر.

ولكن العجيب حقاً، هو الالتباس البالغ الذي حدث في هذا الموضوع، فإن الرأسماليين قد استطاعوا أن يصطنعوا الشيوخ والكهنة ورجال الدين وأن يجروهم وراءهم بحبال الوظائف والعطايا والمناصب والأوقاف وتمكنوا من أن يحبسوا الدين في خزائهم الحديدية مع بقية كنوزهم الثمينة، ونشأت الخصومة التقليدية في الإسلام والمسيحية بين العلماء الرسميين، وبين العلماء الأحرار من متصوفة ووعاظ أو طوائف الرهبان المسيحية التي كان محورها أساساً الدعوة إلي الزهد، ومقاومة التكالب علي المادة والسلطان، ولكن الفريق الأول كان أعظم قوة وأشد بأساً، وكانت النظم الإنتاجية والسياسية في صفه، فأصبح استغلال الدين يكاد أن يكون القاعدة وسلطت آية، أو جزءاً من آية "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" سيفاً يصلت علي الشعب وتلزم به الطاعة والتسليم، ورأينا في مصر صورة من ذلك عندما كانت شياخة الطرق الصوفية تدين بالطاعة للمندوب السامي البريطاني! وكانت نقابة الأشراف تتمسح بأذيال فاروق وتتملقه، ولما انطوت صفحات تلك العصور، وبدأ العصر الحديث لم ينحسر الاستغلال، على العكس، زاد مع زيادة الرأسمالية، التي تقمصت ثياب الحمل الوديع وتصنعت الدفاع عن المعنويات والقيم تجاه جائحة المادية الشيوعية.

(١) ميسالينا زوجة الإمبراطور الرماني "كلوديوس" و"بومبيا" زوجة الإمبراطور "نيرون" و"وليفيا" زوجة أغسطس وأم الإمبراطور طيبريوس وكانت مسالينا وبومبيا مضرب المثل في العهر والتبذير، وألهمت ليفيا بعد وفاتها وافروديت وفينوس الهات الجمال لدي الإغريق والرومان.

(٢) فوضي العالم ومسئولية العلم لويليم ماكوجل - لندن سنة ١٩٣١م، ص ١٥، والملاحظة التي أبداها هالدين هي من كتابه "الأسس الفلسفية للبيولوجي"

ولسنا نشك في أن التحالف بين الأديان والرأسمالية إنما هو التباس متقن أحسن الرأسماليون صياغته وإيهام الناس به، وساعدت علي ذلك وضعية العلماء والأكليروس الرسمية وحاجتهم إلي الرأسمالية، وأنه ما أن تتضح الأمور حتى تنفصم العلاقة ولا يكون تحالف بين الدين والرأسمالية " حتى يلج الجمل في سم الخياط".

وناحية أخرى غير ناحية المعنويات والقيم تهيمن علي المجتمع العربي وتلزم المفكر العربي تقديرها، تلك هي ناحية مهمة الدولة، فالرأسمالية لا تجعل للحكومة دوراً رئيسياً في أهم ما يؤثر علي مصائر الناس، وهي أرزاقهم وأعمالهم، أي الناحية الاقتصادية، وبقدر ما تلزم الدولة الجانب السلبي بقدر ما تكون متبعة للفلسفة الرأسمالية، وللرأسماليين فلسفتهم في تسويغ ذلك علي أساس المصلحة العامة، وليس هذا مجال شرح ذلك أو نقده، والمهم أن الرأسمالية تحصر دور الحكومة في أقل الحدود، وتضيق بكل تدخل منها، وتراه منافياً لمذهب حرية العمل، ولكن المفكر العربي ينحدر من دول قضت عليها أوضاعها التاريخية والجغرافية بأن يكون للحكومة دور كبير، بل أكبر دور، في كافة نواحي النشاط، وأبرزها الناحية الاقتصادية ففي مصر مثلاً، تتحكم الدولة في سياسة الري، وبذلك تملك في يديها مقاليد الحياة أو الموت للمواطنين، ولم ينتج هذا الوضع عن بناء السدود والقنوات والخزانات في العصر الحديث، ولكنه نشأ من وجود النيل الذي ربط البلاد، والذي أمكن بفضلها، تحقيق الوحدة القومية لمصر بالشكل المعروف حالياً - أي الوجه البحري والقبلي حتى مشارف السودان - منذ خمسين قرناً، بينما لم تتحد اسكتلندا وإنجلترا إلا سنة ١٦٠٣^(١)، ولم تتحقق الوحدة الألمانية إلا بعد الحرب السبعينية (١٨٧٠) ودعك من البلاد التي أظهرتها الحرب العالمية الأولى أو الثانية.

فالشعوب التي ينتمي إليها المفكر العربي قد تعودت منذ أقدم العصور أن تري الحكومة مركز النشاط والفعالية الذي ينتظم الحياة وقد يظن البعض أن المثل "إن فاتك الميري، تمرغ في ترابه" إنما هو ثمرة إحدى فترات انحلال المجتمع المصري، أو سيطرة الحكم العثماني، ولكن الحقيقة غير ذلك فهو يدين بوجوده إلي عهد الفراعنة وثمة وصية أثرية مشهورة من أب فرعوني إلي ابنه يستعرض فيها المصير التعس لكل ذوي المهن اليدوية، ويقارنه بالمستقبل السعيد، المريح المضمون لموظف الحكومة، والفلسفة الرأسمالية تري في هذا نوعاً من الضعف والوهن والتواكل، وأن المواطنين الصالحين لا يعتمدون علي الدولة في معاشهم، ونحن لا نتفق معها فيما ذهبت إليه، ولكن حتى لو كان الصواب جانبه، فإن المهم ليس الخطأ والصواب ولكن وجود تلك النزعة التي أشرنا إليها، والتي وصلنا بها إلي جذورها العميقة، وهذا الوجود يفرض نفسه علي المفكر العربي ما ظل ممثلاً للشعب، ويجعله يرفض نظاماً لا يتسق مع فكرة الشعب، أو فهمه لواجب الحكومة.

وبالنسبة هذا البلد "مصر" لا يعسر علي المؤرخ أن يلحظ ملاحظة دقيقة جداً، هي أن الأجانب كانوا يسيطرون إلي حد كبير علي الناحية الاقتصادية ما تركت حرة وأن هذا الحكم ينطبق - في شيء من التجاوز - علي عهود مصر الثلاثة ففي العهد القديم سيطر الفينيقيون واليونانيون، وفي العهد الوسط سيطر العرب والمغاربة - وإن لم يكونوا أجانب تماماً - وفي العهد الحديث سيطر الأوروبيون ذلك أن المصري فلاح وصانع وبصره بفنون الفلاحة مما لا نرى أنفسنا في حاجة للتدليل عليه، فهو محل تسليم الجميع، أما مهارته الصناعية، التي تكاد تكون وراثية، فتشهد بها الآثار الفرعونية والمخلفات الصناعية والإتقان الذي وصل إلي حد الإعجاز في فنون العمارة ولكن المصري لم يكن تاجراً، والتجارة هي التمثيل الحقيقي للرأسمالية لأنها هي العملية "الاستثمارية" وليس الإنتاجية أي التي لا يدفع إليها دافع إلا وازع الربح فحسب، وكل من الفلاح والصانع ينتج،

(١) وكان ذلك لمحض ملابسة تاريخية هي انقراض أسرة التيودور بموت الملكة اليزابث وأيلولة عرش إنجلترا إلي جيمس السادس ملك اسكتلندا.

ويعمل العمل المؤدي إلى الإنتاج من ألفه إلى يائه، أما التاجر فليس إلا وسيطاً بين البائع والمشتري، المنتج والمستهلك، وهو لا يزيد على الإنتاج إلا ربحه ! والتجارة بعد ذلك بصرف النظر عن كونها التجسيد الحقيقي للروح الرأسمالية - روح الاستثمار والكسب - فإنها من ناحية التنظيم، وبالنسبة للصناعة والزراعة في وضعية ممتازة، وضعية تمثل عنق الزجاجة فالتاجر يسيطر على إنتاج الفلاح والصانع، ويتلاعب ويتحكم فيه، والدراسة التاريخية للرأسمالية تظهر لنا أن التجارة العالمية في القرن الخامس عشر كانت نقطة الانطلاق للرأسمالية الحديثة، وأنها بفضل الأرباح الجسيمة استطاعت استغلال الاكتشافات والاختراعات التي أدت إلى ظهور الآلة، ولما تم هذا مولت - في شكل المصارف - مرة أخرى الصناعة الآلية حتى وصلت بها إلى الإنتاج الكبير ومردة الشركات الاحتكارية العالمية الكبرى، وأصبح رأس المال المصرفي، الممثل للتجارة، هو الذي يهيمن على الوجود الاقتصادي كله بما فيه "قباطنة الصناعة".

ومعنى هذا أن نظام الاقتصاد الحر لم يكن قط في مصلحة هذه البلاد، حتى قبل أن تأخذ الرأسمالية شكلها الحديث وإنتاجها الآلي وجبروتها المعروف.

ولسنا على كل حال في حاجة للتعمق في التاريخ المصري، فما يشهد به حاضر العالم بأسره كاف وزيادة، هذا الحاضر هو أن رؤوس الأموال الأجنبية تسيطر على اقتصاديات العالم العربي، وأنه إذا طبقت النظم الرأسمالية فستركز هذه السيطرة، وتغلظ حلقات سلاسلها أو على أقل تقدير، ستظل ثغرة في بناء الكيان العربي، وأنه أمام هذا لا يكون للبلاد العربية أمل في تخليص اقتصادياتها من براثن الأجانب على أسس رأسمالية، وأن الحل الوحيد لن يكون إلا بسيطرة الدولة، وملكيته لكافة وسائل الإنتاج وتصفية رؤوس الأموال الأجنبية والخاصة معاً، بهذه الوسيلة أو تلك.

وأخيراً فلن يشق على الفكر العربي أن يلمس بوادر انهيار النظام الاقتصادي الرأسمالي، وشواهد عقمه وجدبه، وأقول شمسها التي سطعت في القرن الثامن عشر وما أدى إليه من استغلال الكثرة الكثرة من الشعوب في سبيل إثراء القلة الضئيلة.

فإذا تركنا هذه العوامل فهناك حقيقة أخرى ماثلة أمام الأذهان، ولا يملك المفكر العربي أن يطرحها من تقديره تلك هي أن الدول الرأسمالية لا تزال تشن الحروب الصريحة، وستشنها في المستقبل ما ملكت ذلك، وستحيك الدسائس والمؤامرات والحروب الاقتصادية إذا عجزت عن الحرب الصريحة وستستطيع الإضرار بالعالم العربي كثيراً ما ظل نظامه رأسمالياً مربوطاً إلى عجلة الرأسمالية العالمية التي تسيطر عليها.

هذه العوامل كلها تجعل المفكر العربي يرفض الرأسمالية ولا يشعر نحوها بغير البغض والعداء والكراهية، ولو كان الأمر أمر عاطفة فحسب لما أخذته بها رحمة، ولكننا كما قلنا نؤثر القصد والريث، وأن لا يجرمنا شأن قوم على أن لا نعدل، أو أن تحيد بنا الخصومة عن جادة الحقيقة، لذلك فإن المفكر العربي إلى جانب رفضه البات الجانب الاقتصادي من الرأسمالية وما يقوم عليه من حرية للمشروع الخاص والملكية الفردية لوسائل الإنتاج ونظم التوارث، فإنه يقف هنيهة أمام النظام السياسي في الرأسمالية ولا يسعه إلا أن يعترف أن هنا شيئاً يتفق مع مثله العليا، وأن الحريات في الفكر والعقيدة والسياسة هي ما تستحق الرأسمالية عليه شكره وتقديره وإن كان يعلم حق العلم أن الرأسمالية لم تكن مخلصاً في سماحها لهذه الحريات بالظهور، ولا مستهدفة خير الفكر ولا الشعب إذ لم ترم في الحقيقة من ورائها إلا إلى حرية الكسب والاستغلال ومراكمة الثروات - وإنها عندما ظهرت المثل العليا والحريات الشعبية انتقصت منها بحيث كادت تذهب بجوهرها واستطاعت بفضل المال الذي احتفظت به أن تسلب بالشمال، ما أعطته باليمين، يعلم المفكر العربي هذا حق العلم، لأنه يشاهد

الفجوة الواسعة بين الحريات كما يجب أن تكون، وما هي عليه بالفعل في الرأسمالية، ولكنه يتقبل هذه الحريات لأنه سيجرد الرأسمالية من أنيابها الحداد وسمومها الناقعة الملكية الوراثية حرية المشروع الفردي التي جعلت من الحريات الرأسمالية شبحاً ورسمًا.

وهكذا يكون الموقف المختار للمفكر العربي بالنسبة للرأسمالية هو رفض المثل الأعلى المادي للرأسمالية وما استتبعه هذا المثل الأعلى من نظم ومبادئ. وإخضاع كل ذلك لمصلحة المجموعة إخضاعاً تاماً وقبول أسس الحريات والتنظيم السياسي الرأسمالي مع تنظيم تفاصيلها بما يتفق مع الأوضاع الخاصة للبلاد العربية دون أن يذهب بلبها.

الماركسية:

والمذهب السياسي الثاني هو الماركسية، وقد فضلنا لفظة الماركسية على الشيوعية والاشتراكية لأن مدلول الشيوعية من التعميم والمثالية بحيث لا يمكن الحديث عنها في مجال المذاهب السياسية المطبقة، ولأن الاشتراكية مازالت، كما كانت وقت ماركس وإنجلز^(١)، في وضعية مائعة، فهي في بلاد أقرب إلى الرأسمالية منها إلى الشيوعية وفي بلاد أخرى أقرب إلى الشيوعية منها إلى الرأسمالية، وفي جميع الحالات فإن أبرز ما توحى به هو الترفيع والإصلاح والتجديد، وليس الأصالة والإبداع اللذين لا بد منهما لكل مذهب سياسي، وأخيراً فلأن الذين يطلق عليهم "شيوعيون" يسلمون - على اختلاف فهمهم للتفاصيل - لماركس بالإمامة، وبأنه واضع المذاهب.

سنخرج من حديثنا إذن محاولة "مزدك"^(٢) الحاسمة الجريئة وآراء "أفلاطون" الطريفة، وثورة "سبارتا كوس" في رومة والزنج في البصرة، وآمال المثاليين ودعاة الدولة الفاضلة كسان سيمون وفورييه وبلان واغتيال الفوضويين والعدميين ومحاولاتهم المستيئة كما لن نتحدث أيضاً عن جهود المدرسة الاشتراكية الإصلاحية الإنجليزية التي بدأت بالمصلح العجيب العظيم، روبرت أوين، وانتهت بجمعية "الفايان" ومدرستها الفكرية في حزب العمال لن نتحدث عن هذا كله لضيق المجال ولأن الحديث عن هذا على أهميته وطلاوته أولى بكتب المذاهب، وحسبنا أن نقول إن فيها الكثير مما يستحق الإعجاب والاحترام، والتقدير وأن الصور التي خلفوها ستظل دائماً تلمس الأوتار الحساسة في قلوب المصلحين والمفكرين والشباب وتزودهم بآيات من بطولة الكفاح، وصدق التضحية ونبل الغاية رغم كل ما يمكن أن يوجه إليهم من نقد أو يثار عليهم من اعتراض.

وحتى لا يرمي المفكر العربي المعاصر بالعقوق أو يوصم بالجوحد، ينبغي له الإشارة إلى نقطة هامة قبل أن يبدأ ساعة حسابه، ومناقشته للماركسية تلك هي أن الدول الماركسية وعلى رأسها روسيا السوفيتية والصين الشعبية هي التي ناصرت هذه البلاد في محنتها الأخيرة عندما تكالب عليها الاستعمار والمستعمرون ووقفت أمريكا موقف الخسة والذناء والسلبية المغربية، فمن حق هذه الدول على المفكر العربي أن يشكر لها يدها البيضاء وموقفها الكريم وأن يقتدي بالمفكر العربي الأول الذي أثار شجونه مرأى الطلل الفارسي البالي، وهيج كامن عواطفه ذكرى تأييد قديم أداه أصحاب هذا الطلل إلى قومه.

(١) وقد كان هذا هو السبب في إطلاق اسم "البيان الشيوعي" على الوثيقة الماركسية الأولى، كما أوضح ذلك إنجلز في مقدمة الطبعة الإنجليزية له التي صدرت سنة ١٨٨٤م (مختارات من ماركس وإنجلز، المجلد الأول، ص ٢٧، طبعة موسكو سنة ١٩٥٥م).

(٢) مزدك: داعية فارسي ظهر في القرن الخامس بعد المسيح. دعا إلى شيوع الأموال والنساء باعتبار أن الملكية الخاصة لهذين هي أكبر العوامل التي تفرق الجماعات، ويدور حولها التنافر وحاول تحقيق ذلك، وفشل بالطبع.

فسجل اعترافه بالجميل في ختام مراثاته البليغة^(١).

والحديث عن الماركسية متشعب لا يتسع المجال هنا لإيفائه بعض حقه، فنقل من باب تقسيم الموضوع فحسب أن المفكر العربي سينظر إلى الماركسية من ثلاث نواح، كنظام اقتصادي. وكمذهب عقدي.. وكنظام سياسي.

أما كنظام اقتصادي فإن المفكر العربي يجد نفسه متفقاً كل الاتفاق مع الفكرة الأساسية التي يقوم عليها التنظيم الماركسي، فكرة وضع الناحية الاقتصادية كلها تحت هيمنة الدولة، ولخير الشعب بأسره وحسم التكاليف المادي البغيض وما يثيره من فاقة وحسد وسخيمة من ناحية وثراء وبذخ وفساد من ناحية أخرى.

ولكن المفكر العربي، وإن انتهى إلى النتيجة نفسها التي انتهت إليها الماركسية، إلا أن الدوافع التي ساقته إليها تختلف اختلافاً كبيراً عن الدوافع التي تجعل الماركسي يؤمن بالتنظيم الاقتصادي للماركسية كما تختلف عن الدوافع التي أوجدت الماركسية أول مرة.

وقد كان ماركس وانجلز وهما اللذان وضعوا الحجر الأساسي في التنظيم الاقتصادي "الماركسي" مثلان نموذجيان للثقافة الأوروبية في أرقى صورها فقد كانا ألمانيين، وتتلماً على يد أستاذ الجيل وفيلسوفه "هيجل" وطوفاً بأفاق القارة وإنجلترا، وقضى ماركس عشرة سنوات في مكتبة المتحف البريطاني قبل أن يصدر رأس المال، وكان مع ذلك وثيق الصلة بالطبقات العاملة وظروف الصناعة والتقدم العلمي من كل ناحية، وكان محور وسائل الإنتاج، وتملك البروليتاريا، وهي الأساس الذي تمخض فيما بعد عن التنظيم السوفيتي الاقتصادي ثمرة كل هذا ونتيجة فلسفة لها أصولها الثقافية الأوروبية وأوضاعها الصناعية والاقتصادية وقتئذ وظروف العالم العربي الصناعية وأصول ثقافته تختلف اختلافاً كبيراً عنها في أوروبا، فإذا كان المفكر العربي قد انتهى في الناحية الاقتصادية إلى الغاية نفسها التي انتهى إليها ماركس، ولم يكن مع هذا ماركسياً فلا بد إذن من وجود طرق أخرى قادته إليها.

وقد أظهرنا لماذا يرفض المفكر العربي الرأسمالية مدفوعاً بدوافعه الخاصة من استلهاً للمثل العليا المعنوية التي تتمثل أقوى ما تتمثل في الأديان، التي بدورها لم تحمل على شيء بعد الشرك بالله، كما حملت على الأثرة والأنانية والقسوة والترف والثروة والغنى، ومن إحساس بجريرة الرأسمالية على بلاده عندما فرضت عليها الاستعمار ومن دراسة لطبيعة بلاده الاقتصادية القديمة وفهم الشعب للواجب الكبير على الحكومة وأخيراً الوضع المائل لسيادة رؤوس الأموال الأجنبية. هذه كلها، وليس فيها شيء يمت إلى الماركسية بسبب، تدفعه لأن يرفض الرأسمالية كنظام اقتصادي ويرى فيها نظاماً وحشياً كما تجعل بينه وبينها عداوة تاريخية ونفسية عريضة.

بهذا الرفض سار المفكر العربي نصف الطريق نحو التنظيم الاقتصادي الماركسي دون قصد منه أو تعمد له، أو إيمان بأفضلية ذاتية للماركسية أو اتفاق معها على فلسفتها كل ما هناك أن رفض الرأسمالية قد أفسح المجال أمام الماركسية وأسقط عدوتها فتقدمت دون أن تشرع رماحها.

(١) الإشارة إلى "البحثري" في سينيته المشهورة التي ختمها بالأبيات:

ذاك عندي، وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي
غير نعمي لأهلها عند أهلي غرسوا من زكاتها خير غرس
أيدوا ملكنا، وشهدوا قوانا بحماة تحت السـتور حمس
وأعانوا على كتائب أرياط بطعن على النحور ودعس
وأراني من بعد أكلف بالأشراف طراً من كل مسـخ وجنس

على أن الناحية السلبية ليست هي كل شيء، فالمفكر العربي وإن كان يختلف مع الماركسية في نقط كثيرة إلا أنه يتفق معها أيضاً في نقط كثيرة.

فالفكرة الجماعية التي تمثلها في العصر الحديث الماركسية والتي تقف في مواجهة الفردية الرأسمالية، لها أصولها العربية، فالأديان لم تكتف بأن تحمل على الأغنياء، ولا أن تحض على الزهد والحياة البسيطة، ولكنها فضلت أيضاً، وباستمرار، الجماعة على الفرد، ففي الإسلام مثلاً تعدل صلاة الجماعة سبعمائة وعشرين من صلاة الفرد، ويصم أحد الأحاديث المنفرد بأنه شيطان والمنفردين شيطانين أيضاً بينما الثلاثة جماعة، وهي لفظة في منتهى الدقة، إذ الثلاثة أقل عدد يمكن أن تكون فيه أغلبية، كما سن الإسلام واجبات دينية جماعية، وحث على أن يحضرها الرجال والنساء والأطفال كصلوات الأعياد والحج.. الخ. أما الأحاديث التي تأمر بلزوم الجماعة، وتحذر أشد التحذير من الفرقة فهي عديدة كثيرة صارمة، وقد جرى الفقه الإسلامي على قاعدة "حسم المضار مقدم على جلب المنافع" وهي قاعدة تفيد الجماعة أكثر مما تفيد الفرد وأخيراً فأي شيء أدل على تفضيل الجماعة من تفضيل النبي لرأي الأغلبية في غزوة أحد على رأي القلة وإن كان هو نفسه أحد هذه القلة.

وفي الناحية الاقتصادية يجد استحسان الرسول لمثال شيوعي خالص هو مثال "الأشعريين" الذين كانوا يخلطون أقواتهم ثم يأكلون منها جماعة ويجد الرسول نفسه يحرص في مرضه على توزيع دريهمات كانت عنده ويوصي أن لا يورث، ويجد أبا ذر ودعوته المدوية ولسانه "الذرب" واستنثارته الصريحة للفقراء على الأغنياء وميئته "الاحتجاجية" وحيداً بعيداً عن الثبج المادي، ويجد عمر ومصادرته لأموال ولاته وهدمه لكل دار تعلق قائلاً "أبت الدراهم إلا أن تظهر أعناقها" وكلمته الأخرى "والله ما من أحد أولى بهذا المال من أحد فالرجل وبلاؤه، والرجل وسبقه.. الخ". ورفضه البات للتوفير والكنز عندما اقترح عليه أحد مستشاريه أن يستبقى بعض المال لوقت الحاجة فقال: "كلمة ألقاها الشيطان في فيك والله لا أستبقي لهم إلا الله ورسوله والعمل الصالح".

وأهم من هذا كله أن الإسلام قد حرم الفائدة التي يمكن أن يقال إنها إحدى دعائم التمويل الرأسمالي الذي تقوم به المصارف. كما حرم أنواعاً من المعاملات لا تقل أهمية في الاقتصاد الرأسمالي عن الفائدة كمضاربات البورصات والأسهم والسندات الممتازة وكافة المساهمات لقاء نصيب محدد من الربح، ودعا إلى إقامة اقتصاد فاضل لا يسمح فيه بكسب ملوث أو بقمار أو رهان، اقتصاد لا يفترس فيه من هو أقوى حيلة وأبرع وسيلة وأحد مخلباً وناباً من هو أضعف منه فيستعلى الأول علواً كبيراً، ويضطجع في عربته الفاخرة منتفخ الأوداج بينما ينتصب الثاني ويحى ويفتح الباب، إن هذا الاقتصاد الفاضل دون فائدة ودون مضاربة ودون أسهم ممتازة وسندات ودون قمار هو دون ريب أقرب إلى الاقتصاد الاشتراكي والماركسي منه إلى الاقتصاد الفردي والرأسمالي.

هذه كلها أصول يمكن أن يستند إليها المفكر العربي عندما يفضل نظاماً جماعياً واشتراكياً، صحيح إن المعارضين له يمكن أن يستندوا إلى أن الإسلام لم يكن حاسماً في حربه للرأسمالية وتكاثر الثروات وقد كان من الصحابة الأجلاء من كسرت ثروته المعدنية بالفؤوس!، كما ترك الكثير ثروات تعد بالملايين. والرد على هذا هو أن الإسلام، حتى بفرض سماحه بهذا وذاك أي بالنظام الرأسمالي وبالنظام الجماعي، فإن الأمر هنا أمر اجتهاد ينتهي أخيراً إلى رأي الأغلبية وهو أيضاً أمر مرونة تخضع للتطور ولم يكن الإسلام مستطيحاً وقتها أن يفرض كل ما تتم عنه روحه التقدمية، لأن هذا كان مرتبطاً بالأوضاع المادية والاجتماعية العالمية، ولكنه ترك ذلك للأجيال القادمة.

إن كل مفكر يدعو إلى تحرير الملكية الإنتاجية التحكومية والميراث ويلزم الأغنياء حياة بسيطة ويجعل العدالة والتعاون وخير المجموعة أسس الحياة الاقتصادية ويمنح الأفضلية للخلق الكريم وليس للمال الجم، هذا المفكر سيجد من الإسلام ظهيراً ومن كل الفلاسفة والمفكرين والفنانين والكتاب والأدباء نصيراً.

خلاصة القول الذي يسمح به المجال في هذه العجالة هي أن الموقف الذي نختاره للمفكر العربي في هذه النقطة هو تأييده الكامل لنظام اقتصادي يضع الإنتاج والاستهلاك في خدمة الشعب وليس في قبضة الأفراد وبمعنى أصح يحرم الملكية الفردية لوسائل الإنتاج ويعيد النظر في نظام التوارث ويوكل إلى الدولة الإشراف التام على الإنتاج والتوزيع ويلزمها تجاه المواطنين جميعاً بإيجاد الأعمال وضمان حد أدنى لمستوى المعيشة ويضع كافة الضمانات للحيلولة دون إصابة هذا النظام بالبيروقراطية أو تحوله إلى نظام استغلالي.

الماركسية كعقيدة:

العقيدة في كل أمة نسيج من خلقها وخصائصها وماضيها ومقوماتها وبيئتها، ولا يمكن استيراد عقيدة، كما لا يمكن غرس عقيدة في غير منبتها إلا إذا اتفقت خصائص الموطن الثاني مع خصائص الموطن الأول و "الماركسية" ثمرة غريبة عن هذه البلاد لنبات غريب عنها وقد اضطر الماركسون الشرقيون إلى أن يقضوا وقتاً طويلاً حتى تمرن نفوسهم وعقولهم على جوها الغريب وألفاظها العجيبة واستشهاداتها الأوروبية واصطلاحاتها الرمزية، والماركسية في هذا أسوأ من الديمقراطية وغيرها من المذاهب السياسية لأنها أجد على الأذهان وأغنى بالاصطلاحات والشعارات وكلها منكرة الوقع شاذة الرنين غريبة التكوين.

وليس في مضمون الفلسفة الماركسية ما يغري المفكر العربي - بوجه خاص - بالإيمان بها فهي كأي عقيدة أخرى تسرف في تقدير ناحية معينة من الحقيقة تجعلها نقطة الانطلاق التي تنقيد بها وتقوم عليها. وعنصر الكفاح "والديناميكية" الذي جذب إليها النفوس طويلاً في أوروبا. وهو كفاح العمال ضد الرأسماليين هذا العنصر لا يجد في البلاد العربية المجال الذي يستطيع فيه أن يؤدي دوره ذلك لأن ظروف التصنيع والنمو الاقتصادي فيها لم تبلغ بعد مرحلة "التناقضات" و "الاستغلال" الذي صورته الماركسية ولم يمر المجتمع العربي بمرحلة رأسمالية القرن التاسع عشر المسرفة المغالية وما تورطت فيه من استغلال بشع شنيع لأن الاستعمار أراد لها أن يكون اقتصادها زراعياً، وعندما بدأت البلاد نهضتها الصناعية كان الوعي العمالي قد سار مرحلة طويلة منذ أيام ماركس فوضعت القوانين في العالم أجمع للحد من استغلال الرأسماليين وحماية العمال، وليس معنى هذا أن الماركسية لا تلقي استجابة من العمال أو أن الاستغلال قد حسمت مادته "لا" ولكن الاستغلال في البلاد العربية لم يبلغ الدرجة التي تجعل فيها أي تقارب بين العمال وأصحاب الأعمال مستحيلاً أو أن تصهر كتلة العمال جميعاً في بوتقة الشيوعية، ولعل مما يظهر ما نرمي إليه أن تقول إن ماركس قد تحدث في رأس المال عن يوم العشرة ساعات كمطلب يحارب في سبيله العمال ويمانع فيه الرأسماليون وليس في العمال اليوم - في البلاد الرأسمالية - من يقبل هذا ولا يوجد في الرأسماليين من يجروء على طلبه.

وتلك النقطة تؤدي بنا إلى ملاحظة لا يعسر قط على أي مفكر أن يلحظها في الشيوعية، ذلك أنها أخطأت تقدير مرونة الرأسمالية، فبنت افتراضها على أساس دوام الاستغلال المسرف الصريح، وجمود الأوضاع الصناعية ولكن الرأسماليين قد عدلوا خططهم بحيث أصبحت ترضى كثيراً من العمال، وليس أدل على هذا من أن العمال في أمريكا وإنجلترا وألمانيا، وهي أرقى البلاد العالمية صناعة، لما يؤمنوا بالشيوعية، رغم سماعهم الكثير عنها، ففي إنجلترا ظهرت اشتراكية إصلاحية، وفي أمريكا ظهرت الرأسمالية الجديدة، وشتى النظم التي تحاول أن ترفع من الاستهلاك وتزيد في الأجور وتشرك العمال في الإدارة بحيث لم يملك الشيوعيون أنفسهم إلا

التسليم بأن حالة العامل الأمريكي أفضل من العامل الروسي حتى في فترة البطالة المزعجة^(١) وفي ألمانيا ساهم العمال في نظام هتلر "الفاشي" وأذاقوا الشيوعيين جرعة مرة، إزاء هذه المرونة أسقط في يد الماركسية، وبدلاً من التسليم بالأمر الواقع تمسك أتباعها بما قرأوا في رأس المال، وأخذوا يكيلون التهم، فكل واحد يحاول أن يصلح في فساد النظام الرأسمالي فهو برجوازي، فاشي أصفر مرتزق مأجور خائن. منحط منشق إصلاحى.. الخ، هذه الكلمات التي لم تبرع دعوة في العالم في ابتكارها ورسها كما برعت الماركسية وأخذوا يعوقون كل جهد يقرب بين العمل وأصحاب الأعمال حتى ولو كان وراء ذلك كسب للعمال. كما أصبحوا يثيرون باستمرار الشغب ويحرصون أشد الحرص على التوتر وهو مسلك يبعث على النظر، فقد عابت الماركسية على الرأسمالية أنها حافلة بالمتناقضات والاستغلال، ولكن الرأسمالية عندما حاولت أن تخفف من حدة المتناقضات وشره الاستغلال أخذت الماركسية تحول دون ذلك وتعمل على تفاقم المرض.

قد يقال إن الماركسية مذهب علمي فهي أولى المذاهب بأن يؤمن بها المفكرون ولكن هذا القول لا يمكن أن يطلق على علاته.

فصحيح أن الماركسية قد بذلت جهداً علمياً تمثله الوثيقة التاريخية الثمينة "رأس المال" وكتابات انجلز وبقية الماركسيين الكبار ولكن ثمة ملاحظتين يجب عدم إغفالهما في هذا الصدد الأولى أن الكثير من معادلات ونتائج رأس المال وغيره من الكتب الماركسية قد أتضح خطأها ولم يتزلزل بمضي الأيام إلا الكليات وفي العلوم تكون المسألة مسألة تفصيل وجزئيات وليس مسألة تعميم وكليات، إذ هذه سمة الفلسفة والعقيدة وليس العلم والثانية أن الجانب العلمي في الماركسية لم يكن هو الذي استثار العمال وجذبهم إلى الماركسية ولم يكن العمل العظيم في هذه الناحية هو كتاب رأس المال المسهب، المملوء بالمعادلات والتفضيل ولكنه كان البيان الشيوعي وتلك الصيحة الختامية "يا عمال العالم اتحدوا"، والنبذة التنبؤية السابقة عليها "فلترتعد فرائض الطبقات الحاكمة للثورة الشيوعية، فليس لدى البروليتاريا ما يخسرونه سوى قيودهم وأمامهم عالم ليكسبون"، هذه الصيحات الحماسية التي تتوفر فيها كل ما يتوفر في صيحات الدعوات من لمس للأوتار الحساسة في النفوس.

بل أكثر من ذلك إن جزءاً كبيراً، بل لعله الجزء الأكبر من أهمية "رأس المال" نفسه إنما يعود إلى تركيزه للداء الرأسمالي في كلمة واحدة مثل "فائض القيمة" ومحاولته التذليل على "لصومية" الرأسماليين في احتياز هذا الفائض وهو أسلوب أقرب إلى أسلوب الدعوات.

وفي نظرنا أن الماركسية أجدد باسم "الاشتراكية العملية" منها باسم الاشتراكية العلمية ففي ميدان العمل، وليس في ميدان العلم، نجد أصالتها وابتكاراتها والجذور التي غرسها ماركس عندما شيد الدولية الأولى من عنف، وختل، وخديعة، وسلطة، ومهارة إلى آخر هذه الأساليب التي استطاع بها أن يغلب "كروبتكين" وعصيته الفوضويين الروسيين و"برودون" وأشياعه الفرنسيين، و"لا سال" وأتباعه الألمان.

والحقيقة هي أن الماركسية هي فردوس "المنظمين" الذين يجدون فيها أبرع أنواع التكتيك الإداري والفني وأحدث صور الدعاية والتنظيم والتقاليد العريقة التي صهرتها التجارب في مختلف الأمم عن الكفاح السري مما جعلها المدرسة التي تتلمذ فيها كل الدعاة حتى زعماء الديكتاتورية الحديثة مثل هتلر وموسوليني.

(١) الأزمة المقبلة تأليف فرتز سترنبرج ص ١٨٠ "طبعة نادي الكتاب اليساري - لندن ١٩٤٧".

في هذه الدائرة، حيث تمنح الأفضلية كلها للعمل، وتمجد البروليتاريا الكادحة ينظر إلى المثقف والمستنير نظرة الشك والحذر، يكاد يوصم بالوصمة الرهيبة الكبرى "البرجوازية" ما لم يثبت إخلاصه بمختلف الأدلة والبراهين كأن يتلمذ على أحد العمال ويضمن تزكيته.

والمجال الوحيد للمفكر هو مجال "الحواشي" أي تفسير كلمات "الأئمة" ماركس وانجلز ولينين، وهنا نشهد شيئاً يعيد إلى الذهن كتابات "المدرسين" في القرون الوسطى، أو تعليقات المشايخ وحواشي الكتب الصفراء في تفسير "المتون" وحتى هنا فهو مقيد، معرض إذا أخطأ، أو اجتهد اجتهداً لم يقع موقع الاستحسان من المسؤولين، لأن يتهم بأنه من "المخربين" أو "العاطفين" أو ذوي الأذواق السوقية أو واقع في شراك "الكوزموبوليتانية" البرجوازية أو اللصوصية الكنتية الجديدة، أو الإباحية الحرة.

ولكن أشد ما ينفر المفكر العربي من الماركسية هو قيامها على الحفيظة والسخيمة، ولجوؤها إلى القسوة والعنف، واستخفافها بكل القيم والمقدسات، وتعصبتها المصمتة المقبلة وما هو أسوأ من هذا كله اعتبارها هذه الوصمات سياسة وتكتيك تعتر به، وترى له لزوماً حيويًا وتطبقه دون هوادة أو رحمة أو خجل.

إن إصرار الماركسية على العنف وعلى "تصفية" المعارضين، حتى عندما يسلمون لا يفترق عن تقاليد الضحية البشرية التي كانت تفرضها بعض الأديان البدائية على الشعب ونحن هنا نجد عقيدة تصر على أن "تدشن" انتصارها بدماء أعدائها في قسوة مقصودة ومتعمدة تعيد إلى الذهن قسوة "الأشوريين" و "التتار" وغيرهم من الذين أرادوا أن يحكموا بالرعب ويسيطروا بالخوف ويخضع لهم الإرهاب كل بادرة من بوادر المعارضة يمكن أن تخطر في ذهن أو تقلب في جنب.

إن المفكر العربي، وارث وصية المسيح "أحبوا أعداءكم" وصيحة محمد "أذهبوا فأنتم الطلقاء" يرفض هذا المسلك، ويرفض عقيدة ترى فيه جزءاً لا يتجزأ من كيانه.

الماركسية كنظام أساسي:

وتظهر الآثار السيئة للماركسية كعقيدة عند تطبيقها في المجال السياسي، فرغم وجود بعض المميزات التي استكملت بها الماركسية ثغرات النظام السياسي التقليدي للديمقراطية كالنص الدستوري على العدالة الاجتماعية وحقوق العمال، وإخضاع النائب لرقابة الناخبين الدائمة واستبعاد المجلس الثاني "مجلس الشيوخ" الذي يمثل عادة الأرستقراطيات ويكون معيناً أو شبه معين، ويعرقل إلى حد كبير جهود المجلس المنتخب، وتأسيس مجالس "السوفييت"، نقول رغم تلك الحسنات التي تميز بها النظام الماركسي، والتي نعترف له بها ونحبذ اقتباسها، إلا أن موقف المفكر من بقية الناحية السياسية هو موقفه نفسه من الماركسية كعقيدة: أي الرفض.

والمفكر العربي الذي يؤمن بالشورى، والذي حتى إذا لم تكن بلاده قد مارستها طويلاً، فإنه ينظر إليها كمثل أعلى وتتلاقى وجهة نظره في هذه الناحية مع وجهات نظر الديمقراطية التقليدية والحضارة الأوروبية الغربية.

هذا المفكر يعسر عليه أن يفهم الوضع السياسي لمسألة لحرية الذي تقره الماركسية وهو يعطي هذه المسألة أهمية كبرى لأنه كمفكر، يرى أن واجبه الأساسي هو الوقوف إلى جانب الحرية، وأن مهمته الأولى هي حراستها وأنه ما لم يفعل ذلك فإنه يكون خائناً لنفسه ورسائلته وضميره مهما قيل في التبرير أو الاعتذار.

شنت الماركسية حرباً شعواء على الحرية الرأسمالية المزعومة، وأوضحت أنها امتياز طبقي للقلّة، وخيال وسراب للكثرة وأن هيمنة المال القاهرة تملك، وتحرك الخيوط والقوى التي تمثل الحرية كإذاعة.. الخ، ونحن نشاركها ذلك، ونرى أنها في هذه الناحية جاءت بجديد وحق يشكرها عليه الأحرار.

ولكن الماركسية عندما انتهت إليها الأمور ضيقت على الحرية، بل ووأدتها وأذاً وأساعت إليها أكثر مما أساعت إليها الرأسمالية وظهرت أن نقد الحرية الرأسمالية لم يكن في صميمه دفاعاً عن الحرية، ولكن هدماً للرأسمالية.

يريد الرفاق الماركسيون أن يقنعوا المفكر العربي بالمتناقضات، أن دكتاتورية البروليتاريا هي الديمقراطية الوحيدة وأن في الحزب الواحد حرية أكثر مما في تعدد الأحزاب وأن الدولة في الماركسية، تلك التي تهيمن على الحركات والسكنات فضلاً عن أزمة الاقتصاد والاجتماع والسياسة هي، دون أي طراز آخر من الدول، التي ستندثر وتذبل وتترك الناس أحراراً وأن ذلك الشبح المخيف الرهيب "البوليس السري" إنما هو الملاك الحارس الوديع للدولة.

والمفكر العربي يرفض هذا كله، ولا يرى فيه إلا تحايلاً بغيضاً، وإلا تزييفاً مقبيئاً، وإلا انتكاساً للمعاني الإنسانية الرفيعة وتجاهلاً لتجارب البشرية الطويلة وكفاحها في سبيل الحرية.

والمفكر العربي لا يفرق إلا قليلاً جداً بين هذا النظام. وبين الفاشية والديكتاتورية وكل نظام آخر لا يسمح بحرية مفتوحة مؤمنة للمعارضة السياسية ولا يقر قط بقاء جهاز كالبوليس السري ويرى في بقائه وصمة عار ودليلاً على عجز الحكومة التي تستند إليه وهو يؤمن كل الإيمان بأن مثل هذا الجهاز سيساء استخدامه حتى ولو ولي أمره الملائكة المقربون وقد كان إبليس ملكاً مقرباً - وسيكون له ضحايا لا عداد له وإن كان خطره الأساسي هو فيما سينشره من رعب ورهبة تكتم الأفواه وتند المعارضة وتطمس الفكر والحرية وتنتشر الذعر والخوف ونفض اليدين من المسائل العامة من أقصى البلاد إلى أقصاها.

والمفكر العربي لا يرى نفسه في حاجة إلى التذليل أو المحاجة في هذه الأمور لأنه يعتقد أنها واضحة سليمة ولأن الماركسيين أنفسهم يعلمون حق العلم أنها إحدى النقط السيئة التي ما كان لهم أن يتورطوا فيها، وقد يعترفون بها تحت تأثير بعض الملابسات، كما حدث مثلاً عندما نشرت جريدة المساء في ٢٩ مارس سنة ١٩٥٧م تحت عنوان "أيام برياً.. لن تعود" فقالت:

"بدأ الاتحاد السوفيتي يجرى تغييرات بعيدة المدى في نظامه التشريعي لتدعيم العدالة الاشتراكية وحماية الحقوق المشروعة للمواطن السوفيتي.

وقد تألفت في مايو الماضي لجنة قضائية تعمل بنشاط الآن في وضع المبادئ الأساسية للقانون الجنائي والمدني الجديد.

وكانت أولى أعمال هذه اللجنة إلغاء اللجنة الخاصة التي أنشأها بيريا الوزير السابق وظلت تزاوّل نشاطها منذ ١٩ عاماً إلى أن حوكم بيرياً وأعدم منذ أكثر من ثلاثة أعوام.

وكان بيريا هو الذي يعين أعضاء تلك اللجنة وهم مسئولون أمامه فقط، وكان لهم نفوذ القانون، ومن حقهم أن يصدروا العقوبات التي يرونها مثل النفي والإبعاد بالنسبة للأشخاص الذين يرون أنهم "خطرون على المجتمع".

وكان هؤلاء الأشخاص يحاكمون غيابياً في الغالب وعلى أساس الوثائق التي تقدم ضدّهم.

أما الآن فلم يعد هناك شيء.. الخ".

إن المفكر العربي الذي يستقتل حتى لا يتعرض الشعب لعقاب دون دفاع ليرفض مطمئناً نظاماً سمح بوجود تلك المحكمة الرهيبة لمدة تسعة عشر عاماً.

وبذلك يكون موقف المفكر العربي من الماركسية كالاتي أولاً: الاتفاق معها على النظام الاقتصادي الجماعي الذي يكل إلى الدولة جهازي الإنتاج والتوزيع، ويلزمها توفير العمل للجميع وضمان حد أدنى للمعيشة وإن لم تكن الدوافع واحدة، وعلى أن يتم هذا بطريقة ديمقراطية وأن تتخذ الضمانات للحيلولة دون إصابة هذا النظام بالبيروقراطية أو التحكم والاستغلال، وثانياً: رفض الماركسية كعقيدة ونظام سياسي.

الإسلامية:

وأخيراً تأتي الإسلامية، ونحن نعلم أن بعض القراء سيتساءلون ما الذي يجعل هذا الكاتب يقم "الإسلامية" في معرض المذاهب السياسية، وما له يعيد إلى مسرح العصر الحديث البطل القديم الذي اتفق المخرجون على إحالته على المعاش وتجاهله وعدم إسناد أي دور إليه.

إن حاسة العدالة، والأمانة في البحث عن الحقيقة هي الرد على هؤلاء السادة، فلسنا من تلامذة المدرسة الإسلامية ونحن نرفض أن نجعل الدين نقطة الانطلاق التي نبدأ منها. لقد جعلنا من الشعوب هذه النقطة فقادتنا الشعوب إلى الإسلام الذي هو دين المجتمع العربي فإذا كان ثمة لوم فليلم هؤلاء الشعوب، أو ليعترفوا بأن حلقة مفقودة تفصل بينهم وبينها.

لقد أجملنا فيما سلف من هذا البحث أثر الدين في المجتمع العربي قديماً وحديثاً، وإننا لنعتقد أن في بعضه، فضلاً عن كله، مبرراً كافياً لكي نحتفل أشد الاحتفال "بالإسلامية".

على أن المفكر العربي لا يسعه أن ينسى من الناحية الموضوعية أمراً هاماً هو أن للدين بصفة عامة رسالة حضارية واجتماعية خطيرة فهو أبرز صور "الالتزام" والالتزام هو ركن المجتمع المتحضر وضرورته الماسة وما أن يجتمع اثنان حتى يقوم بينهما نوع من الالتزام هو الذي يحدد العلاقة ويحسم الخصومة ويعرف الحدود والواجبات لا يستثنى من ذلك الزوج وزوجته، وعلاقتها أوثق علاقة، ورباطهما أقدس رباط.

وفي العصور الماضية كان القوي هو الذي يفرض الالتزام قسراً، وجبراً ويحدده حسب هواه وبما يحقق له أعظم جانب من الامتياز.

كان الفرعون أو الإمبراطور هو مصدر التشريع وروح القانون وكانت الملكة الجميلة تصيح بالمثل:

"أنا عشتروت ! فخذ المرمر والأزميل وأعرض مثالي على أهل مصر.. إني أريد أن يعبدوه!" فيقول:
"وأنا أول العابدين!"⁽¹⁾.

وكان من الشئشنة المعروفة في الفلسفة الوثنية أن لا يحاسب رجال ونساء من الطبقات العليا بحجة أنهم بلغوا درجة الكمال ! وأن العبيد وحدهم هم الذين يقدمون حساباً.

(1) النبذة من رواية كرايزيس للكاتب الفرنسي بيير لويس، والصيحة على لسان إحدى أميرات الإسكندرية من أسرة البطالمة.

وانطوت صفحة الالتزام الوثني القسري الذي لا يقوم إلا على الإرادة الفردية المتقلبة وجعلت الشرائع والأديان الالتزام أمام الله وكان هذا تقدماً كبيراً، لأنه جعل الالتزام أمام رمز المثل الأعلى أصل المبادئ والصفات المحددة المجردة بعد أن كان أمام شخصية فردية متقلبة، ولكن البشرية الضالة المثقلة بالأعباء والجهالة لم تكن لتستطيع أن تلحق بالفكرة التقدمية للأنبياء والرسل، لأن الفرد ارتقائي، يسبق مجتمعه دائماً ولعل في فكرة "الوحي" شيء من الرمز لهذه الحقيقة فاستغلت الأديان في فترات مديدة من تاريخها شر استغلال وانقلب ما كان فضيلة لها إلى رذيلة مكنت الإكليروس والسدنة من استغلال الصفة المطلقة للألوهية فيما يريدون وفيما يريد الملوك والطبقة الحاكمة.

ولكن الإسلام بفضل بيئته الحرة الطلقة، وحدثته النسبية وعوامل أخرى كثيرة لا يتسع المجال هنا لتعدادها، استطاع أن يكون عاملاً تقدمياً وليس عاملاً رجعيًا ومرة أخرى، فنحن نقرر هذا كباحثين يقرون بما تلزمهم الحقيقة الإقرار بها بصرف النظر عن الهوى الشخصي، بل إن هذه الحقيقة لتلزمنا أن نقول إن المدرسة الفكرية الحديثة في المجتمع العربي أخطأت خطأ كبيراً عندما تأثرت تأثراً تاماً بالمدرسة الفكرية الأوروبية في حكمها على الأديان وتقليدها الأعمى لها^(١)، فإن الأمر في الشرق والإسلام غيره في الغرب والمسيحية وهم يخطئون في هذه الناحية كما يخطئون عندما يظنون أن القرون الوسطى هي عصر التأخر والانحطاط بينما هي بالنسبة للشرق عصر التقدم والازدهار ويكفي فحسب للتفرقة بين الإسلام والمسيحية أن الإسلام لم يرق محكمة تفتيش واحدة، ولم يحكم بالنار على زنديق أو معارض، ولم يلزم نمياً تغيير دينه، بل إن كلمة "ذمي" وحدها فيها لغة واصطلاحاً الأمن والضمان له ولم يعترف بسلطات خاصة لإكليروس وصحيح أن في تاريخه الطويل اضطهد بعض الولاة قلة من الفلاسفة الذين خالفوا الفكرة الدينية أو حكموا على بعض الزنادقة بالموت، ولكن هذا كان عارضاً فضلاً عن أن النعمة الشعبية على كل مخالف لعقيدتها لا تزال موجودة حتى الآن، وأن ولاة آخرين شجعوا العلوم والفلسفة والحرية الفكرية فلو قارنا هذا بالاستغلال البشع الذي شوه به البواب والإكليروس وجه المسيحية السمحة كمحاكم التفتيش التي أبدعت أفظع أنواع التعذيب وأذاقته لليهود والمسلمين، بل والفئات المعارضة، والنيران التي أضمرت من أقصى أوروبا إلى أقصاها لحرق "الساحرات" المزعومات وكل المفكرين دون داع من الإنصاف أو الحقيقة على دينه، وأنه يجافي الحقيقة لو طبق عليه ما يطبق على غيره، أو استقى أحكامه من الثقافات الأوروبية التي تجهل جهلاً فاضحاً الدور التحرري للإسلام، وتاريخ الشرق كله ولا يبرأ من هذا الجهل أو التحامل كثير من المستشرقين أنفسهم، وإذا كان الغربيون يجهلون حاضر العالم العربي ويخطئون في فهمه أخطاء مضحكة رغم مثوله، ورغم كل الجهود التي تبذل لتعريفهم به فلا شك أن جهلهم بماضيه أعظم وأكبر، نحن لا نريد أن نجعل من هذه الصفحات دفاعاً عن الإسلام فقد قيل في الأمثال العربية "للبيت رب يحميه" وقطع القرآن بخلود ذكره ورفض من الذين آمنوا "بل الله يمين عليكم أن هداكم للإيمان" فلاسلام في غنى عن الدفاع وليس من خطتنا التطوع بذلك إلا عندما تلزمنا الحقيقة إلزاماً فنسلك مسلك المفكرين الأمناء وما نريد أن ننتهي إليه هو أن الإسلام عندما فرض الالتزام، وعندما استبعد في الوقت نفسه رجال الإكليروس ورفض ثمة عقاب أو جزاء في هذه الدنيا، فإنه قد أوكل إلى الضمير الفردي القوامة على الالتزام.

(١) يمكن أن نلمس دلالات هذا من ألفاظ تأتي عارضة مثل كلمة "صلوا له" التي أذاعتها الصحافة في الأيام الأخيرة وهي ترجمة حرفية للكلمة الأوروبية... وقد كان يمكن أن يقول "صلوا عليهم" كما جاء في الآية.. أو "أدعو له" = وهو المقابل الإسلامي لكلمة "صلوا له"... ومثل ضرب المثل بصلب المسيح الذي يورده الكاتب المسلم دون أن يلحظ أن في هذا مخالفة لعقيدته الأمر الذي ينم على أنه أقرب إلى عوالم الغرب منه إلى عوالم الشرق أو الإسلام.

وكاد أن يكون دينًا إنسانيًا كما هو دين إلهي وأن تنمية حاسة الالتزام وإيصال القوامة عليها إلى الضمير الفردي كان خدمة إنسانية واجتماعية كبرى وحلاً موفقًا وسعيًا لمشكلة التطرف بين الالتزام القاسي والتحرر الفوضوي وأن على المفكر العربي أن يترى طويلاً قبل أن يحطم هذا الكيان المتسق الجميل.

ولكن هل يستطيع حقًا أن يحطمه - حتى لو أراد؟ إن الإجابة على ذلك لتتقلنا إلى تحديد موقف المفكر العربي من الإسلامية.

موقف التجاهل:

بعض المفكرين يقفون من "الإسلامية" موقف التجاهل السلبي وهو ما يلحظ بالأكثر في الصحافة المصرية واللبنانية، فأنت عندما تتصفح مجموعات هذه المجالات والجرائد أسبوعية أو يومية لا تكاد تجد في أعدادها اهتمامًا حيويًا بهذه المسألة أو إشارة إليها أو علاجًا لها.

من أسباب هذا الموقف ولا شك ضعف إحساس القائمين على الصحافة والثقافة بالمعنى الديني، وهذا بدوره يعود إلى أسباب عديدة قد يكون منها عدم أصالة مصرية أو عربية بعض هؤلاء أو غلبة الثقافة الغربية عليهم أو حدائتهم أو عدم انتهائهم إلى رأى محدد أو غير ذلك. وأغلب الظن أنهم حاولوا التفكير في الموضوع، ولكنهم رأوه شأنًا مزعجًا يتطلب منهم الكثير في الفكر والعمل، ويلزمهم موقفًا واضحًا سيخسرون به حتماً إحدى الطائفتين فضلاً عن عدم استطاعتهم البت بما يرضى عقولهم وقلوبهم وأوضاعهم فهم لما ينتهوا بعد إلى قرار، وحتى لو انتهوا فسيكون إعلانهم على حساب "عمومية" الصحيفة من ناحية وعلى حساب وقتهم ومادتهم، والموضوع بعد ليس شيقًا ولا ما هو فيما يرون من اختصاصهم فما لهم ولهذا الصداق! إن موضوعًا خفيفًا قصة أو صورة أو خبرًا أسهل عليهم وأقرب إليهم وأعظم ذبوعًا بين القراء إذن فتجاهل هذا الموضوع هو السلوك الأمثل.

ولكن التجاهل لا يمكن أن يستمر والتمسك به يتطور شيئًا فشيئًا إلى نوع من الإهمال وعدم الاكتراث ثم التحيز ضد الفكرة والإحساس نحوها بمزيج من الكراهة والزرارية والرثاء وهو سر اللمز الذي تتم عنه بعض السطور، في بعض الأحيان وما يحسه القارئ دون أن يللمسه.

ومع هذا فإن السبب الذاتي لا يمكن أن بعد كافيًا بالنسبة للصحفي، لأن الصحفي يضطر إلى الاهتمام ويتكلف الاهتمام بكل ما يهتم به المجتمع، وهذه المسألة، مسألة الإسلامية، والموقف تجاه الدين، من أكثر المسائل إقلاقًا لنفوس الشباب وتمزيقًا لها بين الإيمان والإلحاد، الحفاظ والتحلل، إتباع الآباء أو انطلاق الشباب "على حل شعره" فكان يجب أن يهتم الصحفيون كما يهتمون ببقية المسائل العامة.

والرد هو أن حساسية الموضوع كانت أعظم من الفضول الصحفي المأثور، والخوف منه كان أقوى من الإقدام عليه، فضلاً عن أن الطبقة التي تهتم بالموضوع يمكن أن تعد إلى حد ما - غير قارئة - وهي ناحية يقدرها الصحفيون، وأن الطبقة القارئة المهمة - الشباب - يمكن إشغال اهتمامهم بما هو أقرب إليهم وأقرب إلى الصحافة كمسألة العلاقات الجنسية، الأمر الذي تم بالفعل.

موقف العداوة:

على أن هذا الموقف ليس هو شأن بعض أفراد المجتمع الذين يرون أنه لما لم يؤد التجاهل إلى الذبول التدريجي للدين حتى "يستريحون" منه، فقد أصبح من الواجب أن تنش حرب صريحة قوية على الأديان بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة، وباعتباره ممثلها.

ويصر هؤلاء على حكاية "أفيون الشعوب" والعوالم "الغيبية" والدجل والارتزاق الذي يلف الموضوع لفظاً محكماً حتى لا يمكن الفصل بين الأصل والغلاف اللب والقشر وحتى يكون الحل الوحيد هو التخلص من الأمر كله.

"ولماذا بحق الشيطان، يكون المجتمع العربي هو المجتمع العالمي الوحيد الذي يعذب "بتابو" الحلال والحرام.. ويكلف بالتفكير فيما بعد الموت من جنة أو نار، وتطبق عليه هذه الرقابة الدائمة ليل ونهار وكتابة كل حركة وسكنة في رق منشور، والحراسة ليل نهار عن يمين وشمال بملكين لا ينفكان عن كل واحد حتى يسلمانه إلى منكر ونكير، في عالم القبور.

لماذا لا نطرح هذا كله كأن لم يكن، ونحصر تفكيرنا فيما بين أيدينا ونحكم الخبرة والتجربة والعلم، وندع لشبابنا وشاباتنا حظاً من الاستمتاع والحرية، فبهذا نريحهم من الكبت والتوتر والرياء والنفاق ونخلص بهم إلى عالم العمل والوقائع، فيستفيدون، ويفيدون.

بل لماذا لا نحول هذه المساجد العديدة التي تشغل مساحات واسعة إلى عمارات سكنية أو مستشفيات، أو ملاهي، ولماذا تنفق الدولة مئات الألوف، على تربية اللحي، إذ أن هذه هي النتيجة العملية الوحيدة لتوظيف هذا الجيش الجرار من المشايخ في الإمامة والوعظ والخطابة، ومن قبل تمنى الشاعر القديم لو كانت اللحي "حشيشاً" يعلفها خيول المسلمين وهي أمنية مهما كانت وضاعتها ففيها نفع عملي، بل قل لماذا لا نفعل كما فعل أتاتورك في تركيا عندما حول بجرة قلم بلد التكايا والانكشارية إلى بلاد عصرية حديثة؟ كما فعل الروس في الولايات الإسلامية عندما حرروها من سيطرة الخوجا والملا.. الخ.

فلنتحرر من الماضي، ولننظر إلى المستقبل، ولنسر مع العلم" هذه هي المعاني التي تخطر في أذهان هذا الفريق، ومن الواضح بالطبع أنهم قلما يدعون جهرة إلى هذه الآراء، أو يستطيعون كتابتها، كما أن من الواضح أنهم قلة جداً، ولو كانت المسألة في الآراء مسألة عدد لكان يجب إهمالهم، ولكن رأي الواحد في مقاييس الآراء قد يكون خيراً من رأي الجماعة ولهذا فمن الحق علينا أن نهتم له.

موقف التأييد:

وعلى نقيض هؤلاء تقف الكثرة اللجبة من المؤمنين المتبعين الحريصين كل الحرص على التزام آداب الإسلامية وفعل أوامره والوقوف عند نواهيها.

وتنقسم هذه الكثرة إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول:

الذي يمثل أغليبيتها الساحقة، ويتكون من المقلدين الذين يصلون، ويزكون ويحرصون - بوجه خاص - على الحج حتى يسيروا في الأرجاء التاريخية المباركة ويقفوا بين يدي الرسول فيطفئوا غلة الشوق، ولهفة اللقاء، ويلمسوا مادياً الرباط الذي يربط قلوبهم إلى الإسلام.

وليس لهؤلاء وعي ظاهر أو بارز أو حديث حول المعاني الإسلامية التي هي روح الفروض والتكاليف والإسلام لديهم ببساطة فكرة عامة عن الخير والشر الحلال والحرام وحرص على الإتيان والتقليد وحذر من الابتداع والتجديد.

والقسم الثاني:

المدارس الفكرية الإسلامية الحديثة، هذه تبذع فلسفة جديدة على أساس قديم وتبدأ من نقطة انطلاق هي "الإسلام" فتنتهي إلى أن كل تعاليم الإسلام طيبة ممتازة، واجبة التنفيذ وتكرس جهودهم كله لإظهار ذلك.

ومن المدارس النموذجية التي تمثل هذا القسم "حزب التحرير" الذي يبث دعوته في القدس وسوريا، ويتزعمه شباب عربي ومسلم خالص في عروبته وإسلامه وفي أول رسالة "مفاهيم حزب التحرير" يتحدث الحزب عن الدعوة الإسلامية وانحطاطها في العصر الحديث وسبب ذلك، وهو فيما يرى الحزب - باختصار - "فهم الإسلام فهمًا مغلوطنًا، وأبرز دلالات هذا الخطأ في الفهم هو أن المسلمين بعد أن كانوا يعرفون أن وجودهم في الحياة إنما هو من أجل الإسلام وأن عمل المسلم في الحياة هو حمل الدعوة الإسلامية وعمل الدولة الإسلامية هو تطبيق الدعوة إليه في الخارج، وإن طريقة ذلك الجهاد تحمله الدولة، نقول إن المسلمين بعد أن كانوا يعرفون ذلك صاروا يرون أن عمل المسلم كسب الدنيا أولاً والوعظ والإرشاد إذا وانت الظروف ثانيًا وصارت الدولة لا ترى أي تقصير أو حرج في تساهلها عن الجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام.

وقد أضيف إلى ذلك كله في أواخر القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) الخطأ في فهم الشريعة الإسلامية لتطبيقها على المجتمع فصار الإسلام يفسر بما لا تحتمله نصوصه ليوافق المجتمع الحاضر وكان الواجب أن يغير المجتمع ليوافق الإسلام لا أن يحاول تفسير الإسلام ليوافق المجتمع، لأن القضية هي أن هناك مجتمعًا فاسدًا يراد إصلاحه بمبدأ، أي كان لزامًا على المحاولين للإصلاح أن يطبقوا أحكام الإسلام كما جاءت دون نظر إلى المجتمع أو العصر أو الزمان أو المكان ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل أولوا أحكام الإسلام ليوافق العصر، وقد أوغلوا في هذا الخطأ في الكليات والجزئيات واستنبطوا قواعد كلية خاطئة مثل "لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان" ومثل "العادة محكمة" وغير ذلك وأفتوا بأحكام لا سند لها من الشرع، بل أفتوا بأحكام تعارض نص القرآن القطعي فأجازوا الربا القليل بحجة أنه غير مضاعف وبحجة الضرورة لمال القاصر وأفتوا بوقف الحدود، وأجازوا أخذ قوانين العقوبات من غير الإسلام وهكذا وضعوا أحكامًا تخالف الشرع بحجة موافقتها للعصر وضرورة أن يوافق الشرع كل عصر، وكل زمان ومكان، وقد نتج عن ذلك أن أبعد الإسلام عن الحياة^(١).

وقد ختمت المفاهيم بكلمة عن الحزب نفسه جاء فيها إن حزب التحرير "حزب سياسي، مبدؤه الإسلام، وغايته استئناف الحياة الإسلامية بإقامة دولة إسلامية تنفذ نظم الإسلام وتحمل دعوته إلى العالم".

وتتعدد في مصر الجماعات والهيئات التي تشارك حزب التحرير فكرته الأساسية في التمسك بحرفية المبادئ الإسلامية، ولكنها تختلف في التفسير، أو لا تعتمد إلى فلسفة التطبيق ومن هؤلاء "شباب محمد" الذين اتخذوا من موضوع المرأة محورًا لدعوتهم، ومن الآية "وليضربن بخمرهن" شعارًا، وفي العدد الأخير من مجلة الجماعة "صوت الإسلام" (١١ روضان ١٣٧٦هـ، ١١ أبريل ١٩٥٧م) شنت الصحيفة حملة شعواء على أحد العلماء لأنه كتب في الأهرام أن سبب تأخر المرأة عندنا هو ذلك الدستور الذي أصدره سلطان تركي، والذي يقضي بمعاقبة المرأة التي تخرج من بيتها مكشوفة الوجه بأن تتركب حمارًا في وضع مقلوب وتلف البلد جزاءً لها على مخالفتها. وقد عابت الصحيفة على الشيخ أنه نسب إلى السلطان التركي "ما ظنه منكرًا وإثمًا مبيّنًا. فإذا به يكشف عن صفحة مشرفة لذلك السلطان الذي كنا نود أن نعرف اسمه حتى نسجل له ذلك العمل العظيم.. بإصدار قانون يعاقب المرأة السافرة بالصورة التي ذكرها "صاحب الفضيلة" أو بأي صورة أخرى".

(١) صفحات ٦،٤ بتصرف من مفاهيم حزب التحرير ١٣٧٢ / ١٩٥٣ القدس .

وتستطرد الصحيفة "إن ذلك السلطان التركي رضي الله عنه لم يصدر هذا الدستور تجبراً وبغياً ولكن تنفيذاً للآية الكريمة "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" (الأحزاب : ٥٩)، وأن تفسير ابن عباس لهذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحدة ليعلم أنهن حرائر، وما أحوجنا إلى مثل ذلك السلطان الذي يحمل الأمة على طريق الحق طوعاً أو كرهاً، وما أحوجنا إلى مثل ذلك السلطان الذي يعد الكاسيات العاريات.. الخ".

ويجب أن يعرف القارئ أن هذه الجماعة تضم كثيراً من خيرة الشباب المثقف، وأن منهم أطباء وقضاء ومحامين، كل واحد منهم مبرز في ناحيته.

على أن أهم المدارس الفكرية الإسلامية هي التي لا تلجأ إلى التشدد، والتي تحاول الجمع بين بعض أوضاع الحياة العصرية، الأمر الذي عابته المدرسة الفكرية السابقة، ولكنه مع ذلك جذب أغلبية الشباب المصري الذين لا يريدون التضحية بالإسلام كما لا يريدون التضحية بالحياة الحديثة ويريون أن ذلك ممكناً ببعض الاجتهاد والتأويل في ناحية الإسلام، وبعض الاقتصاد والتحفظ في ناحية الحياة العصرية.

وقد كانت جماعة الإخوان المسلمين تمثل - إلى حد ما - هذه المدرسة.

وقد حلت الجماعة، وفقدت وجودها المادي والرسمي، ولكن هذا بالطبع لا يمس العقيدة التي نشرتها لمدة ثلاثين عاماً، إذ من المسلم به أن حل الهيئة لا يعود إلى مبدئها الأساسي وإنما يعود إلى موقفها السياسي^(١).

آثار هذه المواقف المتباينة:

هذه هي المواقف التي تتوزع المجتمع العربي تجاه الإسلامية، وكما رأينا فمنها ما يقوم على التأييد والتعصب ومنها ما يقوم على الرفض والعداوة، ومنها ما يؤثر الفرار والتجاهل، وقد مزق هذا التناقض المجتمع العربي وشبابه بصفة خاصة شر ممزق، وفرقه في هذه الناحية الحيوية تفرقاً وصل من القوة حتى شطر النواة الأساسية للمجتمع وهي الأسرة، فلا تعدم أسرة، بل أسراً كثيرة، يقف أفرادها المواقف الثلاثة من الإسلام فيؤيد البعض، ويتجاهل البعض، ويرفض البعض الثالث.

وفاقم الأثر السيئ لهذه الناحية عاملان: الأول ما أشرنا إليه من أن المجتمع العربي لم يعرف منذ أقدم عصوره فلسفة أخلاقية ومعنوية غير لصيقة بالأديان أو مستمدة منها، فتوهين الإسلام كان ضربة كبرى للخلق وأصبح المتحلل من عقدة الالتزام الإسلامي لا يجد التزاماً آخر يحدد به موقفه ويكبح به جماحه، فيما عدا القوى القسرية والأوضاع العملية كما أصبح خلق القلة التي أقامته على أسس المعنويات الإنسانية خاضعاً للتقلبات، معرضاً للغرور الناتج من تميزه النسبي حتى أصبح صاحبه يرى نفسه متفضلاً باعتناقه.

وكاد المجتمع أن ينشطر من الوجهة الأخلاقية شطرين يلحق كل منهما بأحد الشطرين اللذين انقسم إليهما المجتمع حول الإسلامية فالشطر الأول متمسك بالدين والأخلاق حقاً ويؤمن على الأموال والحقوق والأعراض، وتفترض فيه الطيبة والاستقامة ولكنه ساذج وقد يكون بليداً أو غيبياً أو جاهلاً ومن هذا القسم الفلاح والصراف والبواب والموظف الصغير والعامل (قبل إصابته بالماركسية) والشطر الثاني: يتحلل من الدين

(١) كما كان في سنة ١٩٥٧م ومع أنها في الفترة المعاصرة "محظورة" فإن وجودها الشعبي والسياسي فاق كل الأحزاب الأخرى مجتمعة.

والأخلاق معاً، ولا يتورع عن عمل شيء ما لم يضر وهو ذكي بارع يحسن انتهاز الفرص ويعرف من أين تؤكل الكتف وقد يكون منه الرئيس الذي سعد بالملق أو التاجر الذي ربح بالمضاربة.

والعامل الثاني: أن الإسلام قد قال قولته في مختلف نواحي الحياة أو قيل على لسانه، وحدد الموقف له، وليس المهم هنا صحة نسبة هذه الأقوال أو المواقف إلى الإسلام، لأن المجتمع قد أخذها، حتى ولو كانت خاطئة، كمواقف وآراء الإسلام فأصبحت حكاية الخطأ والصواب موضوعية وأكاديمية لا تهمننا في ناحية أحاسيس الناس ولا سيما الشباب الذين اشتدت حيرتهم عندما رأوا أن الإسلام لم يترك لهم منفذاً وأنه يحصى عليهم كل صغيرة وكبيرة وأن موقفه في كل ذلك يعارض ما يحبون وما يجدون بالفعل، وأن أشد المتسامحين يقفون عند درجة لا يرونها كافية قط، فقد يتسامحون في خروج المرأة واختلاطها ولكنهم يتمسكون بستر شعرها مثلاً وقل مثل ذلك في كل ناحية، في الفنون في الزى في وقت الفراغ، فضلاً عن أن باب الاجتهاد لا يفتح قط في نواح أخرى فهو في الصلاة مثلاً إما مصلي وعليه عندئذ أن يلزم بالوضوء والصلوات الخمسة وإما تارك وليس بين هذين حل وسط، وثمة شهر طويل بأسره يحكمه الإسلام بما لا دخل للاجتهاد فيه، فهو إما صائم، وإما مفطر، وهو لا يفهم لم يصوم وفيه يقدم أو يؤخر امتناعه عن الماء أو الشاي.

ومن الواضح أن موقف التجاهل لا يمكن أن يعد حلاً، وفضلاً عن أنه يخدع المشاهد عن الوضع الحقيقي للمشكلة في الوقت الذي لا تكف فيه عوامل الاضطراب عن العمل، وقد أخذنا على أنفسنا أن نجابه المشاكل وجهاً لوجه، فنحن نرفض موقف التجاهل ولا نرتضيه للمفكر العربي، بل لا نرتضيه للمواطن العربي.

ومن الواضح كذلك أن موقف العدا والتخلص من الإسلام بإطراحه من الوجود الاجتماعي لن يكون الموقف النموذجي للمفكر العربي، وهو يرفضه لعدة أسباب منها أولاً: ما أشرنا إليه من عراقية الدين من أقدم العصور في المجتمع العربي، والدور العظيم الذي قام به الإسلام في تاريخ البلاد حتى امتزجت مقاديرها ومصايرها الماضية به. والمفكر العربي يعلم أن حاضر الأمم والشعوب موصول بماضيها. وأنه ليس هناك أمم "متجولة" أو "منبئة" وأنها لو وجدت فستكون في وضعية الذليل المتسول أو ينطبق عليها ما قاله شوقي:

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عي في الأرض انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة يشنكي من صلة الماضي انقضابا

وهو كذلك يعلم أن ما يقال عن الأثر الكبير لفترة الطفولة في حياة الفرد بالقدر الذي يذهب إليه علماء النفس "ولاسيما مدرسة فرويد" يمكن أن يقال أيضاً عن ماضي الأمم والشعوب، فماضي الأمم كطفولة الأفراد لا يمكن إطراحها ومن الخطأ أن تعد الشعوب قوالب ممسوحة من الشمع أو سطوحاً ملساء يمكن نقلها أو التأثير عليها أو توجيهها أو تجريدتها من خصائصها أو إخضاعها لمختلف الإرادات وأن الأمر أعقد من ذلك وأشد تركيباً، كما هو الشأن في كل كائن عضوي متقدم في سلم الأحياء والتطور.

ثانياً: أن المسألة مع هذا ليست مسألة ماض فحسب، إنها مسألة حاضر أيضاً، بل ومستقبل كذلك، والمفكر العربي يعلم أن الأغلبية الساحقة من شعوب المجتمع العربي متدينة، متمسكة بأوامر الإسلام ونواحيه، ولا يعنيه أن تكون مقاليد الأمور في الأيدي التي تقف موقف التجاهل كما لا يخدعه المظهر المتبرج والملحد للمدينة العربية العصرية لأنه ما أن يسلم جيل في المدينة إيمانه للشك أو الإلحاد أو التغافل حتى ترسل القرى أيضاً جديداً من الشباب المؤمن الخصب: من الطلبة الذين أتموا دراستهم الثانوية والتحقوا بالجامعات والريفيين النازحين إلى المدينة طلباً للعمل وتستمر مقاومة هذا الجيل الجديد، وتمسكه مدة طويلة على أن القرى ترسل موجاتها سنوياً بصفة منتظمة تكاد أن تأتي مع الفيضان الكريم للنيل فكأن النيل يجدد خصب القرى، والقرى تجدد

خصب المدن، هذا بفيض من الماء والغرين، وتلك بفيض من الشباب المؤمن، وسيستمر هذا الوضع طويلاً رغم كل عناصر التجديد التي تحاول أن تشق طريقها إلى القرية.

على أنه من الخطأ أن نفترض أن المدينة قد أطحرت بالإسلام، فالواقع أن أكثرية المدينة لا تزال مؤمنة ولا تزال أغلبية الطبقة المثقفة مربوطة إلى الإسلام وقد جمعت هيئة إسلامية، في الماضي القريب خلاصة الجامعات.

فإذا كان المفكر العربي يحترم الواقع، ويرتبط بالشعب فإنه ليرفض مجرد التفكير في أن يقف موقف العداء.

ثالثاً: يعلم المفكر العربي حق العلم أن محاولة كمحاولة تركيا أو روسيا أو الصين نبذ الإسلام، لا يمكن أن تقوم هنا لعاملين أو لهما أن اللغة العربية تربطنا بالإسلام، وستذكرنا به وتقودنا إليه وقد كان عدم اتخاذ الشعوب التركية والقوقازية والصينية للعربية من العوامل الهامة التي مكنت نجاح محاولات الحكومات التركية والروسية والصينية، أما هنا فسيتمتع على كل من يريد إطراح الإسلام أن يطرح العربية أيضاً، وما من مفكر "عربي" يقبل ذلك، ولئن قبله فلن يكون عربياً.

والعامل الثاني: أن إيمان هذه الشعوب كان دائماً أقل من إيمان الشعوب العربية، الأمر الذي يعود إلى البيئة، والتاريخ، ولم تكن هذه الشعوب، فيما عدا الصينيين، في يوم ما شعوباً عريقة في الحضارة، ولكنها كانت دائماً قبائل رحالة تعتمد على التجوال حتى إذا أمحلت أراضيها هاجرت في موجات إلى الأرض الخصبة، أو غزت الشعوب المجاورة، ومن أجل هذا لم يتح لها الاستقرار الطويل الذي يثمر الفلسفة الدينية، ويمكن للإيمان في النفوس.

رابعاً: يؤمن المفكر العربي بضرورة المثل الأعلى والعقيدة للمجتمع، لأنها هي التي توحد الجماهير، وتصهر الخلافات، وتعلو روحهم ونفوسهم وتقدهم الطاقة القوية الكامنة، التي يمكنهم بها تذليل الصعوبات والتغلب على العقبات، وتضع في خدمة المجموعة كل قوى الإبداع والفردية وهي قوى ما لم توجهها العقيدة وجهة المجموع فستقوم على الأساس المادي والفردية الخالص، أي على الأساس الرأسمالي، وقد حاول فلاسفة مذهب المنفعة Utilitarians أن يجدوا الرأسمالية المؤمنة بالفكرة المادية مثلاً أعلى تكفر به عن آثامها وأثرتها وأنانيتها في شعار مذهب المنفعة "أكبر خير لأكثر عدد" ولكن فات المؤمنين بالمذهب أن الإيمان بفكرة المنفعة المادية سيتنافى تلقائياً مع فكرة مدها ونشرها إذ المؤمن بالمثل الأعلى المادي لا بد وأن يكون أنانياً إلى حد كبير وإذا آمننا مع "بنثام"⁽¹⁾ "بأن المال هو الذي يمثل الخير في هذا العصر لأصبح إيماننا مادياً وخطوة واحدة بعد هذا الإيمان - خطوة طبيعية جداً - ويصبح الهدف الاستئثار بهذا الخير المادي بدلاً من توزيعه على أكبر عدد ومن هنا كان لكل المجالات التي بذلت لتعميم المنفعة ثمنها الذي لم يعف عنه الرأسماليون كما كان لها عقابيل واتخذت احتياطات و ضمانات وحدود ولو وضعت قيمة معنوية محل المال لترمز إلى الخير لا تنقي المعنى الاستثنائي، ولانحسنت مادته لأن القيم المعنوية لا يمكن لأحد أن يستأثر بها والاستئثار بها على كل حال لا ينقصها.

حقيقة أننا إذا حولنا المساجد إلى عمارات سكنية أو محلات أو ملاهي، فنسكب من الناحية المادية ولكننا نخسر رمزاً معنوياً لإنسانيتنا وفكرنا ومن المؤكد أن الصفقة ستكون خاسرة.

قد يقال إننا نستطيع أن نصطنع عقيدة "إنسانية" وليست ذات طبيعة دينية عقيدة تكون المدارس والمستشفيات والعمارات رموزها وليست المساجد والصلوات، إن هذه الرموز جميلة رائعة، ولكن ما هي

(1) جيرمي بنثام مفكر انجليزي صاحب مذهب المنفعة .

القاعدة التي يقوم عليها الالتزام في مثل هذه العقيدة؟ الأساس النفعي الرأسمالي سيتعارض مع إطلاق وموضوعية مثل هذه العقيدة، الماركسية؟، لقد تقلص الإيمان في الماركسية حتى أصبح الولاء للحزب، فعلى أفراد الشعب أن يمنحوا ولاءهم للحزب باعتباره الطليعة الرائدة - وعلى أعضاء الحزب أنفسهم أن يثبتوا ولاءهم له بولائهم لفادتهم - أي أن الولاء سيصير في النهاية وبفعل النظام الإداري لحساب القلة المنظمة.

إن الميزة العظيمة التي لا تعوض "للإسلامية" هي أنها مع فرض الإيمان بوجود الله القوي العادل، فإنها تكل عقدة الالتزام إلى الضمير الفردي، وبذلك تجمع ما بين الحرية الفردية - لعدم وجود السلطان الأرضي كابتاً لها أو متدخلا فيها وبفضل إرجاء الحساب والعقاب إلى العالم الآخر - وفي الوقت نفسه تجعل الضمير الفردي يستشعر معنى المسؤولية أمام قوة لا يمكنه التلاعب بها أو التمويه عليها.

وهذه الميزة لا توجد في أي عقيدة أخرى لأنه إذا كانت العقيدة إنسانية حرة فستحقق الحرية، ولكنها ستعجز عن إشعار الضمير المسؤولية الأدبية، وإذا أشعرته فلن يكون بالقوة اللازمة كما يظهر من الفشل الذي منيت به المذاهب السياسية والفلسفية والأخلاقية والتميع الذي أصابها، هناك القانون بالطبع ولكن القانون لا علاقة له بالأخلاق أو الضمائر أو النفوس وإذا تحكمت العقيدة في الضمير الفردي كبتت الحرية وقضت عليها.

لهذه الأسباب، ولإيمانه ولأسباب أخرى لا يتسع لها المجال يرفض المفكر العربي أن يقف موقف العداء والخصومة من الإسلامية ويراه موقفاً ضاراً وغير عملي.

نقد موقف التأييد:

إن الموقف الحقيقي الذي يترتب لديه المفكر العربي طويلاً هو موقف التأييد، فقد رفض التجاهل، ورفض موقف العداء فلم يبق لديه إلا الموقف الثالث والأخير: على أن ما سيحدد موقفه ليس هو رفض العاملين الأولين ولكن العوامل نفسها التي قادت إلى الموقف الأول، عوامل من الممكن أن لا تنتهي إلى التأييد وإن انتهت إلى رفض العداء أو التجاهل.

والواقع أن المفكر العربي إذا كان بريئاً من مركبات النقص، والعقد لفكرية، والسخيمة المادية، وإذا كان إحساسه بالمجتمع العربي عميقاً خالصاً، وتجاوبه صادقاً أميناً، فإنه ليحس بسعادة غامرة إذا قاده فكره إلى تأييد الإسلامية أو انتهت أبحاثه الحرة إلى مثل ما انتهت إليه، فإن الإسلام حبيب إلى قلب كل عربي - حتى وإن لم يكن مسلماً - يعز عليه، ويؤلمه أن يختلف معه فإذا حدث الوفاق بين عقله وقلبه فإنه ليشعر بما يشعر به المطوف المجهد في الفيافي والقفاز عندما يستقر به النوى وينتهي ترحاله إلى الري والسكن والملاذ الأمين، إن صيحة القرآن "يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي" (الفجر) تنزل بلسماً وشفاءً وتجد الاستجابة والتلبية لها من أعماق نفسه.

ولكننا قد اتفقنا على أن المفكر العربي هو مفكر أولاً، وأنه لا يقبل قط، ولو حتى في سبيل السعادة، أن يخون فكره، وأنه رغم غيبطته، وربما حسده بسعادة المؤمنين - إلا إنه - أخيراً، يفضل جحيم الشك على سعادة لا تتفق مع فكره وهو يطرح عواطفه الخاصة في سبيل المعاني العامة، ولهذا فهو بعيد كل البعد عن أن يكون موقفه موقف التأييد المطلق، أو الأتباع أو التقليد.. وإذا كان قد أيد الإسلام فلأن فكره قد اتفق مع الإسلام وإذا اختلف فكره عما رآه في الإسلام فسيؤمن بما انتهى إليه فكره وإن كان فكره نفسه يهديه إلى عجزه في مناطق من المعرفة، ويحمله على التواضع ويعرفه أن الصلف والتعصب والزهو هي صفات قاتلة للمعرفة وأنه أمام مظاهر من إعجاز الكون لا يخجل من أن يقول "لا أدري" وهو يقولها في كل مرة لا يجد المادة العلمية التي يستطيع أن يحكم بها حكماً مكيناً صريحاً ولا يعيبه هذا لأنه يعلم أن ما يجله هو قد يعرفه غيره وأن ما يقصر عنه هذا الجيل قد تبلغه الأجيال القادمة.

التفرقة إذن بين المفكر والمؤمن أصيلة، فالمفكر مفكر أولاً، مؤمن ثانياً وتتضمن لفظة مفكر كل الالتزامات والارتباطات والواجبات على المفكر تجاه البيئة والمجتمع يعني أن المفكر هنا ليس المفكر النظري فحسب، أما المؤمن فهو مؤمن أولاً، ومفكر ثانياً، ونقطة الانطلاق والبداية هذه عظيمة الأهمية والخطورة لأن التفارق الذي لا يكاد يرى في الأول لا يلبث أن يتسع شيئاً فشيئاً حتى يمكن أن يصل إلى حد التناقض، ويمكن للقارئ أن يأخذ فكرة عن هذا عندما يلحظ "محلجي" الترام وهو يفتح الطريق لترام يريد له أن يحدد عن الطريق الذي سار فيه سابقه، إنه يدخل نهاية عصاته الحديدية المستدقة في نقطة تلاقي الخط الإضافي الذي يبدو لساناً دقيقاً لاصقاً بالخط الأصلي فتظهر فرجة ضئيلة جداً لا تلبث أن تميل وتتحرف شيئاً فشيئاً حتى تسلمه إلى اتجاه يخالف اتجاه الخط الأصلي الذي كان سائراً فيه أولاً.

وهكذا نرى أن المفكر والمؤمن وإن بدءا من نقطة واحدة كفردين يريدان الخير لأنفسهم وللناس إلا أن المؤمن وقد حصر نفسه في فكرة الدين لا يرى صلاحاً إلا في إتباع الدين وتحقيق تعاليمه بالذات وكثيراً ما يحدث في غمرة التعصب، وبهرة الكفاح أن ينسى الغرض الأصلي وهو صلاح البشرية ونفعها، ويغدو الإيمان نوعاً من العناد تختلط فيه - خلال عملية نفسية وجماعية معقدة - الذات والموضوع دون نظر إلى الغرض فهو يدعو إلى الإسلام لأنه الإسلام فحسب، وأي تنكر له يعد تنكراً شخصياً له وأي مخالفة في المبادئ ينظر إليها كإهانة. هذا كله دون أن يدخل في حسابه فكرة الصلاحية، أو فكرة الموضوعية أو فكرة الفهم وإعمال الفكر.

وهذا هو السبب في أن "الإسلامية" كنموذج للدعوة الدينية، لا تتحدث إلا عن الإسلام، كما رأينا مثلاً في النبذة التي نقلناها عن أهداف حزب التحرير، ففي معمعة العصر الحديث وارتفاع صوت المعاني الإنسانية والشعبية، لا نجد إشارة، أو بعضاً من إشارة إلى شيء من هذا لا نجد إلا الإسلام اسماً أو صفة.

وقد كان محل دهشتي الدائمة أن ألاحظ أن رجال الدعوات الإسلامية هم في الحقيقة أصدق تمثيل للمجموعة الشعبية، إذ يتكونون من الفلاح والعامل والموظف الصغير فكان يجب أن يكون الوعي الطبقي أو حتى الشعبي نامياً لديهم، ولكنهم كانوا أبعد الناس عن لمس هذه النواحي، أو الاهتمام بها، كان رجم الزاني وقطع يد السارق لديهم أهم من وضع سياسة لمشكلة الإسكان أو محاربة البطالة أو التأمين الصحي، وكان الاحتفال بمناسبة "كالإسراء والمعراج" أفضل من الاحتفال بأي مناسبة قومية كانت المعاني المبدئية الإسلامية المجردة تستأثر تماماً بكل اهتمامهم، وتستحوذ على مشاعرهم بحيث لم يبق لبلادهم التعسة ولمشاكلهم اليومية الماثلة التي تقابلهم صباح مساء أي حيز في نفوسهم وما كان هذا ليتم لولا أن الإسلامية قامت في الميدان الجماعي بعملية نفسية تشبه عملية "النقل" و"البدل" في السيكولوجية الفردية عندما ينتقل اهتمام المريض إلى المحلل أو يرمز إلى المشكلة بشيء آخر يمت إليها بحيث يتحول إليه الاهتمام ومن هذه الناحية يمكن تقدير جريرة الهيئات الإسلامية على المعاني الشعبية وندرك أنه منها توتّي الدعوات الإسلامية، وتستغل سلبياً لحساب الاستعمار والقوى الرجعية وإن كانت أمانة وطهارة القائمين عليها وأعضاء الهيئات أنفسهم ليست محل شك.

على أن جريرة الهيئات الإسلامية لم تقتصر على المعاني الشعبية إنها تعدت ذلك الإسلام نفسه ! وليس هذا بعجيب فإن الشيء إذا جاوز حده. انقلب إلى ضده ! فتعصب الهيئات الإسلامية، وإعطائها الاهتمام كله للمعاني المبدئية المجردة وانصرافها عن المشاكل الرئيسية، واعتزازها الأعمى بنفسها، وبدعوتها المستمدة من فكرة أنها وحدها التي تمثل كلام الله ودعوة الله وإصرارها على أن يكون لها كل شيء هذه كلها نفرت الناس لا منهم فحسب، ولكن أيضاً من الإسلام الذي وإن كان مجنباً عليه في هذه الصنفقة، بريئاً من غلو وكلائه إلا أن المتحاملين عليه كانوا إلى حد كبير معزورين فمن ذا يستطيع أن يتدخل بين الإسلام وبين الهيئات الإسلامية؟ أو أن يقول لها إنها لا تفهم الإسلام وهو صناعتهم؟ كانت النتيجة أن قامت الخصومة الملحوظة التي أشرنا إليها بين

المجتمع العربي الحديث وبين الإسلام وتبلورت في هذه الناحية أبرز صور التنازع الناشئ من فترة الانتقال وتختلف ركب الإسلامية في كل شيء في السياسة والاقتصاد والاجتماع وحتى عندما كسبوا الجماعات والجمهير والآلاف لم يستطيعوا لا الاستفادة منهم، ولا إفادتهم في هذه الميادين الحيوية الثلاثة، وكانت النتيجة أن انتصارهم في كسبهم المجموعات لم يؤد إلى انتصارهم الأخير، ولم يحل دون استغلالهم، فضلاً عن أنه وصم الإسلام بوصمة التأخر، ونفر منه القلوب وأوجد في نفوس كل الشباب نزاعاً مرّاً حول المقوم الديني المتأصل في هذه النفوس والمتحضر إليهم من آبائهم وأمهاتهم وبيئتهم، وبين ما يشهدون من نقص وتأخر وعماية الهيئات التي نصبت نفسها قيمات على الإسلام وممثلات له وبذلك ساعدت الهيئات الإسلامية نفسها على تعقيد المشكلة بدلاً من أن تساهم في حلها.

ومن الواضح أن الإسلام برئ من هذا وأن الهيئات الإسلامية في مسلكها قد خالفت وصية الداعية الأول عندما قال "إن هذا الدين متين.. فأوغل فيه برفق"، وانطبق على تدخلها بين المجتمع العربي والإسلامي المثل الذي ضربه النبي للرجل الذي شردت منه ناقته الأنوف فتكاثرت عليها الناس، فلم يزددها ذلك إلا شروداً حتى طلب إليهم الرجل أن يخلو بينه وبين ناقته، وينفضوا أيديهم من مساعدته، وما كادوا يفعلوا حتى أعاد الرجل ناقته بأهون الطرق، ولو خلت الهيئات الإسلامية بين المجتمع والإسلام.. لما شرد المجتمع.. ونفر هذا النفور.

الموقف المختار من (الإسلامية):

والآن ما هو الموقف المختار للمفكر العربي الإسلامية؟

إن هذا الموقف يتلخص في النقاط الآتية:

أولاً: اتفقنا على أن المفكر العربي مفكر أولاً، وقبل كل شيء وليس هناك فكر دون حرية، إنها الهواء الذي يعيش عليه العقل ويحفظ له الصحة والسلامة وهي مسألة مبدأ، كما هي مسألة حياة وما من مفكر أمين يفرط فيها لأي سبب وعليه فالمفكر العربي يتمسك بحرية العقيدة وفتح الأبواب على مصاريعها.

فالذين يدعون إلى حجاب المرأة وإركابها حماراً بالمقلوب إذا خرجت متبرجة والذين يدعون إلى تربية اللحية، وإرخاء العذبة وتحريم السجائر، والذين يرون أنه "حتى شكة الشوكة بذنب"⁽¹⁾.

هؤلاء جميعاً لهم الحرية في أن يدعوا إلى ما يؤمنون به مهما بدا من شنوذ دعواتهم وغرابتها.

والذين لا يؤمنون بوجود الله، أو يرون أن "الله قد مات" كما قال نيتشه، ويشاركون الشاعر الساخر رأيه في أن البعث والنشور إنما هو "حديث خرافة يا أم عمرو" لهؤلاء أيضاً الحق في الدعوة إلى عقيدتهم، إذا جاز أن يسمى هذا الجحود عقيدة ولهم أن يكونوا هم وأم عمرو، ومن يشاركهم الرأي النوادي والجمعيات ويصدروا الصحف، والمجلات والكتب.

والذين لا يعجبهم هؤلاء أو أولئك لهم الحرية في أن ينتقدوا ويتناولوا هذه الدعوات بالجرح والتعديل.

لجميع الحرية في الإيمان، والفكر، والدعوة ما دام الأمر أمر دعوة ونشر وتأسيس جمعيات ونواد.

أما الذي ليس لأحد حرية فيه فهو أن يضير أحداً آخر أو يمس كرامته أو رزقه بسبب المبدأ أو أن يسعى ليقسر الناس على الإيمان بما يؤمن به ويذهب إليه.

(1) جزء من حديث اتخذته إحدى الطوائف الإسلامية في مصر شعاراً لها، والمعنى أنه ما من ضرر يصيب الإنسان إلا ويكون ذلك عقاباً على ذنب ارتكبه.

والمفكر العربي لا يستحق كل الشرف في دعوته إلى تعميم الحرية وإباحتها للجميع، فهذه النقطة، هي إحدى المسائل التي دعا إليها الإسلام من قبل، والتي تتلاقى فيها آراء المفكر العربي مع الإسلام الذي أعلن في اعتداده: "وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ" (الكهف: ٢٩)، "السُّتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ" (الغاشية: ٢٢)، وجعل البقاء للأصلح، وأرجأ حساب كل خلاف في العقيدة إلى اليوم الآخر، وترك الحكم فيه إلى الله وكان عقابه للمرئد "من يرتد منكم عن دينه، فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه"، وجعل من الحديث "لا ضرر ولا ضرار" قاعدة كلية في الفقه.

إنه لموقف رائع للإسلام، موقف العقيدة المعترزة بنفسها، الواثقة من قوتها، المستغنية عن الحماية والحراسة بأصالتها، وقيامها على أسس الحرية والمنطق.

والذين يستجدون بالحكومات لسن القوانين "الرادعة" يشوهون ويخالفون هذا الموقف القوى الكريم ويكشفون عن ضعف إيمانهم وسوء فهمهم.

ثانياً: مع هذا فإن الموقف النموذجي للمفكر العربي هو الإيمان بالإسلام، والحب له، والحرص عليه، يقوده إلى ذلك أمران أولهما: أنه "كمفكر" وضع نفسه فوق الالتزام المفروض أو الإلتحاق التقليدي ينظر إلى الدين كأسمى الفنون والآداب والفلسفات ويرى فيها تركيزاً وبلورة، ورداً على طلعه العقل واستشرافه ما وراء الظواهر المادية، وهو لا يسعه تجاهل هذا كله رغم ما يشوبه في كثير من الأحيان من سخر أو خرافة أو مبالغة ولا يرى في هذا عجباً لأن الأديان تتطور والإسلام يعترف بمبدأ النسخ في بعض نواحيه نفسها، كما يعترف بمبدأ النسخ بالنسبة للأديان بأسرها^(١)، وهذه معاني تطويرية وتقدمية والمفكر يتابع تطور فكرة "الله" وتقدمها من التجسيم الوثني حتى إله العهد القديم الغيور - رب الجيوش - "جيهوفا" حتى المسيحية التي يظهر فيها الله "محبة"، وأخيراً في الإسلام حيث يصور الله "عدالة" باعتبارها فضيلة الكمال الاجتماعي، فهو يرى في الأديان بصفة عامة ناحية لا يمكن تجاهلها في حياة المجتمعات وهو يرى بصفة خاصة، وبفضل كونه أقرب مفكري العالم إلى الإسلام أن الإسلام هو أكمل هذه الأديان وأن المفكرين الأوروبيين قد عجزوا عن أن يكتشفوا النواحي التقدمية والرائعة في الإسلام وقاسوه على مسيحية البابوات في القرون الوسطى وهو ظلم يبين للحقيقة كما أوضحنا من قبل.

والمفكر العربي يرى أن الإسلام لا يزال ينتظر تلك الثورة التي ستجدد شبابه، وترفع الغشاوة الكثيفة التي طمست معدنه الكريم تلك الثورة التي لم يستطع حتى الآن أن يقوم بها أحد، حتى في أشد الهيئات الإسلامية تحرراً لأن الجميع وقفوا عند النص الحرفي، وفاتهم أن النص الحرفي لا يؤخذ بحرفيته في أمس مسائل العقيدة كصفات الله مثلاً، وأنه إذا جاز أن تأول تعبيرات صريحة كل الصراحة من نوع "يد الله فوق أيديهم" "الرحمن على العرش استوى" كل شيء هالك إلا وجهه" .. الخ. فإنه من الممكن أيضاً تأول تعبيرات أخرى.

والعامل الثاني: الذي يدفعه إلى التمسك بالإسلام هو إنه كمفكر عربي، وليس مفكراً فحسب، أي مفكر مرتبط ببيئة معينة، يعلم جيداً أن الإسلام جزء لا يتجزأ من كيان الأمة العربية^(٢)، وأن طبقات في أغوار عقلها الجمعي ولفائف من نسيج أعصابها تتكون من الإسلام، وتراثه القديم من لغة وذكريات وتاريخ.. الخ.

(١) لقد جاوزنا هذه المسألة بشقيها بعد تفكير أربعين سنة من وضع هذه الرسالة.

(٢) يمكن أن نلاحظ أثر الإسلام في الاحتفاظ بالعروبة والكيان القومي في الجزائر مثلاً، حيث تحاول فرنسا منذ أكثر من مائة سنة "فرنسة" الجزائريين، وحين وهنت اللغة العربية، وهي أبرز المقومات بعد الإسلام، وهناً بالغاً، ومع ذلك فبقاء الإسلام قد أفسد كل محاولات المستعمرين.. وكان كافياً وحده لبلورة المقاومة، وعلى نقيض هذا نرى أن "مسيحية" طائفة "الموارنة" القومية في لبنان جعلت العربية، بل والاستقلال، دخلاً وتطفلاً وقوت الميل إلى فرنسا "الأم الحنون" التي لم تبذل عشر معشار ما بذلته في الجزائر لكي تكسب الود، ولولا البقية الإسلامية في لبنان التي توهن فيها الطائفية والعصبيات.. الخ، لما بقي بلبنان ظل من العروبة أو الكيان المستقل.

ثالثًا: والمفكر العربي ينظر إلى الإسلام من عدة زوايا، ولكل زاوية موقف خاص بها.

(١) فهو ينظر إلى "الإسلام" كتراث أي كقاعدة من قواعد الثقافة والتاريخ، وجزء من ماضي الأمة العربية ومقوم من مقوماتها^(١) وهو يقف الموقف الذي يوقفه التاريخ فيرى أن هذه الحقبة من ناحية مدى تغلغلها وأثرها في المجتمع العربي مما لا يمكن تجاهله كما أنها من الناحية الموضوعية مما تستحق الفخر والتقدير، وهو هنا لا يقع في الخطأ الذي يقع فيه المؤرخون الأوروبيون عندما يطلقون على القرون الوسطى "القرون المظلمة"، وإن هذه الفترة لم تكن في تاريخ الشرق مظلمة قط، بل كانت هي التي أسهم فيها الشرق بقسطه في الحضارة العالمية.

(٢) وهو ينظر إلى الإسلام كعقيدة أركانها الثلاثة إيمان بالله واعتراف برسالة محمد وتسليم بخلود النفس فيرى أن المادة العلمية التي لديه لكي يقطع بنفي في هذه النقط الثلاث غير متوفرة وأن جهالته بها لا تنفي وجودها في الحقيقة، فهو والأمر هكذا لا يستطيع أن ينفياها، وهو يرى، من ناحية ثانية، أن توكيد عظيم كمحمد لم يعهد عليه كذب بل كان مثالا فريداً للأمانة والعظمة والعبقرية، وإيمان الرعيل الأول من الصحابة الذين أظهروا في الإدارة والقيادة والعلوم والفنون وبقية الملكات النفسية نضوجاً وكفاية، يرى المفكر العربي في هذا دليلاً كافياً للإثبات لأن "الدليل الإنساني" هو سيد الأدلة ولأن وراء العقل الفردي والطريقة العلمية في التحليل والتجربة طرقاً أخرى للإثبات ولاسيما فيما وراء الطبيعة.

والواقع أن المفكر العربي يقف طويلاً أمام تلك الحقيقة التاريخية: وجود الله في كل الشعوب على اختلافها منذ أقدم العصور حتى الآن، فإذا كان الخوف من قوى الطبيعة أو محض التقليد هو الذي "أوجد" الله في المجتمعات البدائية أول مرة، فما الذي أبقى عليه بعد ذلك؟ إن من العسير أن نؤمن أن فكرة ما كانت لتبقى على ممر الأجيال.. من أقدم العصور حتى الآن دون أي مبرر إلا القم.

وأما دعوى أن الدين "أفيون الشعوب" وإن الحرمان الاقتصادي قد سلك سبيله سرياً في أعماق النفس حتى أوجد إيجاباً الدين وعقائده من استسلام، وزهد، وإيمان بعالم آخر وبذلك استطاع أن ينفس عن كبته، ويرفع من خسيسته، ويشعر ضحاياه ببعض العزة التي ضن بها عليهم المجتمع المادي، هذه الدعوى لا تصدق في الحقيقة إلا على حقبة من الحقب في تاريخ الأديان، ونجد، على نقيض هذه الدعوى أن الفكرة التحريرية كانت هي السبب في ظهور أديان كثيرة ففي اليهودية مثلاً نرى موسى كما يظهره القرآن يطلب إلى فرعون، دائماً وباستمرار إلى جانب إيمانه بالله أن يخرج معه بني إسرائيل، وقد كان رفض فرعون الطلب الثاني كرفضه الطلب الأول، وانتهت معركة الإيمان بأن أصبحت معركة تحرير، أما المسيحية فلو صدقت دعوى أفيون الشعوب على دين لكان يجب أن تصدق على المسيحية، ولكننا نجد أن أفيون المسيحية قد جعل العبيد والأرقاء يقاومون الأباطرة ويصمدون للتعذيب حتى استسلم الأباطرة دون أن يستسلم العبيد.

وأما الإسلام فقد كانت روحه المتحررة من الظهور والبروز بحيث لم يتهمه أحد بهذا الاتهام. فأفيون الشعوب لا يمثل إلا حالة من حالات المسخ والوهن تعتري كل المبادئ في فترات الانحلال والانحطاط، فالحرية في ظل الرأسمالية أفيون لأنها تخدع الناس عن معنى العدالة، والعدالة في ظل الشيوعية أفيون لأنها تخدع الناس عن معنى الحرية وليس معنى هذا أن الحرية والعدالة أفيون.

(١) إن وجود أقلية غير مسلمة في البلاد العربية ليس من شأنه أن يحول دون أن يكون الإسلام مقوماً للأغلبية التي تمثل الأمة، كما هو الحال في البلاد الأخرى، أما أن ديناً ما لا يعد مقوماً لشعب ما فهذا ما نراه غلوفاً في المعنى القومي لا يتفق مع الوضعية الحقيقية للمجتمع العربي.

لم يبق في جعبة الذين لا يؤمنون بالله إلا القول إن الله "فرض فلسفي" وإنه ليس موجودًا في الحقيقة، ولكنه أوجد إيجابًا، وإن الدين كذلك لا يعدو أن يكون ظاهرة اجتماعية بحثه دعت إليها مقتضيات اجتماعية ولكن المفكر العربي يرى في ذلك خطة نحو الإثبات وإن كانت مبهمة ملفوفة، فما كان الله ليفرض نفسه لو لم يكن موجودًا في الحقيقة، وقد لا يكون موجودًا بالشكل الذي تتصوره الحواس أو يعطيه انطباع قراءة العهد القديم وبعض الأنجيل، ولا غضاضة علينا في هذا، فليس لدينا فكرة عن الوجود في شكل مادي لله، والإسلام لا يقدم شيئًا في هذا أو يعطي انطباعًا يحدد وجودًا مجسمًا، بينما لدينا صورة محددة لصفات الله، هذه الصفات التي تجعلنا نتحقق، فيما يتعلق بوجوده، أنه رمز الكمال، وقد قام الإسلام على الوحدانية ونفي التجسيد، كما برأ من الفكرة المعقدة، التي لا يمكن قبولها إلا رمزًا، فكرة الثالوث والأقانيم .

على كل حال، يقنع المفكر العربي، من الناحية العلمية، أن يقف من الإيمان بالله موقف نيوتن، وأينشتين، وهما من المؤمنين بوجوده، ومن الناحية الاجتماعية يرى أن الإيمان بالله يقدم افتراضًا ينتظم لا القوى الكونية وحدها ولكن وهذه ميزته، القوى الحيوية والعضوية أيضًا، ومن الناحية الإسلامية فإن الله في العقيدة الإسلامية هو رمز القدرة والكمال، وليس في هذا ما ينفر المفكر العربي بل على العكس، كل شيء فيه يحمله على تحبيذه، والإيمان به.

والركن الثاني: من الإسلام كعقيدة هو الإيمان برسالة محمد وليست عظمة النبي العربي محل شك والمفكر العربي يلاحظ محققًا أن تجاهل منزلة النبي العربي بالدرجة الواجبة في المعرفة الأوروبية بصفة عامة يمثل ثغرة فيها تتم عن أنها لم تستكمل بعد الصفة الموضوعية والعالمية التي كانت قميئة بها.

وما يتردد في ذهن البعض هو تصور الوحي وكيفيته وقد أراحهم القرآن الذي استخدم كلمة الوحي بالنسبة للنحل والأرض وأم موسى "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ"، "يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا"، "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ"، وفيما يتعلق بوحي النبي نفسه ذكر "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ"، كما ذكر النبي الرؤيا كإحدى صور الوحي وفي هذا كله ما يدل على أن الوحي يمكن أن يتم بصورة طبيعية أو عادية، ويكون مع هذا من الله.

وللمفكر العربي أن يناقش الصورة "والشكل" أما أنه في النهاية منزل من الله، فهذا ما تبرهن عليه المادة نفسها وتصديق الرسول الأمين

أما خلود النفس، فلو لم يكن حقيقة لافتراضه المفكر، ولكن لما لم يكن لديه دليل نفي قاطع وكان لديه أكثر من دليل للإثبات، فليس هو في حاجة لهذا الافتراض، وهو هنا - أيضًا - يأخذ اللب والفكرة ويسقط من حسابه واعتباره ذلك الحشد الحاشد من الروايات والتصويرات أو يعمل فيها عقله فيأخذ ما يرضه ويسقط ما لا يتفق مع العقل.

(٣) والمفكر العربي ينظر إلى الإسلام كعبادات أي صلاة وصومًا وزكاة وصدقة.. الخ، فيرى أن هذه الناحية قد أعطيت أهمية أكثر من اللازم، فقد اعتبرت هي العقيدة في حين أنها ليست في الحقيقة إلا مظاهر وشكليات العقيدة أو وسائلها وهو معنى واضح في القرآن يدل عليه اعتبار الصلاة وسيلة تهذيبية وصلة بين المؤمن، وبين الله "وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ"، "لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ الْقَوَى"، فالعبادات كلها قربات ووسائل ورموز وليست غايات في حد ذاتها ولا هي العقيدة نفسها، ولكن الناس قد جرت على دأب من التبسيط المخل فمن يصلي فهو مؤمن ومن لا يصلي فهو غير مؤمن وحدث في هذه

الناحية ما حدث في نواح أخرى - عندما تمر الشعوب والعقائد بفترات الاضمحلال - من اتخاذ الوسيلة غاية، والغاية وسيلة، فأصبحت غاية الدين الصلاة، والعبادات، وقام سوق نافق لتغذية هذه المعاني السطحية المحسوسة ففقدت العبادات رونقها وأصالتها، وعاطفتها وأثرها التهديبي ولم يكسب الإسلام من ذلك إلا المظاهر وانحط فهم الناس للمعاني الكبيرة في الإسلام.

لا شك أن للعبادات بصفة عامة أهميتها في الأديان، ومن هنا لم يكن هناك دين دون صلاة أو صيام، ولكن ما يجب أن لا ننساه هو أن هذه الأهمية ما لم تقم على أساس من العاطفة الصادقة في النفس فإنها ستكون رياءً ونفاقاً، ولا أظن أن ديناً من الأديان، فضلاً عن الإسلام الحر، يقبل هذا المعنى، فإذا لم نرد أن نكسب للدين المظاهر ونخسر المعاني فيجب أن تصدر كل صور العبادات عن العاطفة والطواعية، والإيمان، والحب، وأن يكون الباعث عليها تلك الصيحة النموذجية للنبي "أرحنا بها يا بلال" ⁽¹⁾.

لا يغفل المفكر العربي عدة نقط في الموضوع، إن فكرة الالتزام يجب أن تمنح نصيباً من الاحترام، فمن كمال الإيمان بالمذاهب التزام الصور المحددة والوسائل المعنية لهذا المذهب، والشكليات من ناحية أخرى، لها أهمية في حفظ الروح المعنوية، وليس أدل على ذلك من أن أساليب الضبط والربط هي التي تجعل الجيش جيشاً، وهي التي تلم شعته وتضم صفوفه، وتدفعه كتلة واحدة إلى الأمام، وتحفظ عليه شجاعته ووحده كما أن الاحتفاظ بالأساليب والمظاهر الحديثة في الأكل والشرب والزى تربط الإنسان الأوروبي بعالم الحضارة والمدنية، ومن هنا كان إصرار الأوروبي على مظاهر لبسه وسط الأدغال، فإنه كان يحس أنه بهذه المظاهر يرتبط بعالمه، على بعد آلاف الأميال.

نعم، يمنح المفكر العربي هذه النقط ما تستحقه من اهتمام، وهو لا يغالط ضميره، ولا يحيف على الحقائق، ولكنه يجد نفسه أمام خطر داهم أشد من هذا كله، هو السيطرة على النفس الإنسانية واستعبادها لا الله، رمز الكمال، ولكن للقالب المجسم والصورة الشكلية، بل هو يرى أكثر من هذا في ذلك تجميداً للإسلام وحصراً له في هذه الدائرة، ثم هو من ناحية أخرى يلحظ أن القرآن على توكيده لأهمية الصلاة لم يحدد لا وقتها ولا شكلها وقد حددها النبي بالطبع واعتبرت ثابتة ثبوتاً قطعياً، ومع هذا فإن إغفال القرآن للتحديد لا يخلو من مغزى، فبقدر ما حدد القرآن صفات الله، أي العقيدة، بقدر ما أهمل تحديد صفات الصلاة ومواعيدها وصورها.. الخ، وهي الوسيلة، وأخيراً فالإسلام رحب الأفق متعدد الميادين.

على أن المفكر العربي يطبق على الآيات الخاصة بالعبادات قاعدته في تأويل النصوص وفهمها، إن ترجمة نص ما وفهم مدلوله هي مسألة تواضع وعرف وهي ناحية تتراوح على مختلف العصور.

ومن الطبيعي أن يختلف فهم البدوي، وعمق هذا الفهم ومداه منذ ألف سنة، عن فهم الحضري في العصر الحديث، والبشرية في تطورها كالفرد يختلف فهمهما باختلاف مراحل عمرها وسنها.

ومن ذا يستطيع أن ينكر الاختلاف الاجتماعي والثقافي العظيم الذي تتميز به الأجيال المعاصرة عن الأجيال القديمة عندما لم تكن المدارس ولا الصحافة، ولا المطبعة معروفة.

الواقع أن هذه النقطة تقودنا إلى ناحية أخرى، لقد كانت الصلاة في العهد القديم هي العمود الفقري للمجتمع الإسلامي، وكان المسجد هو الجامعة العلمية حيث ينشد الشعراء ويدرس النحويون والفقهاء والأطباء وكان هو "البرلمان السياسي" حيث يلبي المسلمون دعوة "الصلاة جامعة"، ليستمعوا أنباء الغزو التي يرد بها البشير أو

(1) جزء من حديث، والضمير يعود على الصلاة.

يشيروا على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ومن قبل هؤلاء جميعاً النبي العظيم نفسه وكان هو النادي الاجتماعي حيث تعقد الزيجات ويصلي على الأموات.. الخ.

وكانت سكينه المسجد تظلل المجتمع بأسره وكان للصلاة في هذا العهد رسالة أخرى ومن هذه الرسالة اكتسبت شطراً كبيراً من أهميتها الاجتماعية والتهذيبية ولكن العصر قد اختلف وتخلف المسجد وراء المدرسة والنادي والصحافة والمطبعة، وأصبح كل فرد يستطيع أن ينمي معارفه بكنوز العقل البشري من سقراط حتى فلاسفة اليوم ومن العبث أن ننكر هذا أو أن نحاول أن نعود إلى الوراء.

لقد كان عمر يتمنى لو كان بينه وبين فارس بحرًا من نار لا يمكن عبوره، ولكنه، مع ذلك كان يوفد الوفود ويجند الجيوش ويعلم حق العلم أن التطور محتوم وأن الله هو الغالب على أمره وليس عمر أو غير عمر من المشايخ، ولماذا نأسف أو نأسى أو نتمنى العودة إلى القديم إذا كانت الوسائل الجديدة تؤدي الرسالة التهذيبية نفسها بشكل أكمل فالحكمة ضالة المؤمن وهو يفتدها أي وجدها، والعلم مطلوب ولو في الصين، وقيمة المسجد والصلاة أخيراً مردها إلى تهذيب النفس وتنمية الضمير وترقية المشاعر، وقد كان الإسلام دائماً عدواً لدوداً لكل صور التجسيم والتشكيل والقوالب كما كان عدواً لفكرة كفكرة "الخطيئة" أو التحريم أو "التابو"⁽¹⁾، وأي دين آخر يستطيع أن يقول نبيه كما قال محمد "استقت قلبك.. وإن أفتوك.. وإن أفتوك"، إننا في الحقيقة لا نجد في صيحة سوبرمان نيتشه "هذا خيري.. وهذا شري"، اختلافاً كبيراً عن وصية النبي العربي "استفت قلبك..".

إن المفكر العربي الواسع الأفق الذي ينظر الإسلام كذخر حضاري وقيم معنوية والتزام أدبي يتلاقى مع الإسلام بفضل المعاني، ولا يستشعر قط أي مخالفة إذا وصل إلى المقاصد التي أراها الإسلام بطريقة تخالف تلك التي حتمتها الأوضاع على عرب شبه الجزيرة منذ ألف وثلثمائة عام ونيف، بل على العكس يري أنه أقرب إلى روح الإسلام من الذين يحافظون على ظاهر الآيات وحروف النصوص ويغفلون المعاني والمقاصد الحقيقية.

وهناك نواح أخرى لا يتسع لها المجال، والمهم أن المفكر العربي يري أن العبادات تمثل ناحية الشكليات فلا تزيد عنها ومن الطبيعي أن تأتي في الدرجة الثانية.

والمفكر العربي يري أن من المهم بعد تحديد القيمة العامة للعبادات أن ينظر إليها كمسائل فردية وخاصة فأن يصلي أحد أو أن لا يصلي، وأن يصوم أو لا يصوم هي مسألة شخصية، بل هي في الحقيقة أمس المسائل شخصية لأنها تتعلق بضميره، وعقيدته فالتدخل فيها تطفل والسؤال عنها أو تتبعها فضول مستهجن والحكم على فرد ما بها سطحية لا تفرق عن الحكم على شخص ما بلون ثيابه لأنه لا علاقة قط بين مظهر العبادة، وبين حقيقتها وبالجملة فأن يصلي أو يصوم زيد من الناس ليس له أي قيمة اجتماعية، إن قيمتها الاجتماعية تظهر في الأعمال، والخلق فلا داعي للفرق والدوران.

والمسألة ليست مسألة وضع سليم يجب أن يتخذ، إنها أعظم من ذلك إن أي تدخل من المجتمع في هذه الناحية، ولو بالنقد، كفيل بأن يفسح مجالاً لاستغلال هذه الناحية الحساسة كما هو كفيل بأن يفسد المعنى الكريم الذي تقوم عليه في نفوس الأفراد.

وحنق "المواظبين" على المفرطين لا يمكن أن يعد عاطفة نبيلة أو "غضباً لله" يثابون عليه فالأقرب من ذلك أنه معنى أناني يثور في النفس عند رؤية "المخالفين"، أصاب هؤلاء المخالفون، أو أخطأوا، وكانت المخالفة في عبادة أو في غيرها، ولو كان هذا الحنق معنى كريماً لتحول صاحبه إلى العطف وتبني الهداية أو

(1) يرمز بكلمة "التابو" إلى التحريم القائم على أساس العقيدة، والمقترن بقداستها.

ترك الأمر لله فهو أدرى بالقلوب وأعلم بالحقائق، ولعل الإحساس بالتقصير أو النظر إلى ناحية الكرم والرحمة من الله أفضل من الإدلال بالأداء أو تقدير ناحية البطش والجزاء وإنه لمن المؤكد أنه في اليوم الذي يوكل إلى غير الضمير الفردي الخاص الهيمنة على هذه الناحية ستفقد العبادات كل قيمة لها وستكون أداة استغلال مهينة.

ويستطيع المفكر العربي أن يرسم الخطة السليمة لمجموعات من الأفراد قلما تجاوزها مجموعات الأفراد في المجتمع، تجاه هذه الناحية بحيث يوائم بين ناحيتي الحرية والالتزام ولكن هذا أدخل في باب التفاصيل وليس هنا مجاله.

(٤) والمفكر العربي ينظر إلى الإسلام كمجموعة من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وهو يخضع بعض هذه النظم تمامًا للمصلحة وينظر للبعض الآخر كمثل أعلى قد لا يستطيع تطبيقه حرفيًا ولكن النظر إليه دائمًا يحول دون اللف والدوران ويجعل السير نحوه في خط مستقيم الأداء أدنى إلى الكمال، وإن لم يصل إليه والمفكر العربي يؤمن تمام الإيمان أنه بهذا الموقف لا يقع في مخالفة جذرية أو غير جذرية للمبدأ الإسلامي، وإنه هنا لا يفعل أكثر مما فعله عمر عندما أوقف حد السرقة عام الرمادة، وعندما رفض الأخذ بحديث الواحد، وعندما اقتبس النظم الفارسية في البريد والديوان.. الخ، فالشورى مثلًا مبدأ رائع، ولكن هذا المبدأ لم يطبق في الإسلام التطبيق المحدد الذي يحول دون الافتيات عليه فالنسق الحديث من التنظيم هو الكمال الذي ينتهي إليه التطور فيما يتعلق بالشورى. والزكاة مثلًا مبدأ حيوي في البلد الرأسمالية ولكنه في البلد الاشتراكي يفقد معظم أهميته وفي مسألة المرأة مثلًا كان الإسلام تقدميًا جدًا في ناحية الحقوق والواجبات، ولكنه لم يكن كذلك في ناحية الزى والحجاب فلا علينا إذا تقدمنا نحن بها فقد كانت الحشمة وقتئذ هي جررة الثياب بينما تمثل الحشمة في عصرنا القاعد الكلاسيكية "تحت الركبة بشبر" والذي يدعو إليها يعد ولا شك داعيًا إلى الحشمة لأن هناك آخرين يدعون إلى ما يوه "بيكيني" أما الاختلاط وعدمه فالإسلام لم يحرم - بحكم الأحاديث - إلا الخلوة ولست أظن أن الخلوة التي نهى عنها الإسلام هي الخلوة التي تدعو إليها اشتغال المرأة ومساهمتها في الحياة العامة، فليست هذه "خلوة" وإن لم يكن فيها سوى رجل وامرأة على أنه قد أفسح لنا في العذر عندما قرر القرآن مبدأ "فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه" وعندما قرر النبي "أنتم أعلم بشئون دنياكم"، ولا شك أن خلوة السكرتيرة الخاصة برئيسها تعد ضرورة في عملها.

خلاصة ما يمكن أن يقال عن موقف المفكر العربي من الإسلامية هو أنه لا يرى في تجاهل المشكلة موقفًا، بل يرى فيه فرارًا منها وهو يرى أن موقف العدا غير ممكن، ولو كان ممكنًا لما وقفه لأنه يخالف قاعدته الأساسية في الحرية ولأن الأديان حتى الآن تمثل أقوى صور الالتزام، وصور الالتزام في الإسلام هي أكمل صور الالتزام في الأديان، ومن العسير أن نجد بديلاً عنها تكون لها القيم الحضارية والهيمنة التي "للإسلامية" والقوى الكبيرة والشائج التي تربطها بالمجتمع، وهو حريص أشد الحرص على فض الخصومة بين المجتمع الحديث والروح الإسلامي لأنه يلتمس مدى جناية هذه الخصومة على كيان المجتمع العربي بأسره ونواحيه المعنوية والاجتماعية والقومية، ولكنه كذلك لا يريد أن يتورط في الخرافات والرجعية والتأخر التي تحيط بهذا الموضوع، بل هو كعادته لا يجعل الإسلامية وحدها نقطة انطلاق لأنه حريص على بقية نواحيه وصفاته الأخرى.

والمفكر العربي يخرج من هذا الموقف ببراعة فهو يرى في عدم مطالبة الإنسان بالتكاليف إلا عند بلوغه سن الرشد دليلًا على قيام الإسلامية على العقل والفهم، وليس الإلتباع والتقليد وعلى أن الدين بأسره ليس هو نقطة الانطلاق وهو يؤمن، ويحب، ويعجب بالتاريخ الإسلامي العظيم، ويفخر دائمًا بأنه سليل صانعي هذا

التاريخ، وهو يجد في العقيدة الإسلامية لله والوحي حلاً مثاليًا لا يتنافى مع العقل لغوامض ما وراء الطبيعة وهو لا يرى حرجًا قط في أن ينظر إلى كثير من الآيات والأحاديث المتعلقة بالسمعيات والعبادات باعتبارها صور من الرمزية أريد بها تقريب المعنى إلى الأذهان التي لم تألف التصوير إلا في شكل محسوس، وهو يضع في حسابه كثيرًا من المعاني الإسلامية التقدمية كالنسخ، والضرورة والمرونة وسعة الأفق والتعدد وغير ذلك، ويرى المفكر العربي أن العبادات الإسلامية إنما هي أشكال ووسائل وليست غايات ومبادئ أريد بها التهذيب وإبقاء الصلة بين الإنسان والله، والمفكر العربي قد يرى في هذه الناحية طرفين:

الأول: الحفاظ والإتباع، وفي ذلك كمال الالتزام وحفظ الشكليات التي أظهرنا من فوائدها ما عجز بعض المتمسكين أنفسهم عن إيضاحها على أن لا يكون ذلك على حساب المعاني والطرف الثاني التحرر منها إذا لم تؤد وظيفتها، وباعتبارها وسيلة، وأن الدين بالذات إنما يقوم على الإيمان، فهو آخر من يبحث عن وسائل "الضبط والربط" أو يعني بها، لأن هذه الوسائل وإن حفظت الجسد، والظاهر، إلا أن نجاحها في إصلاح النفوس ضئيل، ومرد الجسد إلى القلب كما يشير إلى ذلك الحديث: "إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد، وإذا فسدت فسد الجسد.. ألا وهي القلب..". والمفكر العربي لا يحدد موقفًا من هذين أو بينهما أو يفضل واحدًا على آخر، لأن الموضوع موضوع شخصي وفردى يختلف الحكم عليه باختلاف الأشخاص، والذي يملك الحكم وحده هو الشخص نفسه في الأرض والله في السماء وقيمة الموقف الأول "الحفاظ" مشكوك فيها إذا لم تتضمن إلا المظاهر ولم تؤد رسالتها التهذيبية، إن الصلاة ترد والقرآن يلطم قارئه وقد يفضل الموقف الآخر إذا استكمل ما أراد الإسلام للصلاة أن تحققه واطمئن قلب صاحبه إليه.

والمفكر العربي يرى أن شعور الإثم والتقصير والخطيئة والخوف الذي يتمكن من بعض النفوس لا يمت إلى الإسلام بصلة، وإنما يعود إلى نوع من التربية الخاطئة والتخويف بالنار والجحيم، كما يعود إلى فترات الانحلال التي مر بها المجتمع العربي والتي تجعل المظاهر والوسائل أقرب وأهم من الحقائق والغايات.

توجيه إلى الهيئات الإسلامية:

إننا لننتهز هذه المناسبة، ونختم هذا الفصل بتقديم رأينا إلى الهيئات الإسلامية فيما يجب أن تكون عليه سياستهم حتى يمكن أن تكون جهودهم منتجة مفيدة، مبرأة من السقطات والشوائب وقد مضى أكثر من عشر سنوات منذ أن أصدرنا "ديمقراطية جديدة" وخصصنا فيه فصلاً كبيراً تحت عنوان "فهم جديد للدين" انتقدنا فيه الدعوات الإسلامية المختلفة ووجهنا الحديث إلى بعض الهيئات الإسلامية الناهضة التي كان صوتها قد بدأ يعلو، ويدخل نشاطها في مرحلة دولية.

في هذا الفصل قلنا: "... ولو أننا أصخنا السمع إلى الذين يريدون استلهاام الدين مبادئ السياسة وأصول المجتمع وإدماج العلم والقانون والاقتصاد في الدائرة الدينية، وإذابة مشخصات هذه النواحي في نار إيمان مرتفعة الحرارة، فإن التجربة ستتكرر بالضبط - ستبدأ - على أحسن الفروض بقديسين، وصدقيين، وفدائيين، مضحين، ثم تنتهي سريعاً بدجاجلة وأدعياء، وأغبياء وسيتحول الدين الصحيح إلى الدين كما فهمته الشعوب في الماضي، أي عبادة وقداصة وتقاليد وطقوس وستكون كلمتا حلال وحرمة سيفاً مصلتاً على أدق المسائل الشخصية^(١).

ووجهنا الحديث إلى دعاة الدعوة الإسلامية.

(١) ديمقراطية جديدة، ص ٧٣، مطبعة الاعتماد، سنة ١٩٤٦ م.

"لا تؤمنوا بالإيمان فقط، ولكن آمنوا بالإنسان"، إن الإيمان قوي عمياء تائهة في بيداء المبادئ، إنها مادة خام للإيجار أو للاستغلال، إنه ليأتي وقت لا يفضل فيه الإيمان الشعبي الغريزة العمياء والسكر الأسود والوحش الطليق، فاحذروا أن تطلقوا هذه القوى من عقالها قبل أن تعودوا مروضها "الإنسان" وقبل إن تضمنوا حسن استغلالها^(١).

ولم يجد هذا الرجاء وقتئذ أذنًا صاغية، وتتابع الأحداث وأثبتت نتائجها في البلاد العربية بأسرها أن النقص في الهيئات الإسلامية ليس نقصًا فرديًا، أو طارئًا، أو حدثًا عارضًا، فنكرر العثرات، وعدم التوفيق في السياسة الخارجية، والانصراف عن المعاني الشعبية والإنسانية يدل على ذلك ويجعل من هذه اللحظات اللحظات الحاسمة في تاريخها فما لم تجدد في دعواتها وتستفيد من الأخطاء وتساير التطور فسيحكم عليها بالموت والانقراض ولن يبكي عليها أحد في الأرض ولا في السماء.

في رأينا أن على الهيئات الإسلامية أن تقلع عن فكرة "الحكومة الإسلامية" أو العمل لإحياء المجتمع الإسلامي القديم فهذا حمق وبلاهة وعقارب الساعة لا تعود إلى الوراء أبدًا أردنا أو لم نرد ولو كان من الممكن أن يتم هذا لثم منذ بضعة سنوات ولكن الرصاصات التي انطلقت في مساء ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩م قد قضت على آخر أمل في ذلك لأنها أخذت من الميدان القائد الإسلامي الوحيد^(٢) الذي كان يستطيع أن يحقق ذلك، والذي كانت شخصيته من القوة بحيث تفرض نفسها، ولو مؤقتًا، على التطور وكان عقله من الرحابة.. وأفقه من الاتساع بحيث يستطيع أن يدخل من التجديد والمرونة على الدعوة الإسلامية ما يجعلها تتلاءم مع التطور وقد كان مصير الدعوة الإسلامية - كدعوة صدارة - في العصر الحديث مرتبطًا بهذا الرجل كما كان مصير الخلافة الإسلامية مرتبطًا بعلي بن أبي طالب وأدى مقتل الرجلين إلى انتهاء الخلافة وفقد الدعوة الإسلامية لمنزلة الصدارة في العصر الحديث.

وعلى رجال الهيئات الإسلامية أن يعلموا أن من العبث مطالبة أبناء هذا العصر أن يكونوا كمسلمي الرعيل الأول، ففي تلك الفترة التي لن تعود، كان الإسلام والمسلمون شيئًا واحدًا كان الإسلام ابن وقته وعصره ومكانه وشاد في رجاله ودعاته قدر ما زاد دعاته ورجاله فيه ثم أخذ سبيله وأصبح على الإسلام إما أن يشارك التطور فيأخذ بالأسباب الجديدة وينزع أثوابه كلما بليت ورثت ويضحى بالأشكال والقوالب كلما جدت أشكال وقوالب جديدة وإما أن يكون دعوة دينية في الدائرة الضيقة التي لا تتعرض لشئون الحياة، والتي يعجب بها الناس كما يعجبون لما يرون في المتاحف والمعارض، لا يحملهم العجب بها على الإقتداء بها أو السلوك مسلكها.

فإذا قيل لرجال الهيئات الإسلامية إن شاعرًا يبتهل إلى الله بشعره وأن موسيقياً يصلي بكمانه، وأن هائماً بجمال الطبيعة يلتقط جوهرة المغرب الجميلة الرائعة بطريقة غير طريقة الصلاة^(٤)، وأن صوفياً عصرياً لا يفني في الله وإنما في خلق^(٣) الله فعلى رجال الهيئات الإسلامية أن يحترموا ذلك ما كان الإخلاص سداً ولحمته.

وإذا قيل لهم إن من حق الشباب أن يلهو، وإن من خير المجتمع أن يسمح بذلك وأن يتم في رعايته وحفظه، وإن حفلات الشاي الجميلة التي تجمع الجنسين، وحلقات الرياضة والرحلات والمسابقات في العلوم

(١) المصدر نفسه ص ٥٣.

(٢) الإشارة إلى المرحوم الشيخ حسن البنا مؤسس دعوة الإخوان ومرشدها العام.

(٣) الإشارة إلى الحديث النبوي "المغرب جوهرة فالتقطوها".

(٤) ذلك ما روى إحدى المرات عن السيد جمال الأفغاني، (أنظر خاطرات جمال الدين الأفغاني - لمحمد المخزومي) .

والفنون هذه كلها تهذب النفوس، وتصقل العواطف وتنمي الشخصيات، وتتيح للشباب والشابات متعة من حقهم أن يحسوا بها إذا قيل لهم هذا كله فلتكن إجابتهم "على بركة الله".

وأخيراً فعلى رجال الهيئات الإسلامية أن يعلموا أنهم حراس القيم المعنوية والحضارية وحفظة الضمير الإنساني، وليسوا سدنة لهيكل فليس في الإسلام لا سدنة، ولا هيكل ولا ما يتبع ذلك كله من احتراف أو طقوس.

* * *

الفصل الثالث

عود على بدء

كانت الفكرة الأساسية في هذا البحث أن يكون مقدمة لكتاب ولكن قدر لأحد الأصدقاء أن يطلع عليه، وأن ينصح بنشره مستقلاً وعندئذ أضيف الفصل الثاني واضطررنا إلى توسع لم نجد عنه مناصاً، ولا سيما في "الإسلامية" يشفع لنا في ذلك ما أشرنا إليه من أهمية هذه المسألة من الناحية التاريخية الماضية والمعاصرة، وجهل الكتاب الأوروبيين بها وتجاهل الكتاب العرب لها، والصفة الخاصة للكاتب التي تجعله أقدر من غيره على تفصيل هذا الموضوع، وفكرته التي يؤمن بها، كرجل شعبي عن أن الإسلام لا يزال عريقاً كل العراقة في المجتمع العربي، ولعله أبرز مقومات هذا المجتمع وأقواها وأن المقوم الذي يحل محله ويأخذ مكانه لو قضينا عليه، لم يوجد بعد، وأخيراً حساسية الموضوع التي برزت في الأيام الأخيرة وتوشك أن تجعله عامل فرقة.

ومع هذا التوسع، فمن الواضح أنه نسبي فحسب، أي أنه توسع بالنسبة لما أريد لهذه الرسالة أول مرة من أن تكون بحثاً مبسطاً في خمسين أو ستين صفحة حتى يلم بها الجميع دون أن تثقل عليهم في الوقت أو المال، وإلا فإن في المجال متسع لعشرات من مثل هذه الرسالة ولا سيما وأنا قد رفضنا تجاهل المشاكل أو التغاضي عن الاعتراضات وفضلنا مجابتهها، فلم يتسع المجال إلا لنتناول رؤوس المواضيع، وفي الحقيقة إن تفصيل ما جاء بهذه الرسالة هو ما ستأخذ دار المحاييد العربي⁽¹⁾، على نفسها أن تقوم بنشره في عشرات الرسائل حتى يتجلى خافيتها، ويتضح غامضها.

ومن الخير أن نلخص في نهاية هذا البحث ما فصلناه، فقد رأينا أن المفكر بصفة عامة مرتبط بالبيئة، وأن الفكر متأثر بالحياة، وبنينا على ذلك الاختلاف بين وضعية المفكر العربي والمفكر الغربي واستتباع ذلك للخلاف في النظر إلى المشاكل وطريقة حلها وأنه حتى عندما يؤمن المفكر العربي بالماركسية أو الرأسمالية أو الإسلامية وهي المذاهب الثلاثة الكبرى في رأينا، فإن إيمانه بها يجب أن يخضع لعوامل البيئة الخاصة بحيث يختلف عن إيمان الماركسي، أو الرأسمالي، أو الإسلامي في البلاد الأخرى.

على أن الموقف المختار للمفكر العربي ليس هو في الإيمان بأحد هذه المذاهب، فقد رأينا أن الرأسمالية في ناحيتها الاقتصادية ليست إلا تعبيراً وحشياً ومادياً عن الأثرة والأنانية والفردية، وأن طبيعة المجتمع العربي القديمة والحديثة والمواقف السياسية والدولية كلها تحتم عليه نبذ الرأسمالية كنظام اقتصادي وإن كان يقبله أساساً للنظام السياسي الديمقراطي الذي ينسب عادة إليها مع بعض التعديل.

ورأينا كذلك أن الماركسية وإن استكملت نقص الرأسمالية في الناحية الاقتصادية إلا أنها لم توفق في الناحية السياسية، إذ تجاهلت الحرية متأثرة بناحيتين الأولى: المذهبية التي تتجلى في نظرية صراع الطبقات.

(1) هذه الدار هي التي أسسناها حتى نكون أحراراً في نشر ما نريد، ولكنها لم تعمر، وقد ردار الفكر الإسلامي أن تقوم بالمهمة.

والثانية: العملية وهي التي تورط فيها السوفييت الروس عندما جربوا لأول مرة النظام الجديد فاضطروا إلى ارتكاب أخطاء كثيرة جدًا يتمسك بها العاشقون للماركسية، والهائمون بها جرياً على منوال الأغلبية المبتذلة "وحاشته عاجباني!"، وإن المفكر العربي لذلك يرفض الماركسية كنظام سياسي يقوم على الحزب الواحد، والبوليس السياسي وتجاهل حرية المعارضة كما لا يرى في الماركسية كعقيدة ما يغريه بالإيمان بها فحتى لو وجد النضال بين العمال والرأسمالية وانتهى بانتصار العمال، "وتصفية" الرأسماليين، فإن الماركسية تفقد ديناميكيتها ولا يكون لديها في الناحية الإيجابية إلا الكلمة المشهورة لزعيمها "لست ماركسياً"^(١).

صحيح إن اتحاد الجمهوريات السوفيتية استطاع أن يجدد صناعاته وينهض بنفسه.. الخ، بفضل الماركسية، فإذا غضضنا النظر عن الثمن الفادح، فتبقى قيمة هذه "الصناعات الثقيلة" من وجهة النظر الشعبية، فالرأسمالية قد أوجدت صناعة ثقيلة، بل إن نقيصتها هي زيادة الآلات الإنتاجية إذ المهم أن يكون ذلك كله لحساب الشعب وأن يتجلى ذلك في زيادة الاستهلاك، ولم نسمع بعد عن تقدم الاستهلاك في اتحاد الجمهوريات السوفيتية، بل إن المسلم به أن ذلك أعظم في البلاد الرأسمالية، وهم يردون على ذلك بأن زيادة الاستهلاك هي ما سيتم بعد فترة الانتقال ولكن فترة انتقال تستمر من ١٩١٧م حتى سنة ١٩٥٧م قول ممجوح، يحمل في نفسه لدى كل منصف، أو حتى ذي ذوق سليم الرد عليه.

فموقف المفكر العربي من الماركسية قبول الناحية الاقتصادية وهي على كل حال أهم ما فيها، أما ما عدا ذلك من إيمان وسياسة فلدَى المفكر العربي ما هو خير منها ويأتي دور "الإسلامية" الطويل العريض فيرى المفكر العربي أن الإسلام مقوم بارز من مقومات المجتمع العربي وقوة معنوية عظيمة وضعها الطبيعي أن تكون في المعسكر الحر والتقدمي، وأنه بقدر ما تكون للضمير الفردي وحده القوامة على شئون العبادات بقدر ما يمنح الأفضلية للمعنى الجماعي في شئون الحياة وميدان الأعمال، وأن الهيئات الإسلامية قد عجزت عن الاهتداء إلى الموقف السليم فأساءت إلى المجتمع، وإلى الإسلام، وإلى نفسها، وأنه من الضروري فض سوء التفاهم القائم - دون أي مبرر - بين المجتمع العربي الحديث وبين الإسلام، وأن تجاهل الإسلام لا يمكن أن يعد موقفاً، كما أن موقف العداوة منه ليس من الصواب، ولا من الإنصاف في شيء.

والمفكر العربي يرى أن الوقت قد حان لكي يحدث تجديد حاسم في فهم الإسلام يقوم على اعتبار الروح والغاية والهدف. وإسقاط الشكل والصورة والوسيلة إذا أبدع العصر ما يفضل الأشكال والصورة والوسائل القديمة، وإن كان - حتى هذا - لا يمكن أن يعد جديدًا جدًا على الإسلام، الذي جعل لمن يبتدع البدعة الحسنة ثوابها إلى يوم القيامة.

هذا هو - باختصار - موقف المفكر العربي من المذاهب الثلاثة الكبرى.

اعتراضات.. والرد عليها:

نعلم أن الموقف الذي اخترناه للمفكر العربي سيثير نوعين من الاعتراضات، الأول: سيصدر من دعاة المذاهب الثلاثة فالرأسماليون سيرون أننا سنقضي على لب النظام الرأسمالي باصطناعنا النظام الاقتصادي الاشتراكي في أقوى صورته ودون هوادة وسيغضب الماركسيون لأننا قد رفضنا الأخذ بديكتاتوريتهم السياسية واستهجنّا مسلكهم نحو المعارضين واحتفاظهم بالجهاز الإرهابي المخيف البوليس السري، والله أعلم ماذا ستفعل بنا الهيئات الإسلامية.

(١) يقولون إن البعض سأل ماركس عن النظام الذي سيكون عليه المجتمع بعد انتصار دعوته فأجاب: لست ماركسياً.

على كل حال، ليس غضب الرأسماليين والماركسيين، ودعاة الهيئات الإسلامية، بالذي يعيننا، ومن العبث أن نقارعهم الحجة، أو نلتجأ معهم إلى البرهان، لأن المؤمنين بالمذاهب قلما يتخلون عنها إذ تربطهم وشائج من عادة وعرف ومصالحة.. الخ.

وما يهمننا في هذا الصدد هو جمهرة الإلتباع، الذين يمثلون جزءاً كبيراً من جمهرة الشعب، وفي الوقت نفسه لا يكون تعصبهم مثل تعصب الدعاة.

المفكر العربي يعنيه هؤلاء، وهو يقول لهم إن المغالاة في المذاهب والحرص على مد نفوذها إلى أكبر مدى لا يعود في حقيقته إلى الإيمان بالمبادئ والحرص على العقيدة قدر ما يعود إلى ما يجره ذلك من غنم على "جهاز المذهب" أي على الرأسماليين في الرأسمالية والمنظمين في الماركسية، والمشايخ في الإسلامية، فهؤلاء هم الذين يحرصون أشد الحرص على المغالاة في قيمة مبادئهم، ويحاولون مد نفوذها وسيطرتها على كل النواحي، لأن ذلك في حقيقته مد لنفوذهم وسيطرتهم فالمذاهب كلمات صماء ونصوص، وهم قضائتها الذين يحملون ذهبها وسيفها ويجرون بقيودها وتحريماتها وتحليلاتها القطيع الشعبي الكبير وراءهم فالمفكر العربي عندما يحد من ميدان كل مذهب من هذه المذاهب، فلخير المجموعة والشعب وإن أدي ذلك إلى تقليص نفوذ المهيمين والكبار وآخر من يحق له أن يشكو من ذلك هي المجموعة الشعبية.

والنوع الثاني من الاعتراضات هي ما يصدر عن نقاد محايدين ويتعلق بسلامة الموقف.

يتساءل بعض هؤلاء كيف يستطيع المفكر العربي أن يجمع في موقفه بين النفاضة، وأن يأخذ من هنا وهناك كما لو كانت المبادئ ثماراً ناضجة لا ينقصها إلا القطف، بل وكيف يمكن أن نصل إلى تحقيق ذلك ودون بعضه خرط الفتاد كما يقولون.

إن كل مذهب من هذه المذاهب كل "لا يتجزأ.. وإما أن يكون المرء ماركسياً أحمر أو رأسمالياً" عداً ونقداً" أو إسلامياً مؤمناً إيمان العجائز، وإما أن لا يكون - على الإطلاق - ماركسياً أو رأسمالياً أو إسلامياً.

نعم أن يكون الإنسان على طول الخط، وبالمعنى الذي يفهمه الناس ماركسياً، أو رأسمالياً أمر مريح.

ولكن ليس معنى هذا أن هذا هو الحق الأمتل إنه الحق البسيط المريح المألوف.

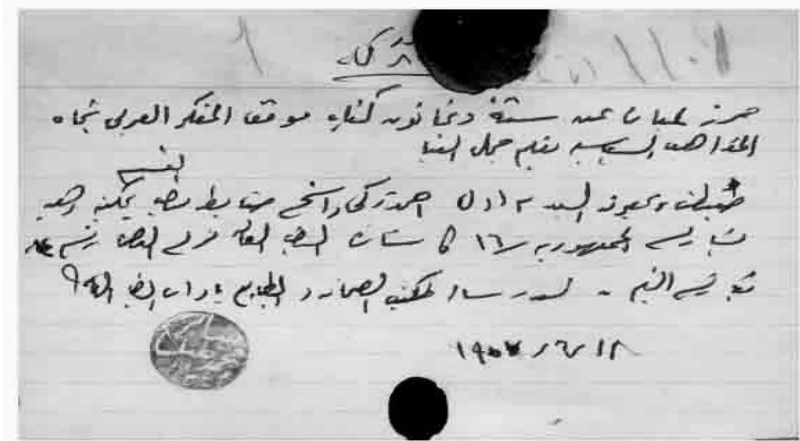
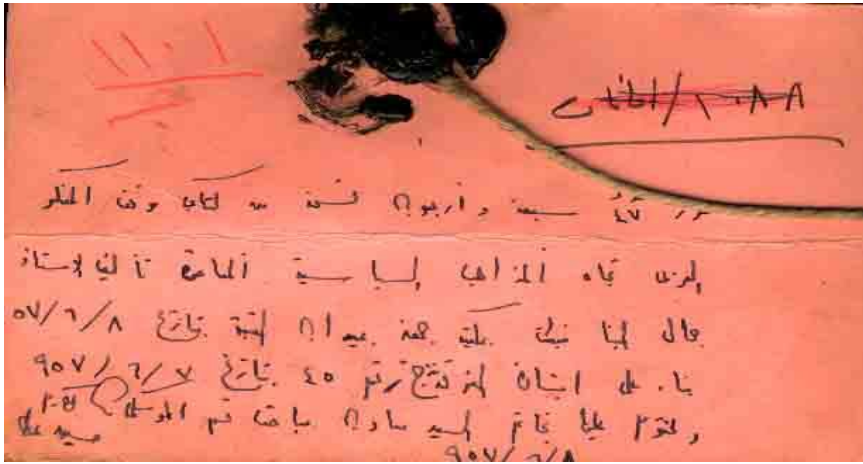
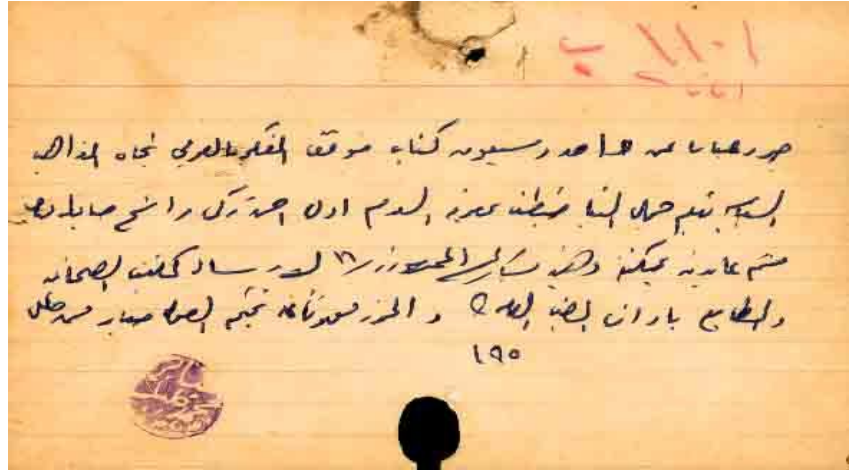
ولو أردنا أن نتجه اتجاهاً إنشائياً لما وجدنا من طبيعة المذهب ما يمنعنا من ذلك فنحن لا نأخذ في ناحية واحدة من هذا المذهب وذاك، أي أننا في الناحية الاقتصادية مثلاً لا نحاول أن نجتمع بين الرأسمالية أو الماركسية فإن مثل هذا قد يكون جمعاً بين متناقضات لا يسفر إلا عن تميع، ولكننا نفرّد كل ناحية بمذهب، بحيث لا يكون هناك تعارض بين الاقتصاد الماركسي والسياسة الديمقراطية والالتزام المعنوي الإسلامي، فكلها ما تتواءم في النهاية، والنشور الخفيف بينهما مما يسهل صقله وتسويته.

إن العمل الاجتماعي مركب ومعقد، وليس بسيطاً أو سهلاً وما بين النظرية والتنفيذ مرحلة واسعة تخضع فيها الخطط المرسومة والنظريات الموضوعية لضرورات التطبيق. والتطبيق هنا غيره هناك وفي الوقت الحاضر غيره في الوقت الماضي، والأمر ليس أمر نظرية فحسب فإما أن يؤخذ وإما أن يترك.

وليس ما يمنعنا من أن يكون منهجنا الاقتصادي اشتراكياً.. ونظامنا السياسي ديمقراطياً والتزامنا المعنوي إسلامياً وعدم الوجود السابق لمثل هذا لا ينفي إمكانه.

سخر الساخرون من فكرة "القومية العربية" طويلاً، ورأي بعضهم أنها فكرة رجعية، أو أنها دسياسة سياسية.. الخ. حتى تبني الرئيس جمال عبد الناصر الفكرة وجعلها حجر الزاوية في سياسته الخارجية وأعطاه

الطابع التحرري، فارتفعت الأصوات بالاستحسان والتحييد، ونحن واثقون أن الموقف الذي تخيرناه للمفكر العربي إذا رزق القوة الشعبية التي تؤمن به وتنفذه فستثبت الأيام جدارته وصوابه وتميزه^(١).
حقيقة إن هذه الفكرة الجديدة في حاجة إلى الصهر حتى تمتزج أجزاؤها وتتلاءم ويستبعد منها الفضول وينقي من الشوائب وتلك هي مهمة المفكر العربي.



نماذج من الأحرار التي حرز بها كتاب "موقف المفكر العربي"
ويظهر فيها الشمع الأحمر والأختام والتواريخ

(١) من الواضح أننا لم نوفق في هذه النبوءة، لا بالنسبة لقومية عبد الناصر، ولا بالنسبة لتصورنا عن الموقف الأمثل تجاه المذاهب السياسية المعاصرة، وما يشفع للكاتب أنه كتب هذا الكلام منذ خمسين عاماً، وإن معظمه كان - وظل صحيحاً - ولم يختلف إلا في مجالات محدودة، هذه إحداها.

(٢)

أُخْتِ الصَّلَاةُ الْمَهْجُورَةُ

"الزكاة" (*)

كلنا نحفظ الحديث الجامع عن أركان الإسلام "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً".

في هذا الحديث نجد ترتيب الأركان كالآتي:

(١) شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

(٢) إقامة الصلاة.

(٣) إيتاء الزكاة.

(٤) صوم رمضان.

(٥) حج البيت (لمن استطاع إليه سبيلاً).

ولم يأت هذا الترتيب اعتباطاً بل انه يمثل بكل دقة أهمية كل ركن ودرجة أولويته بين أركان الإسلام.

— ١ —

مدلول الشهادتين (الإيمان)

الشهادتان هما أول هذه الأركان، ليس فحسب لأنهما "بوابة الإسلام" التي يكون على كل مسلم أن يجتازها قبل أن يدخل حظيرة الإسلام ويُعد مسلماً، ولكن أهم من هذا أنهما يرمزان إلى موضوع الإيمان الإسلامي فالمسلم هو الذي يؤمن بالله وبرسوله وهذا الإيمان هو محور الرحي في العقائد والأديان قاطبة.

والقسم الأول من الشهادة (أشهد أن اله إلا الله).

هو الذي يبين حكمة وجود الإنسان في هذا الكون، أن المسلم بإيمانه بالله يعرف أنه لم يخلق سدي أو يوجد عبثاً أو يظهر إلى الوجود نتيجة الصدفة الشرود أو التطور العشوائي، لا القصدي، عبر ملايين السنين من "هنة" بدائية حية إلى خلية أحادية ثم تتطور عبر ملايين أخرى من السنين لتكون في النهاية الإنسان كما يزعم دعاة التطور.

إن الإيمان بالله يعلم المسلم أن الإنسان، وأن بدأ من علقة دقيقة في ماء مهين فإن إرادة الله كانت وراءه، وروحه هي التي نفخت الحياة في هذه العلقة، أنه هو الذي خلقه فسواه فعده ثم في أحسن تكوين كونه.

إن هذا الإيمان لا يدعى أن الله خلق الإنسان على صورته أو أن الإنسان هو ابن الله، فهذا كله يربط الإنسان بالله في صورة عضوية هي أثر من آثار الإيمان الساذج القديم قبل أن يصل الإنسان إلى التجريد والموضوعية والإطلاق.

(*) صدرت هذه الرسالة كإحدى الرسائل الثقافية للاتحاد الإسلامي الدولي للعمل في سنة ١٩٨٢م، وقد تطورت النظرة إليها في "الإحياء الإسلامي" عما كانت عليه في الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل منذ ربع قرن.

هذا التصور يوجد "الإله الشخصي" سواء كان بالنسبة لله أو النبي وهو لا يبتعد عن الوثنية القديمة أو الميثولوجيا اليونانية التي يكون فيها بعض الناس آلهة وبعض الآلهة ناساً.

في الوقت نفسه، فإن الإسلام يستبعد نشأة الإنسان عن طريق التطور العشوائي بحدوث عدد لا حد له من الصدف والملازمات الافتراضية تؤدي في النهاية إلى الافتراضية والملازمات ولكنها تعجز عن أن تفسر لنا سر الحياة.

التصور الإسلامي وحده يعرض لنا إلهاً خالقاً كاملاً صاحب الإرادة العليا في هذا الكون، هذا الإله العظيم رمز المثل العليا والقيم والقوى والحياة يضع قوانين وسنناً للتطور وبمقتضى هذه القوانين التي أرادها الله ظهر الإنسان وأخذ صورته التطورية التي يعرفها علماء الأحياء ولكن من ورائها إرادة الله، وبدونها لم يكن ليظهر الإنسان كما هو بكماله وجماله، قوته وضعفه، حكمته وشهوته.

وحكمة وجود الإنسان بهذه الصورة وإيجاد المغريات والشهوات من ناحية والعقل والحكمة من ناحية هي أن يدخل الإنسان في معركة يثبت فيها غلبة العقل على الهوى والإرادة على الشهوة لتكون كلمة الله هي العليا، وبهذه المعركة التي يكمل الانتصار فيها برضوان الله وبخلود في جنة يكون لحياة الإنسان على الأرض مغزى وهدف.

والإيمان الإسلامي يربط ما بين خلق الكون وخلق الإنسان ويؤكد أن عالم الكون كعالم الإنسان وأن الله تعالى خلقه لحكمة وسيره بسنن وإذا كان سان فرانسيس الأريزي قد رأى بشفافية خاصة خارقة في الشمس والنجوم والماء والنار والطيور والأشجار أخوات له يوجه لها الخطاب فإن كل مسلم يؤمن أنه ما دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم مثله وأن كل ما في السماوات والأرض والطيور صافات يصلي ويسبح بحمد الله "كل قد علم صلاته وتسبيحه"، وهذه النظرة الحية الشمولية تجمع ما بين الإنسان والكون في منظومة هائلة تسير كلها إلى مستقر لها طبقاً للقوانين التي وضعها الله من شمس وأقمار وجبال وأهوار وحيوان وأشجار مسخرة لخدمة الإنسان، والإنسان يفيد بعقله وفكره وضميره من هذا كله ليظفر برضوان الله ويعود في النهاية إلى "الجنة" التي وعداها الله للمتقين.

في مثل هذا التصور لا يمكن للمسلم أن يحس بغربة أو يفكر في انتحار لأن روابط الانتماء والتزامات الغائية تمسكه من كل ناحية وتحول بينه وبين السقوط في مهاوي اليأس، بل هي تزوده بالأمل وتدفعه للعمل وتجعل من الحياة الدنيا كلها مقدمة لحياة أخرى هي الحياة الحققة الخالدة.

هذا هو مدلول الإيمان بالله كما يعرضه لنا القرآن الكريم، وما يميزه عن الإيمان بالله في أديان أخرى، ولو فهم المسلمون القرآن لكان يجب أن يكونوا "هواة" جيولوجيا وفلك وطبيعة وحيوان واجتماع لأن هذه هي الموضوعات التي تملأ دفتي المصحف، وكل الفرق بين العالم المسلم والعالم "الدنيوي" أن العالم المسلم يدخل هذه المجالات بوعي وعاطفة وتقوى ويستشعر وهو ينشد الحقيقة العظيمة والعبرة والحكمة ويهتف "سبحانك ما خلقت هذا باطلاً"، وتمنعه أخلاقيات الإسلام وتوجيهاته من أن يعربد في الطبيعة ومواردها أو يعيث فيها فساداً وتلويناً.

والإيمان بالله يأتي في الشهادة بصيغة الحصر والتوحيد "لا إله إلا الله"، وبذلك يستبعد كل صور الشرك والتجسيد التي كانت البشرية تتخبط فيها، وما يستتبعه هذا التجسيد والشرك من سدنة وكهنة، ولاهوت، ويقدم صورة بسيطة مجردة لله تتقبلها العامة بفطرتها السليمة ولا تستطيع الخاصة أن ترفضها بعقليتها المتشككة.

هذا عن القسم الأول من الشهادتين "أشهد أن لا إله إلا الله"، أما القسم الثاني "أشهد أن محمداً رسول الله" فهو يمثل القسم الثاني من الإيمان الإسلامي وهو ما يتعلق بالفرد والنظام والمجتمع، أن الإيمان بالله يمثل كما رأينا الإيمان بالقيم والمثل والمعنويات والمجردات ويتصل بالوجود الإنساني والكون لينتهي إلى الله أما الإيمان بالرسول فهو رمز إلى الإنسان كفرد في المجتمع ويعالج قضايا "العلاقات" والنظم الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية أن الإيمان بالله يمثل "النظرية" والإيمان بالرسول يمثل "التطبيق"، إذ أن الإيمان بالرسول يتضمن ضرورة الإيمان بسلوك الرسول وما دعا إليه أو وضعه بالفعل من نظم وسياسات، فإنما أرسل الله الرسل ليطبقوا عملياً رسالة الأديان.

وفي الإيمان بالرسول إشارة إلى عجز الإنسان عن التوصل إلى الحقيقة المطلقة، والهداية الملزمة ما لم يرسل الله رسلاً أو إذا غلبت على من أرسل إليهم هؤلاء الرسل الأثرة والأنانية والشهوات وما تهوى الأنفس، وقد نجد في المجتمعات الرأسمالية والشيوعية الحديثة التي استبعدت الأديان ورفضت هدايتها وجعلت إلهها هواها مصداقاً لذلك فقد توفّر لها كل شيء، ومع هذا فإنها تقف على حافة الانتحار النووي.

من هذا نرى أن الشهادتين هما أهم وأول شيء في الإسلام فمن لم يؤمن بهما فليس مسلماً، ومن آمن بأن لا إله إلا الله دون أن يؤمن بأن محمداً رسول الله، فإنه وإن حل مشكلة الوجود ونفى عن نفسه ما يحسه الإنسان المعاصر من قطيعة وغربة، فإنه يحرم نفسه من "النظام الإسلامي" الذي تمثله رسالة محمد على وجه التعيين، وبالتالي لا يُعد مسلماً وإنما يُعد موحداً، وأما أن يؤمن أحد برسالة محمد دون أن يؤمن بالله فهو أمر مرفوض ولا يمكن مناقشته أصلاً لأن رسالة محمد جزء من الإيمان بالله، وقد نجد صوراً جزئية في الإيمان بمحمد كبطل لدى الذين ينظرون إلى ظاهر الأمر أو ممن يعجبون بالنجاح والبطولة أو من يتعصبون للعرب خاصة.

والمحصلة أن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تبلور الإيمان الإسلامي وجود الإنسان ككائن يعيش أجراء الكون وقواه وكفرد يحيا في مجتمع له قضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

— ٢ —

مدلول الصلاة (الضمير وإصلاح الفرد)

بعد هذا المدخل العام والخط العريض نجد ركناً يوجب "عملاً" بعد أن أوجد الخط الأول "الإيمان" والإيمان الحق يتبعه العمل ولكن العمل عام ولا بد عند تعيين الأركان تحديد الأعمال التي تعد أركاناً ومن هنا كان الركن الثاني بعد الشهادتين هو إقامة الصلاة.

والصلاة في الإسلام - كما هي في كل الأديان - الطريقة الخاصة لتثبيت الضمير وتهذيب النفس.

وكل الأديان تعني أولاً وقبل كل شيء بإصلاح الفرد وتهذيب القلب وتنقية الضمير وأي دين لا يعني بهذا لا يكون ديناً لأن إصلاح الأفراد عن طريق القلوب والضمائر، وتهذيب النفوس بالعبادات التي تعد الصلاة قاعدتها، هو ما يميز الأديان عن النظم الأخرى ولهذا فلا عجب إذا اعتبرت الصلاة بهذا المعنى - فيصلاً بين الإسلام والكفر فكل واحد يرفض تهذيب النفس طبقاً للصورة التي وضعها الإسلام، أو أن يخضع قلبه وهواه لما جاء به الإسلام - لا يعد مسلماً حقاً أو على الأقل يخل إخلالاً جسيماً بما ينبغي على المسلم.

وليست هذه الرسالة عن الصلاة حتى نسهب في الحديث عنها، كما أن الصلاة والحمد لله قد ظفرت من المسلمين بالعناية وعالجتها كتب الفقه والحديث معالجات تفصيلية دقيقة، وأملت بكل حركة وسكنه فيها بدءاً

من النية والوضوء والسعي إلى المساجد حتى انتهاء الصلاة والانتظار بعدها وأفاضوا وأسهبوا بحيث أصبح "كتاب الصلاة" في موسوعات الفقه والحديث عدة مجلدات.

وما نريد أن نشير إليه هنا هو أن قداسة الصلاة التي لا شك فيها والتي قد جعلها فيصلاً بين الإسلام والجاهلية أو جعلها بتعبير النبي ﷺ (العهد بيننا وبينهم) وأن من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين، نقول أن هذه القداسة كلها لا تقتضي أن يكون للدولة أو لأي سلطة دنيوية دخل فيها أو إلزام للناس بها، فهذا مما لم يأت به قرآن أو جرت به سنة على كثرة ما جاء في القرآن من حض على الصلاة وما تضمنته الأحاديث من وعيد لتاركها.

إن هذه الفكرة - الزج بالحكومة في هذا المجال - هي من تفرعات الفقهاء التي بنوا عليها أحكامهم وجعلتهم يختلفون حول قتال "تاركي السنة المؤكدة كركعتي الفجر" فضلاً عن الصلاة المكتوبة المفروضة وهي اجتهادات أدي إليها فهمهم الخاص والمناخ الذي كانوا يعيشون فيه ومن الخطأ الفاحش أن يأخذ به فقهاء اليوم لأن حد الإلزام هو صريح القرآن أو ثابت السنة.

والصلاة قربة إلى الله وهو عمل يؤديه الإنسان امتثالاً لله واعترافاً بفضله والتماساً لهداه وشكراً على نعمته، ومثل هذه كلها تنهدم وتندثر، بل لا يمكن أن تتصور إذا أدت بحكم قانون العقوبات وسيف الإكراه.

وإذا جاز إكراه الناس على الصلاة فقد يتطلب الأمر إيجاد بوليس خاص يمكن أن نسميه (بوليس الصلاة) تكون مهمته سوق الناس إلى المساجد ومثل هذا البوليس أوجده (كالفن) في جنيف منذ خمسة قرون عندما كان المناخ يسمح بهذا، ولكن الصلاة في المسيحية مرة واحدة كل أسبوع وهي في الإسلام خمس مرات في اليوم.

ومن أغرب ما قرأنا أخيراً ويصور الإصرار على الخط "التقليدي" الذي ألزم علماءنا أنفسهم به دون أن يلزمهم الله ذلك بل ندد القرآن بالذين يتبعون آباءهم وأجدادهم ما ذكره داعية إسلامي كبير من أن الآية (لا إكراه في الدين) يجب "أن لا يستشهد بها في غير موضعه فحمل المسلم على صلاة أو حكم من أحكام الدين لا يدخل في دائرة الإكراه وإنما يدخل في دائرة الوفاء بما التزم به هذا الشخص بحريته حين اختار الإسلام ديناً"، وهي دعوى لا تستقيم من عدة وجوه، أولاً: لأن نص الآية عام ومن الاعتساف قصره والتحيف عليه بما يذهب بمعنى الآية، وثانياً: لأن الداعية نفسه استبعد في حديثه الإكراه في "منطقة الاعتقاد" ولا ريب أن الصلاة تدخل في صميم دائرة الاعتقاد، وثالثاً: لأن هذا يخالف طبائع الأشياء ويوجد من الشرور أضعاف ما يظن أنه من الخير والإسلام يستبعد هذا ورابعاً: لأن من الخطأ أن يفرض الفقهاء أحكاماً في هذا المجال لا ينص عليها نصاً صريحاً قرآن محكم أو سنة مؤكدة وليس في هذين ما يوجب الإكراه على الصلاة.

وقد تعرضنا لهذه النقطة عندما احتدم الجدل على صفحات الأهرام في فبراير ومارس سنة ١٩٨١م حول تمسك بعض الشباب بما أورده ابن تيمية في كتابه السياسة الشرعية عن اختلاف حول قتال تاركي السنة المؤكدة وما ذكره الفقهاء من قتل تاركي الصلاة، وقلنا أن المعادلة التي أجراها الإسلام ما بين وازع القرآن ووازع السلطان أي الدعوة والحكمة والموعظة الحسنة من ناحية والتطبيق القسري بقوة الدولة من ناحية أخرى هي كالاتي:

(أ) كل ما يتعلق بالعقائد (وتدخل فيها العبادات من صلاة أو صيام) يقوم على القلب والضمير والاعتناع النفسي والإيمان وبالتالي فإن الطريق إليه هو الدعوة والإقناع والتعليم ولا يجوز البتة أن تتدخل الدولة أو تستخدم وسائل القمع فهذا يفسدها أصلاً ويذهب بأحد أركانها وهو (النية).

(ب) كل ما يتعلق بالمعاملات من اقتصاد أو عمل أو سياسة، فإنه يقوم على مصلحة الأمة وليس إرادة الفرد وبالتالي فإنه يخضع لوازع السلطان في إطار الحدود والخطوط العريضة التي وضعها الإسلام مثل فرض الزكاة وتحريم الربا وإيجاب الشورى فالدولة الإسلامية تتدخل بالقوة في سبيل الزكاة ولكنها لا تتدخل بالقوة في سبيل الصلاة.

(ح) يتوسط هذين المجالين موضوعات لا يمكن أن تدخل في واحد دون الآخر مثل زى المرأة ومدى حرمتها والفنون فهذه ينظمها العرف الإسلامي بمعنى أنها لا تترك للإدارة الفردية دون أي تدخل كما لا يمكن أن تتدخل فيها الدولة بسطوة العقوبة.

وهذه الخطوط العريضة مستلهمة من القرآن والسنة والمقاصد الرئيسية للشريعة والأصول العامة لها وهو ما يجب أن نعود إليه بصرف النظر عن اجتهادات الأئمة التي عادة ما توضع في ظل ملابسات أو ظروف معينة لا تتماشى بالضرورة مع ملابسات وظروف أخرى".

— ٣ —

مدلول الزكاة (المدخل للتكامل الاقتصادي)

والزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام

والزكاة تأتي دائما بعد الصلاة أو تقترب منها وهذا واضح في الحديث ومن الآيات العديدة التي حث فيها القرآن على الصلاة.

ومعظم المسلمين يعرفون هذا، لأن أقلهم لا يخلو من أن يحفظ آية أو آيتين يتضمنان القرن ما بين "إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة"، والأمر الذي نريد أن نثبت هنا هو أنه لا يكاد يكون في القرآن حث على الصلاة دون قرنها بالزكاة أو الإنفاق.

وأقرأ إذا شئت:

- "الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ" (البقرة ٣)
- "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّكَّاعِينَ" (البقرة ٤٣)
- "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ" (البقرة ٨٣)
- "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ" (البقرة ١١٠).
- "وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ" (البقرة ١٧٧)
- "وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ" (البقرة ٢٧٧)
- "كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ" (النساء ٧٧).
- "وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ" (النساء ١٦٢).
- "لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي" (المائدة ١٢).
- "الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ" (المائدة ٥٥)
- "الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ" (الأنفال ٨).
- "فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ" (التوبة ١١).
- "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ" (التوبة ١٨).
- "وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" (التوبة ٧١).

- "وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ" (الرعد ٢٢).
- "فَلِ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ" (إبراهيم ٣١).
- "وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا" (مريم ٣١).
- "وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا" (مريم ٥٥).
- "وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَةَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ" (الأنبياء ٧٣).
- "وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" (الحج ٣٥).
- "الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ" (الحج ٤١).
- "لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ" (النور ٣٧).
- "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ" (النور ٥٦).
- "الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ" (النمل ٣).
- "الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ" (لقمان ٤).
- "وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" (الأحزاب ٣٣).
- "وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً" (فاطر ٢٩).
- " وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" (الشورى ٣٨).
- "فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ" (المجادلة ١٣).
- "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا" (المزمل ٢٠).
- "وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ" (البينة ٥).

من هذا العرض نجد أن القرآن يقرن الزكاة بالصلاة كأن الصلاة والزكاة توأمتين ولدتا من بويضة واحدة ينعكس على الواحدة ما يحدث للأخرى وفي الآيات القليلة التي لم تذكر صراحة حل محلها الإنفاق وهو ما يعطي معنى الزكاة.

وإنما قرن القرآن الصلاة بالزكاة لأن الأولى خاصة بالفرد والثانية خاصة بالمجتمع ونظرية الإسلام تقوم على العناية بالفرد والمجتمع معا وعدم إهمال أحدهما، ولو لحساب الآخر فلن يقوم مجتمع قوى على فرد ضعيف ولن يوجد الفرد القوي في مجتمع ضعيف لأن كل منهما يؤثر على الآخر، ومن هنا استجاز أبو بكر بفهمه العميق للإسلام قتال المانعين الزكاة على أساس أنهم يفرقون بين الصلاة والزكاة وأن الزكاة حق المال "كما قال أو حق المجتمع كما يمكن أن نقول"، والنكوص عنها إخلال خطير بالمجتمع يستوجب الإصلاح ولو بالإكراه.

وللزكاة اسم أعم هو (الصدقات) وقد كان بهذا الاسم الأخير أن عدد القرآن مصارف الزكاة الثمانية على وجه الحصر، وورد الحث على الصدقة في مناسبات عديدة تبرز أهميتها ومنزلتها:

- "لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ" (النساء: ١١٤).
- "خُدْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ" (التوبة: ١٠٣).
- "أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ" (التوبة: ١٠٤).
- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأُدَى" (البقرة: ٢٦٤).
- "يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَّاءَ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ" (البقرة: ٢٧٦).

وكما أن اسم الصدقة يماثل الزكاة في المعنى فإنه أيضاً يماثلها في المبنى، فالزكاة من الزكاء بمعنى النماء، والصدقة من الصدقة ثمرة لهذه الصفة النبيلة الصدق والتصديق بالرسالة.

هذه هي منزلة الزكاة في القرآن، أما الحديث فقد أوضح أهميتها حديث (بني الإسلام على خمس) الذي وضعها بعد الصلاة مباشرة، كما يصورها حديث معاذ عندما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن فقال (إنك تأتي قومًا أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإني رسول الله، فإن هم أطاعوك بذلك فأعلمهم أن الله عز وجل افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإذا أطاعوك بذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله عز وجل حجاب).

وبعد القرآن والحديث تأتي أعمال الصحابة وتصوراتهم للزكاة وهنا تبرز حقيقة صادقة فبعد وفاة النبي ﷺ رفضت قبائل من العرب دفع الزكاة وكان موقف الخليفة الأول الذي آلت إليه الأمور بعد النبي ﷺ حاسمًا، لقد أعلن عليهم الحرب وعندما قيل له كيف تقاوم هؤلاء القوم وهم يصلون قال والله لا قاتلن قوما ارتدوا عن الزكاة.

إذا كانت الزكاة بمقتضى القرآن والحديث هي الركن الثالث للإسلام وإذا كانت تأتي مقترنة بالأصل الثاني المقدس الصلاة وتعد الأخت التوأم لها وإذا كان التخلص منها أو الرفض لها يعني الحرب ويعد نوعاً من الردة.

فأين نضع الزكاة اليوم..؟

أن الزكاة تكاد تكون مجهولة مهجورة ضائعة مفقودة.

حتى في الكتابات التي لا تكلف شيئاً حرمت حقها المشروع والواجب من الاهتمام.

الكتابات عن الصلاة لا حد لها، وقد أضفت هذه الكتابات على كل حركة وسكنة وجزئية صغيرة قداسة وأدى الاختلاف في قراءة الفاتحة أو "بسم الله الرحمن الرحيم" أو وضع اليدين إلى مجالات ومنازعات وأن لا يصلي فريق من المسلمين وراء فريق آخر.

وفي الكتابات المعاصرة نجد مؤلفات عديدة عن الصلاة وعن التصوف وعن الحديث، بل وحتى عن الجهاد الذي أنسى طويلاً. ولكننا لا نجد إلا القليل عن الزكاة، الأمر الذي دفع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لرصد جائزة كبيرة لاستحثاث الكتابة عن هذا الموضوع ولم يظهر إلا أخيراً فحسب خمسة أو ستة كتب عن الزكاة.

وقد يتضح إهمال الزكاة والجهل بمنزلتها عند مقارنتها بالصيام والحج.

والصيام هو الركن الرابع وهو مقصور على شهر رمضان في العام والحج هو الركن الخامس، وأداؤه لمرة واحدة يجزئ عنه كما إنما يكون فرضاً بالنسبة لمن استطاع سبيلاً، وما أقلهم في العالم الإسلامي الفقير الذي تعيش الملايين فيه على الكفاف ويموت قسم كبير من أطفاله جوعاً أو لسوء التغذية.

وصوم رمضان فريضة تكاد تكون شخصية ولا ضابط لها إلا الضمير وهو لا يأتي إلا مرة واحدة في العام وقد أعفى منه المسافر والمريض كما منح كل من يشق عليه الصيام رخصة الإفطار لقاء إطعام مسكين.

وفي الحديث الذي أورده عن معاذ إلى اليمن لاحظ بعض المحدثين أنه خلا من الأمر بصيام رمضان وحج البيت واقتصر على الشهادتين والصلاة والزكاة "وأجاب الكرمانى بأن اهتمام الشارع بالصلاة والزكاة أكثر ولهذا كرر في القرآن ومن ثم لم يذكر الصوم والحج في هذا الحديث مع أنهما من أركان الإسلام وقيل إذا كان الكلام في بيان الأركان لم يخل الشارع منه بشيء كحديث بني الإسلام على خمس وإذا كان الدعاء

إلى الإسلام اكتفى بالأركان الثلاثة الشهادة والصلاة والزكاة ولو كان بعد وجود فرض الحج والصوم لقوله تعالى: "فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ...."، مع أن نزولها بعد فرض الصوم والحج^(١).

مع هذا، فما أكثر الضجة والهيلمان والاهتمام والاحتفال بالصوم والحج وما أكثر الجهل والتنكر والإهمال للزكاة.

كثير من الذين لا يصلون يصومون، وكثير من الذين لا يصومون يحجون وأنهم يجعلون الحج تكفيراً عن الذنوب وختاماً لعام من المآثم والمعاصي ثم هناك "هواة" الحج الذين يحجون مراراً وتكراراً ويذهبون "عمرة" كل فرصة.

أما الزكاة فإنها مهجورة منسية..

عذبت لمعشر صلوا وصاموا ظواهر خشبية وتقى كذابا
وتلقاهم حيال المال صما إذا داعى الزكاة بهم أهابا
أكل في كساب الله إلا زكاة المال ليست فيه بابا^(٢)

قد لا يسمح مجال هذا الموجز بإيضاح السبب الذي من أجله عوقبت الزكاة بهذا الإهمال والتجاهل، ولكن قد يكفي الإشارة إلى أن هذا في إجماله يعود إلى عدم فهم المسلمين لحقيقة دينهم وأنهم نظروا طوال الجزء الأعظم من تاريخهم إلى الإسلام كدين عبادة بعد أن تقلصت الخلافة وتراخى الأخذ بالنظم الإسلامية في مجال الاقتصاد والتشريع ونما الفهم العبادي على حساب الجهل بالإسلام.

فقد أراد الله تعالى للإسلام أن يستهدف غاية هي الظفر برضوان الله وتحقيق إرادته ووضع لهذه الغاية وسائل ونظماً في كافة مجالات الحياة من شأنها أن تسلم إلى هذه الغاية وجعل العبادات إحدى هذه الوسائل ولكن المسلمين أهملوا كل الوسائل خلاف العبادات واعتبروا العبادات غاية في حد ذاتها وعزز هذا الفهم أن لكل منها كياناً خاصاً يتمثل في أوقات وصفات خاصة للقيام بها وأدى لهذا لأن تصبح العبادات طقوساً تؤدي لذاتها وأنسيت النظم التي وضعها الإسلام في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتي كان من شأنها أن توجد المناخ الصالح لأهداف الإسلام.

وسلك المسلمون مسلك غيرهم كما قال النبي ﷺ: "لنتبعن سنن من قبلكم شبراً شبراً وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قيل يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن؟"، فالإسلام لا يريد وسطاء بين الله والناس لا تتصور ديناً دون "رجال دين"، وهكذا نشأ في الإسلام رجال دين، والإسلام يجعل مسجده الأرض كلها وإذا بنا مسجداً بناه بصورة ساذجة ولأغراض العلم والعبادة وكمركز اجتماع للمسلمين ولكن الناس تتصور المعابد قصوراً ممردة موشاة بالذهب ومزينة بالفضة، والإسلام يرفض المقابر العالية أو أن تبنى في المساجد ولكن مألوف الناس غلب تصور الإسلام فأصبحت المساجد تسمى بالذين أقيمت هذه المساجد حول قبورهم.

والإسلام يتميز على الأديان كلها بأنه يضع نظماً في الاقتصاد فيحرم الربا والاكنتاز وكل أنواع المعاملات المشبوهة وصور الاستغلال وهو يقيم الحكم على الشورى ويستنكر وراثته الملك، بل الملك أصلاً ويحرم الظلم والطغيان وهو في النظام الاجتماعي يحث على العلم والتعلم ويدعو إلى المساواة ولا يعرف فضلاً

(١) الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ج ٨، ص ١٩٠.

(٢) هذا البيت الأخير ليس من القصيدة الأولى فالأبيات الأولى من قصيدة "ذكرى المولد" والبيت الأخير من قصيدة "بعد المنفى" وهما معاً لمير الشعراء أحمد شوقي .

لأبيض على أسود إلا بالتقوى، ويعطي المرأة شخصيتها وحقوقها ويسوى بينها وبين الرجال باستثناء درجة واحدة.

هذا هو ما يميز الإسلام عن الأديان الأخرى التي لم تتدخل في المجال السياسي - الاقتصادي، ولكن الناس تنظر دائماً إلى الدين كما ينظر من كان قبلهم أي عندما كان الدين عبادة فحسب ومن ثم جاء التمسك والتشبث بالعبادات والتراخي والتساهل فيما هو غير ذلك.

وقد بدأ هذا التحلل بسرعة وقبل أن ينتهي النصف الأول من القرن الهجري كانت الخلافة قد تحولت إلى ملك عضوض ولعن على بن أبي طالب على المنابر وقتل الحسين وضربت الكعبة بالمنجنيق واستبيحت المدينة.

وعندما سقطت الخلافة العباسية كان الزمن قد أتم دورة كاملة فجاء التتار كما جاء المسلمون الفاتحون الأول خفافاً على جيادهم يعيشون على لقيمت ولا يحملون سوى سلاحهم ليجدوا المسلمين بالصفة التي كان عليها الفرس أيام القادسية مثقلين بالأموال والعتاد والذهب والفضة فقتلوا عليهم كما قضى المسلمون على الفرس باستثناء أن الفاتحين المسلمين كانت لديهم عفة الإسلام وأما التتار فتجردوا منها.

وحدث في المجال الاقتصادي والاجتماعي ما حدث في المجال السياسي فتراكمت الثروات لدى فريق وتفاقت البأساء لدى فريق أخري وعاد الربا في شكل الفائدة وأصبح أمراً مقرراً تستعمله في معاملاتها حتى وزارة الأوقاف، وأهملت الزكاة لانعدام شعور الحكومات الإسلامية بالمسؤوليات التي يوجبها عليها الإسلام تجاه الجماهير وضرورة سد حاجات المحتاجين.

وبخست المرأة حقها وحبست بين أربعة جدران وحرمت حقها من العلم والاختيار وعادت بدعوى العرض دعاوى أقرب إلى الجاهلية منها إلى الإسلام وسادت الأمية والجهالة وفشت أخلاق التحلل والنفاق.

كل هذا والمساجد عامرة بالمصلين والأذان يرتفع خمس مرات في اليوم، ويأتي رمضان "بزفة" من المظاهرة فإذا حل موسم الحج أقيمت الاحتفالات بدءاً من "المحمل" حتى عودة الحجاج.

والخلاصة أن الفهم التقليدي لدى الجماهير منذ أقدم العصور عن الدين فرض نفسه على الإسلام وطمس عناصر الإبداع والتجديد التي جاء بها الإسلام وجعل من الإسلام ديناً كمألف الأديان عبادة وطقوس ورجال دين ومساجد، وحتى في هذا الجانب العبادي فإن الفهم التقليدي عن العبادة فرض نفسه على فهم الإسلام لها فشوهها هي الأخرى وهكذا خسر الإسلام مقوماته الاقتصادية والاجتماعية السياسية ولم يكسب تهذيب العبادة، وتحقق تماماً ما تنبأ به الرسول عن إتباع المسلمين لسنن من كان قبلهم، وعاد الإسلام غريباً كما بدأ.

وبالنسبة للزكاة بالذات فقد كان هناك عوامل إضافية أدت إلى التراخي في القيام بها ثم إهمالها فالزكاة تعني التنازل عن جزء من مال الإنسان وهو أمر قلما يسمح به شح النفوس المطبوع ولعل البعض قد تصور أنه عندما يقدم صدقة أو زكاة الفطر فإن ذلك بطريقة ما يجزي عن الزكاة الأصلية، وأعطى إهمال الحكومات لها وعدم الأخذ بها الأفراد حجة في إهمالها لأن الزكاة لا يمكن أن تحقق أهدافها إلا بصورة من صور التنظيم العام، وهو أمر تجاهلته الدولة، فاعتقد الناس أن الزكاة قد سقطت عنهم لأن مسؤوليتهم إنما تقوم عندما تطالبهم الدولة فيرفضون، ولكن الدولة لم تطالبهم أصلاً، فلا مسؤولية عليهم.

نظرية الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل عن الزكاة

وقد يسأل سائل "لماذا يهتم الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل بالزكاة..؟"

الرد واضح، فالاتحاد الإسلامي الدولي للعمل كهيئة إسلامية تعني بكل ما يخص الإسلام، وهو كهيئة "عمل" يعني بشكل خاص بالجانب الاقتصادي والعملي وبوجه أخص ما يتعلق بالعاملين ونظم العمل مباشرة، والزكاة في حقيقتها هي نوع من التأمين الاجتماعي أو الضمان الاجتماعي الذي يدخل في صميم قضايا العمل.

وقد لا تكون الزكاة هي أهم أركان النظام الاقتصادي الإسلامي وقد يماثلها في الأهمية أو يزيد عليها نظرة الإسلام إلى الملكية كاستخلاف وما ينطوي عليه هذا من التزام، أو تحريم الربا وإيجاب الإنفاق أو تقرير التكافل الاجتماعي الاقتصادي.

ولكن تظل الزكاة مع هذا على وجه التخصيص ثالث أركان السلام الخمسة ويوحى هذا أنها تمثل البعد الاقتصادي بأسره للإسلام وأنها في حد ذاتها تمثل الحد الأدنى الذي لا يجوز التذني بعده.

ومنذ ألف وأربعمائة سنة وضع الإسلام أول وأفضل نظام للتأمين يقوم على أسس تفضل أحدث نظم التأمين الاجتماعي التي لم تتوصل إليها البشرية إلا في الفترة الأخيرة وبفضل جهود مريرة ومتواصلة من الدعاة الإنسانيين والنقابات العمالية والمصلحين الاجتماعيين.

وتبرز أفضلية الزكاة على بقية نظم الضمان الاجتماعي عند إيضاح المقومات الآتية:

(١) أنها حق معلوم - وليست منة وإحساناً أو فضلاً من الأغنياء - أنها حق فرضه القرآن والسنة وأوجب النظام الاقتصادي للإسلام على المسؤولين جبايتها والأشرف على توزيعها على مستحقيها ونص الشافعي على أن للفقير أحقية استحقاق المال حتى صار بمنزلة المشترك بين صاحبه وبين الفقير، ويجوز للفقير أن يأخذ مقدار الزكاة إذا ظفر به وكان صاحبه قد امتنع عن أدائه.

(٢) وعلى هذا الأصل ترتب أصل آخر هو أنه ليس على مستحقي الزكاة أن يدفعوا شيئاً لاستحقاقها ومعظم التأمينات والمعاش تشترط أن يدفع المستحق قسطاً أو يخصم من مرتبه حتى يستحق التأمين، والنظم التي يعفى فيها المستحقون من دفع أقساط يكون التأمين فيها من الهزال بحيث يستكمل عادة بتأمين إضافي يسهم العامل فيه بدفع أقساط متفاوتة.

(٣) لما كان مبرر الأحقية في الزكاة هو الاحتياج فإن الزكاة تكون حقاً للمحتاجين دون أن تكون مقصورة على فئات دون فئات وفي معظم الدول تكون التأمينات الاجتماعية للعاملين بأجر دون الحرفيين أو المهنيين أو صغار التجار والفلاحين الذين يكون عليهم أن يلودوا بنظم التأمين التجارية وقد شمل استحقاق الزكاة المحتاجين حتى من غير المسلمين في بعض المذاهب.

(٤) ينبني على هذا الأصل أن تكون الزكاة على قدر الحاجة على حين أن التأمينات الاجتماعية في العالم بأسره تقدر بمعايير أخرى خلاف قدر الاحتياج مثل مدة الخدمة وقيمة المرتب وقيمة القسط المدفوع.. الخ، وهذه كلها لا علاقة لها بحجم الحاجة وهي بصفة عامة تقلل من قيمة التأمين لا شد الفئات احتياجاً.

(٥) أن الزكاة تجبى على رأس المال أونة وعلى الدخل أونة أخرى (لمن ليس لديه رأس مال) وهي بهذا تختلف عن معظم الضرائب التي قلما تمس رأس المال وتقتصر على الدخل أو الربح. وتتفاوت نسبة الزكاة تبعاً لما إذا كانت تجبى من رأس المال كالمأشوية وعروض التجارة وهي ٢ % أو على الدخل وإذا كان

الدخل نتيجة زراعة أرض تروى بالأمطار دون مشقة فهي ١٠ %، وإذا كانت وإذا كانت تروى بآله ونحوها فهي ٥ % على اختلاف بين المذاهب.

(٦) أن الزكاة تضع حداً معقولاً للإعفاء فلا يدخل في نصاب الزكاة دار السكن والثياب الخاصة والقوت المدخر لطعام العامل وآلة العمل التي يحتاجها المكتسب بيده ودابة الركوب، وأن يتوفر بعد هذا كله فائض يبلغ ٢٠ مثقالاً من الذهب أو ٢٠٠ درهم من الفضة.

(٧) أن دائرة المستحقين التي وضعها الآية "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِنَّ السَّبِيلَ"، يمكن أن تشمل كل صور الاحتياج من مرض أو بطالة أو عوز أو عجز أو شيخوخة أو كوارث التي تغطيها نظم التأمينات الحديثة ويضاف إليها أبواب لم تعرفها مثل الغارمين وفي الرقاب وابن السبيل.. الخ.

ومن المهم الإشارة إلى أن المفهوم الإسلامي لكلمة سائل بعيد كل البعد عن التصور الشائع في هذا العصر فليس هو الشحاذ المعدم ولكنه أي محتاج وقد يأتي هذا السائل على فرس ليأخذ ما يسد حاجته وقد أكد الخليفة العادل عمر بن العزيز أهمية السائل الذي يأتي على فرس.

وللفقهاء أحاديث عديدة حول المصارف الثمانية، وكلامهم بالطبع ينطبق على تصورهم للاحتياجات وما كانت تفرضه الأوضاع وقتئذ ولم يترجم الكتاب المعاصرون هذه الاحتياجات إلى لغة العصر، وهو نقص يأمل الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل أن يستدركه، ويكفي في هذه العجالة ما أشرنا إليه أنفاً من أن نص الآية لا يضيق أبداً بأي صورة من صور الاحتياج في العصر الحديث من بطالة أو عجز أو شيخوخة أو كوارث، فضلاً عن الصور التي استنبطها الفقهاء وتعد جديدة مثل طالب العلم وطالب الزواج ومن تحمل حماله أو ركبه دين أو انقطع به السبيل.. الخ.

(٨) أن زكاة كل بلد توزع فيها نفسها وهذه الصورة المبكرة من صور الحكم المحلي تحول دون أن تدخل الزكاة في الميزانية العامة التي لا يعلم عنها شيء أو تبتلعها بنود هذه الميزانية، وهذا لا يمنع من أن الزكاة إذا فاضت عن حاجات منطقتها أرسل الفائض إلى بيت المال المركزي لينفق منه على المستحقين في مناطق أخرى على أن يكون للزكاة ميزانية خاصة في بيت المال حتى لا تلتهمها البنود الأخرى.

ويلاحظ هنا أن من مصارف الزكاة "العاملين عليها" وهذا ما يعزز من استقلالية الزكاة لأن الذين يتولون جبايتها يأخذون مرتباتهم من الزكاة نفسها بحيث تتضاءل احتمالات تأثير الحكومة على هؤلاء العاملين في قيامهم بمهمتهم.

(٩) أن الزكاة لا تأخذ بالنظام التصاعدي لأنها لا تستهدف التقريب بين الدخول وإنما كفالة التأمينات وهذا ما تكفيه النسبة المقررة للزكاة كما أن الإسلام لا يريد للذين تؤخذ منهم الزكاة أن يستشعروا نحوها الكراهية والمقاومة لأن هذا يكون على حساب المقوم التالي للزكاة.

(١٠) أن الزكاة وأن كانت من ناحية ما ضريبة يجب وجوباً على من يتوفر له النصاب دفعها، فإذا لم يدفع أجبر على ذلك إلا أنها من ناحية أخرى فرض ديني وركن من أركان الإسلام فلا يكمل إسلام المسلم إلا بدفعها وهي من هذه الناحية تختلف اختلافاً جذرياً عن أي ضريبة أخرى تفرضها الدولة بحيث يكون جابي الزكاة هو نفسه من تؤخذ منه، فكل من تجب عليه يقدمها من تلقاء نفسه، بل ويختار لها أفضل ماله حذراً من أن ينطبق عليه قول الله تعالى: "وَيَجْعَلُونَ لِّهِ مَا يُكْرَهُونَ" وفي الوقت نفسه فإن جابي الضريبة يرد هذا

الأفضل وبيقيه لصاحبه لأن النبي ﷺ حذر معاذاً "وإياك وكرائم أموالهم"، وهذا التجاوب ما بين من يعطي ومن يأخذ لا يوجد إلا في الزكاة دون غيرها من الضرائب.

من هذه المقومات العشرة يتضح أن الزكاة تقدم لنا نمطاً فريداً من التأمينات الاجتماعية يفضل أي نظام آخر وأنها لو طبقت لكانت المدخل للقضاء على كافة صور الحاجة والعوز والاضطراب وما تثيره هذه في النفوس من مهانة من ناحية وثورة من ناحية أخرى.

إن الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل يذكر المسلمين أنهم بإهمالهم الزكاة يهدمون ركناً من أركان الإسلام ويتجاهلون الآيات الصادقة والأحاديث المدوية ويحذرهم أن ينطبق عليهم قول الله تعالى: "ويا رب أن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً".

إننا نقول لهم إن أبا بكر الصديق لو بعث مرة أخرى لأعلن عليهم الحرب ولرأي فيهم مرتدين يفرقون بين الصلاة والزكاة.

إننا نقول للذين يصلون النوافل شفعاً وتراً ويصومون الاثنين والخميس أسبوعياً ويحجون ويعتصرون مراراً وتكراراً ثم يتجاهلون الزكاة كما أمر بها الله والرسول أنهم يسيئون صنعا لأنهم يأتون النافلة ويتجاهلون الفرض ويهدمون ركناً من أركان الإسلام المؤكدة، وأنهم باقتصارهم على هذه العبادات ذات الطابع الفردي وإهمالهم الزكاة ذات الطابع الاجتماعي يثبتون أنهم لا يعملون إلا لأنفسهم، أما أمة المسلمين فلا تعنيهم في شيء وبذلك ينطبق عليهم قول النبي: "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم".

إننا نهيب بالحكومات الإسلامية أن تحل نظام الزكاة محل نظمها التأمينية، فنظام الزكاة أفضل من أي تأمين آخر لأنه يسد كل الاحتياجات لكل المحتاجين.

والزكاة بعد ليست إلا رمزا للنظام الاقتصادي الإسلامي وليست المطالبة بتطبيقها إلا الخطوة الأولى على الطريق، طريق تحريم الربا والاكنتاز وإساءة التصرف في الملكية وكافة صور الاستغلال والكسب الحرام، طريق العدالة والعزة والكرامة طريق العمل والإنتاج، طريق السلام الاجتماعي.

فهل من مذكر؟

(٣)

مخاوف لا أساس لها

من المجتمع الإسلامي(*)

كأننا ما كان الترحيب الذي تلقاه صحوة الإسلام والحماسة التي يعمل بها قطاع كبير من قطاعات المجتمع العربي - الإسلامي للعودة إلى الأصول والمبادئ الإسلامية ، وإحلال نظم إسلامية محل النظم الراهنة ، فهناك هواجس تمتلك مجموعات من الناس وبعض المفكرين من الصورة التي سيكون عليها هذا التغيير وما تتضمنه من تقييد للحريات وسيطرة "الرجعية".

وعندما كنت في المغرب في ديسمبر عام ١٩٧٩م، قرأت في صحيفة الميثاق كلمة تحت عنوان "من منا يقبض على الجمر" بقلم الأستاذ مصطفى سليمان (عدد الجمعة ٢١ ديسمبر ١٩٧٩م) تحدث فيها عن زيارة بابا الكنيسة الكاثوليكية لتركيا ومقابلته لبطريك الكنيسة الأرثوذكسية، وأن البطريك قال "يجب أن نجعل من المد الإسلامي حافزا لتنشيط المسيحية" ثم أخذ يصور نماذج من المسلمين، ونقل قصيدة قصيرة منشورة في إحدى الصحف المغربية وعلق عليها، وقد وجدت أن كلا من القصيدة والتعليق يوضحان نموذجاً المخاوف من ناحية والرد عليها من ناحية أخرى، ومن هنا فأنا أفضل أن أنقلها وأشرك قراء الأيام معي في التعرف عليها قال الكاتب:

"منذ أيام، كتب أحد الكتاب الصحفيين في زاوية يومية "خاطرة إسلامية" قال فيها: "لنفرض أن عالمنا الإسلامي قد تحول كله إلى "إيران" بعمامة وعباءة الخميني:

بعقل العمامة، وفكر العباءة.

كيف ستكون علاقتي بزوجتي؟

ماذا ستدرس ابنتي في المدرسة؟

أي الأفلام سأكون فاقداً للاختيار بين أن أشاهدها أو لا أشاهدها؟

أي كتب سأجد في المكتبات؟

ما هي المقالات التي سأكتب؟

أي المشروبات سأشرب؟

ما هي الشعارات التي على أن أرفع؟

عندها لا أستطيع أن أتخلص من رعشة تملكني، ورعدة تهز كيائي".

هذه أسئلة مسلم - مفكر - ولكل سؤال جواب:

• كيف ستكون علاقتي بزوجتي؟

علاقة الحلال بالحلال، لا خيانة، لا استغلال، لا اضطهاد، لا قوة، لا عنف، بل رحمة ومودة ولطف، وألا تسرحها إلا بإحسان، هكذا علمنا القرآن.

• ماذا ستدرس ابنتي؟

(*) لا نعلم إذا كانت جريدة "الميثاق" قد نشرت المقال أم لا، لأننا غادرنا المغرب بعد كتابة المقال مباشرة، وواضح أن توقيته كان ديسمبر سنة ١٩٧٩م.

كل علم ينفع الإنسان، وهل دولة الإسلام ضد العلم؟ حتماً لن تدرس ما يشوه الحياة!، ما يقوض دعائم الفرد والمجتمع، أن أول ما قاله القرآن: "اقرأ".

• أي الأفلام؟

للأسف سوف تحرم من مشاهدة أفلام راعي البقر الأمريكي الذي يقتل عشرة هنود حمر بطلقة واحدة. سوف لن تشاهد أفلام اللصوية المنظمة، والإرهاب والعنف الإجرامي وسوف تحرم من متعة التصيب عرقاً - وغيره - عند مشاهدة أفلام "السكس" في القاعات السينمائية العلنية والسرية، في الأسواق أو البيوت.

لن تشاهد "مارلون براندو يمارس الجنس "الأحمر" على الشاشة البيضاء" للأسف، فهذه الشاشة ستبقى ناصعة البياض"؛ ففي الحياة أشياء تستحق العرض، هكذا ربانا الإسلام.

• أي الكتب سأجدها في المكتبات؟

بصراحة، لن تجد "أرسين لوبين" أو "رجوع الشيخ إلى صباه وتقوية الباءه"، لن تجد كتباً مطبوعة بالسم، أسأل "حضارة الإسلام، في عصرها الذهبي ماذا كانت تقرأ وتكتب"؟، وما هي الكتب التي كانت فوق رفوف "بيت الحكمة"؟ أسأل نهر "دجلة" ما جرى فيه مداد حضارة الإسلام، يوم نكبة بغداد على أيدي التتار، هكذا ثقفنا الإسلام.

• ما هي المقالات التي سأكتب؟

مقالات الثورة والتمرد والرفض، الثورة على كل ظلم، والتمرد على كل جبار طاغية، والرفض لكل اضطهاد أو استعباد أو ذل، هكذا علمنا الإسلام لن نكتب أو هاماً، زيفاً، وتضليلاً، ورياءً، وخوفاً.

• أي المشروبات سأشرب؟

بكل أسف وألم: لن تشرب "جونى وولكر، وايت هورس" سنشرب الماء الزلال، وكل حلال ينبض بالماء من ثمر فوق الأرض أو تحتها، لن تشرب العلقم، لن تشرب نخب السرطان والجنون والجريمة، لن تشرب نخب الشيطان والرذيلة، ستكون مدمناً على الحلال.

هكذا علمنا الإسلام.

• ما هي الشعارات التي يجب على أن أرفع؟

شعارات الخلود: الحق، الخير، الجمال.

هذه هي شعارات الله وهي بعض أسمائه.

قد تقول: ولكن هذا ليس في "إيران الخميني".

فأقول لك: إيران الخميني ليست الإسلام، لكنها من الإسلام، ما لنا ولعباءته ما لنا ولعمامته؟ أهكذا نقيم الثورات؟ هل التقييم بالزبي، عبادة كان أم عمامة؟

هل الثورية يا ترى بـ "الجينز و البيكيني"؟

الثورية "موقف"، و "الإنسان" "موقف".

وأخيراً أسألك: هل نحن - كلنا - مسلمون؟ بل مؤمنون؟ قال نبينا العظيم: "القباض على دينه كالقباض على الجمر"، فمن منا يقبض على الجمر؟ فلنأخذ الإسلام جملة، أو لندعه آمناً.

الإسلام يدعونا إلى القبض على الجمر، ليس في إيران فحسب، بل في كل مكان، فليطمئن البابا "بولص ديمتريوس"، فالجمر في أيدي المسلمين تحول إلى زجاجة "وايت هورس" .. انتهى مقال الكاتب المغربي.

* * *

أعتقد أن المخاوف التي عبر عنها كاتب القصيدة المنشورة هي ما تساور معظم المعارضين، أو المتخوفين من الدعوة الإسلامية كما أعتقد أن الرد الذي أورده، الكاتب يمثل الرد التقليدي الذي يرد به الكاتب المسلم على هذه المخاوف.

وكما هو واضح فإن المخاوف التي عبر عنها الشاعر ذات طابع اجتماعي، وكان يمكن أن يتحدث عن مخاوف لها طابع اقتصادي أو لها طابع سياسي، ولكنه كفرد من برجوازية العصر أهتم بما سيأكل ويشرب ويرى على الشاشة البيضاء وعلاقته بزوجته ودراسة ابنته.. الخ، وهو مجال قد يكون أقل أهمية من المجال السياسي أو الاقتصادي، ولكن هذا لا ينفي أنه يمثل الاهتمام الأول لكثير من الناس، لأن الفترة الليبرالية التي مرت بها معظم المجتمعات الإسلامية قد سمحت بإرواء كثير من الشهوات التي كانت مكبوتة أو محرمة، وأوجدت في مجال الفنون على اختلافها صوراً لا حد لها للاستمتاع، والشهوات بعد محببة إلى الناس، وإذا ألفت النفوس إشباعها، فإن من العسير الإقلاع عنها، وقد ترى في ذلك انتكاساً عن تقدم العصر أو تقييداً لحرية الناس، أو حرماناً من حق أصبح مقررًا أو معترفًا به.

وبالمثل، فإن الرد الذي قدم هو الرد التقليدي الذي يتقدم به معظم الكتاب والمفكرين الإسلاميين ولعلمهم لا يجدون بديلاً آخر.

ولن أتقدم الآن بهذا البديل، ولكني أود أن أقدم بين يدي الحل المنشود مقدمات وأساسيات يمكن أن تكون ذات أثر بعيد في التوصل إلى حل جديد.

من هذه المقدمات أن علينا أن نفرق بين الدولة، والمجتمع والفرد، أن ما يميز الدولة عن غيرها من الأجهزة أو الكيانات أنها سلطة قمع، وأن لديها وحدها قضاء وبوليساً وسجوناً، وهي تصول في الداخل بسيف القانون.

والدولة الإسلامية من هذه الزاوية غير ملزمة بتطبيق عقوبات أو تحريم تصرف معين، إلا بالنسبة للحدود التي تضمناها الكتاب والصحيح الثابت من السنة" ولا يدخل فيها حد الردة فيما نرى"، أما بالنسبة لما يجاوز هذه الحدود على وجه التعيين فإن الدولة الإسلامية تستلهم فيها الأصول العامة والقواعد الرئيسية للفقهاء الإسلاميين، ولا يستلزم هذا بالضرورة الأخذ برأي فقهاء معينين، بل أغلب الظن أننا سننحى جانباً معظم هذه الآراء لأنها حتى إذا كانت قد استلهمت بعض الأصول العامة للفقهاء الإسلاميين أو جرت على أساس قياس أو إجماع، فإنها أغفلت بعض الأصول الأخرى العظيمة فضلاً عن أنها يغلب أن تغفل أعظم أصل وهو روح الإسلام.

وليس هناك ما يمنع من أن يكون اجتهاد المفكرين الإسلاميين اليوم مختلفاً، لأننا نرى أن فتح باب الاجتهاد، وأن المفكرين الإسلاميين اليوم أكثر ثقافة وأعظم قدرة على الاستفادة من المراجع من مفكري الأمم، والتمسك بآراء والأسلاف، لمجرد أنهم آباء وأسلاف - عادة ندد بها القرآن - في أكثر من موضع.

وهناك المجتمع، والمجتمع يتماسك بالعرف والتقاليد، وهذه في جملتها يمكن أن تعد من قوى الحفاظ، ولكن هذا لا يمنع من أنها تتطور بدرجة متفاوتة من السرعة والبطء، والخطأ والصواب، وهذا التطور ضربة لازب

وهو ملحوظ في كل المجتمعات غربية أو شرقية. وقد يصور هذا بالنسبة للمجتمعات الإسلامية موقفها من المرأة، وهو مجال حساس ويظفر عادة بقدر كبير من الحرص والحفاظ، فإن مجرد خروج المرأة في المجتمعات المدنية الإسلامية كان أمرًا مستنكرًا، ويندر أن يحدث حتى عندما تجر المرأة أذيالها وتضع أفئنتها، ثم خرجت المرأة تجرر أذيالها وتضع أفئنتها، ثم تخلصت من أفئنتها، ثم بدأت تتحرر من أذيالها فقصر الثوب إلى منتصف الساق، وارتفع الكم إلى منتصف الذراع وكشف عن الرأس والرقبة ومساحة محدودة من الصدر، وأمكن اعتبار هذا كله داخلا في إطار العرف الإسلامي الذي لا يثير قلقًا أو يحيك في الصدر ولم ير هذا المجتمع خروجًا إلا إذا استأصلت الأكمات فأصبحت "جابونيز" أو ارتفع الثوب إلى الركبة أو كشف من مساحات كبيرة من الصدر والظهر.

وقل مثل ذلك في مجالات الفنون والآداب.

وقد يضيق كثيرون بمثل هذا التطور، ولكنه أمر واقع ولا يمكن الوقوف في وجهه للعاملين الزماني والمكاني، فمع كل عقد من السنين، ومع كل تقارب ما بين الدول بعضها وبعضها لا بد أن يحدث تطور، وقد كان عمر بن الخطاب يتمني لو كان بينه وبين فارس بحرا من نار، وكان يستعيز بالله من سبي جلولاء، وما يمكن أن يحمله هذا أو ذاك من تأثير على مجتمع المدينة الطاهر الوداع البريء ولكن شيئًا من هذا لم يكن ليحدث لأن الله غالب على أمره و "لا بد للزمان أن يتنفس" كما قال بعض الفقهاء: والزمان ليس مجرد تعاقب للأيام والسنين، أنه يحمل كل "حيويات" وقته وخصائصه إلى الأجيال، بحيث يأخذ الفهم أبعادًا جديدة وأضواء جديدة ولم تعد الفيافي الصحراوية أو الأعماق الريفية بمنأى من صوت العصر الذي يحمله إليها الترانزستور، وما يحدث في المجتمع الشرقي حدث من قبل في المجتمع الغربي، ومن ثم فإن الموقف الأمثل نحو التطور يجب أن يتسم بطابع الترشيد وليس بطابع المقاومة أو التجاهل أو التجميد.

كما يجب أن نضع في اعتبارنا أن المجتمع يضم الملايين وأنه ليس من الطبيعي أو الممكن أن نحمل هؤلاء الملايين على محمل "التنزيه" في التحريم والتحليل وحسبنا منهم الحد الأدنى من الالتزام الإسلامي، أما ما فوق ذلك فإنما يتأتى تطوعًا وحسب القدرة والاستطاعة.

وأخيرًا فهناك الفرد، وقوام الأمر في الفرد هو الضمير أو بالتعبير النبوي القلب، فإذا صح القلب صح الجسد وإذا استقام الضمير استقام الفرد، وهذا الضمير يتأثر بعدد كبير من العوامل الوراثية والبيئية التي تتفاوت تفاوتًا كبيرًا ما بين فرد (أو مجموعة من الأفراد) وفرد آخر (أو مجموعة أخرى من الأفراد) بحيث يكون هناك المتشدد الذي لا يسمح بترخص والمترخص الذي لا يقبل تشددًا ولا نستطيع أن نحمل كل هؤلاء على محمل واحد أو نجبر المتشدد على الترخص أو المترخص على التشدد، فكل ميسر لما جبل عليه.

[هذه مقدمة.](#)

[مقدمة أخرى..](#)

أن الإسلام له "ميكانزم" خاص بالنسبة للذنوب والأخطاء والاستسلام للضعف الإنساني إزاء الشهوات، فهو يعترف بأن الضعف البشري جزء من التكوين الإنساني أورثه آدم أبناءه جميعًا، ولا يستبعده - حتى من الأنبياء فيما لم يكلفوا بتبليغه - وقد تجاوز القرآن عن اللوم الذي يقع فيه المؤمنون إذا غلبهم الضعف البشري، ووضع الإسلام الطريقة الأساسية لمعالجة ذلك "أتبع السيئة الحسنة تمحها"، "أن الحسنات يذهبن السيئات"، وأفسح في مجال "الكفارات" التي تكفر عن هذه الأخطاء وأدخل فيها إفشاء السلام وإطعام الطعام وفك الكربات وإعتاق الرقاب والصيام والاستغفار والتوبة.. الخ.

فالإسلام لا يستعظم وقوع المسلمين في صغار الذنوب التي أدخل فيها بعض المفسرين القبلة والضمة.. الخ، باعتبارها من "اللمم"، ولا يرى ذلك ملوثاً للشخصية أو ذاهباً بالمروءة، ولا يتصور مجتمعه براء من مثل هذه الذنوب، كما أنه لم يدخل هذه الذنوب في إطار الحدود، بل لم يوجب عليها عقوبة جنائية تتولاها الدولة، لأنه أوجد طريقة معينة، بعيداً عن إطار العقوبة الجنائية، لمعالجة مثل هذه التصرفات، وهي فعل الحسنات وأداء المكفرات.

ولو قارنا هذه الصورة بما يجرى في المجتمعات الحديثة لوجدنا أن من يرتكب شيئاً من هذا اللمم، تشوه صفحته، وتشان سمعته ويرتكب سابقه تلاحقه مدى الحياة ويتعرض لعقاب يدخله السجن سنين عدداً وتحيق به سابقه تلاحقه مدى الحياة، وقد اعتبر القانون الجنائي المصري أن مساً متعمداً لصدر امرأة يدخل في "انتهاك العرض" ويعاقب عليه بالسجن، فالموقف الإسلامي أكثر سعة ورحمة من موقف القانون الوضعي، على عكس ما يتصور الكثيرون.

مقدمة الثالثة..

أن كل تدخل من الدولة في هذا مجال السلوك والآداب والفنون لا يحقق دائماً المطلوب، ولدينا مثال السعودية والاتحاد السوفيتي، ففي السعودية فرضت الدولة قيوداً على الحريات الخاصة، فكانت النتيجة ما نعلم جميعاً، وما لا نرى أنفسنا في حاجة للإشارة إليه، وفي الاتحاد السوفيتي فرضت الدولة وصاية ثقيلة على الفنون والآداب وأمتت - ولك أن تقول كمتت - الصحافة، ووجهت الأقلام فكانت النتيجة أدباً فجاً وفنوناً دعائية.

وحقيقة الحال أن الإسلام حل المشكلة حلاً نموذجياً عندما وكل ذلك إلى الضمير الفردي، وعندما فتح أبواب المكفرات.. التي لا يمكن للنظم الوصفية الولوج إليها أو الأخذ بها.

والنتيجة..

أن المجتمع الإسلامي قد لا يكون بالضرورة من التزمت والالتزام بالصورة التي يعرضها علينا معظم - أن لم يكن كل المفكرين الذين ألزموا أنفسهم - بالخط السلفي التقليدي، وكان يمكنهم أن يعودوا رأساً إلى منابع الصافية الأصلية القرآن والصحيح الثابت من السنة واستشفاف روح الإسلام فيما لم يرد صراحة فيهما، ودراسة النظم الاجتماعية والسنن التي وضعها الله لتدور عليها الحياة، وبدون ذلك فلن يتحقق المجتمع الإسلامي أو يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر، ومن يستطيع ذلك، وإلى متى يستطيع ذلك.

(٤)

بعض الخطوط العريضة

التي تحكم موضوع الصحة الإسلامية (*)

في موضوع الصحة الإسلامية توجد عناصر قوة تدفعها كما توجد عناصر ضعف تعرقلها وتؤخرها، وبقدر انتصار عناصر القوة على عناصر الضعف تكون قدرة الصحة الإسلامية على أن تتحول إلى نهضة، وإذا انتصرت عوامل الضعف فستتحول الصحة إلى نكسه وإغفائه أخرى طويلة وبمقدر ما نقول بالنسبة لهذا الاحتمال الأخير "لا قدر الله" بقدر ما يكون علينا أن نعمل لتجنبه "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ".

وفيما يلي عرض موجز كما لو كان موازنة حسابية لعناصر القوة ومحاولة لاستقراء النتائج والاحتمالات:

أولاً: عناصر القوة

(أ) في الناحية الأيديولوجية:

في قضية كالصحة الإسلامية لا يجوز لنا أن نضائل من أهمية العوامل الأيديولوجية، بل إننا لا نبالغ إذا وضعناها في الصدارة ومنحناها الأولوية، لأنها بلغة العصر تمثل "النظرية" التي لا يكون التطبيق بدونها إلا ارتجالياً وعشوائياً، إن النظرية تضع الطريق السوي الذي يجب أن تسلكه الصحة حتى لا تتخبط، وتذهب بها الأهواء والمطامع والاجتهادات والمؤثرات الوقتية.

وليس من اليسير أن نجد "نظرية" محكمة لأنها قمة الفكر ونهاية المطاف، أن الماركسية التي جذبت أركى العقول الأوروبية وكانت محوراً للدراسة لمدة مائة عام، لم تثبت أمام التطبيق وكشفت سبعون عاماً فحسب عن المآخذ الجسيمة فيها، ومع هذا فلم يظهر بعدها نظرية توازيها في الإحكام الأصولي.

ومن حسن حظ الصحة الإسلامية أن عناصر قوتها تتجلى في هذه الناحية الأيديولوجية التي تمثل "الثوابت"، وإن كانت عناصر الضعف - كما سنرى - أهدرت، ولو لحين هذه الأهمية.

وأهم عناصر القوة الناحية الأيديولوجية هي:

وجود القرآن الكريم، إن القرآن هو أعظم دخر للصحة الإسلامية لأنه العامل الوحيد الذي يجمع مزايا وخصائص لا يمكن أن توجد في غيره فهو حامي الوحدة اللغوية والفكرية، وقد حفظ اللغة العربية القياسية من أن تتناشها اللهجات الإقليمية وتمزقها، ثم هو الإطار الأعظم للعقيدة والشريعة التي يجمع عليها المسلمون قاطبة، وأخيراً فإنه بأسلوبه المعجز وإيقاعه المؤثر ومعانيه السامية وأحكامه المثلى لا يزال النبع الذي لا يغيض أو ينضب للإيمان الإسلامي، هو يلهم الإيمان اليوم بالقوة نفسها التي كان يلهم بها الإيمان من أربعة عشر قرناً، بل إن العصر الحديث يكشف كل يوم أدله على إحكام القرآن وإعجازه تزيد الإيمان به.

ومن النادر أن نجد أمة فيها مثل هذا القرآن، والمثال الوحيد - مع الفارق الجسيم - هو بني إسرائيل الذين أطلق عليهم القرآن "أهل الكتاب" والذين استطاعوا، بفضل هذا الكتاب ورغم كل ما لحقه من تحريف وتزييف، أن يتماسكوا وأن يصبح العامل الوحيد الذي يجمع، وسط عشرات العوامل التي تفرق.

(*) لم تنشر وكتبت في الثمانينات من القرن العشرين.

إن القرآن الكريم كان – وسيظل – أعظم "مؤسسة في الدولة الإسلامية والصحة الإسلامية".

(ب) شخصية رسول الله محمد ﷺ:

إن هذه الشخصية الفريدة، لا تزال منذ ظهورها حتى الآن، وهي تبلور وتجسد الشخصية الإسلامية (كان خلقه القرآن)، وأقل ما يقال عنها أنها بالنسبة للمسلمين جميعاً كالمالك (أو الملكة) بالنسبة للكومنولث البريطاني، عنصر يربط كل شعوب الكومنولث برباط ولاء يعود إلى جذور تاريخية، ودون أن يتضمن عنصراً من عناصر القسر والإلزام، وهو مثال لمجرد التقريب لعاطفة الولاء التي تربط المسلمين بنبيهم الكريم ﷺ بحيث يمكن أن يطلق عليهم "أمة محمد"، ونحن نورده، كما أورد القرآن الكريم المثل لنوره كمشكاة فيها مصباح، أو لقدرته بذبابة وبعوضة، لأن الولاء لمحمد ﷺ لا مثيل له في التاريخ في ناحيتي العمق والمدى على سواء، وقد يدل على هذا أن اسم محمد هو أكثر الأسماء انتشاراً في العالم بأسره.

والرسول ﷺ يمثل القيادة – الإنسان – الذات، وبهذا يكمل للإسلام شقيه وتتضح الحكمة في ثنائية التشهد الإسلامي: "أشهد أن لا إله إلا الله .. وأن محمداً رسول الله".

بل قد تزيد آثار شخصية محمد ﷺ، ولأن الرسول ﷺ قام بجزء كبير من التشريع، لأن القرآن بطبيعة نظمه لم يشتر إلا إلى الكليات وترك تحديد التفاصيل للرسول ﷺ، ومن هنا أصبحت السنة مكملة للقرآن.

ويتفق هذان العنصران من عناصر القوة الأيديولوجية في أنهما محل التسليم من المسلمين كافة، فلا يماري مسلم في قداسة القرآن، وأنه كلام الله وصل إلينا كاملاً غير منقوص أو محرف، ولا يماري مسلم في أن محمداً ﷺ قد أدي الأمانة وبلغ الرسالة وضرب المثل الأعلى للقائد والزعيم، وأن شخصيته كرسول، ومشروع وقائد، ورجل دولة.. الخ، فاقت أي شخصية أخرى في العالم الأوروبي، وقد بدأ العالم الأوروبي يعترف بهذا بعد انكشاف المؤامرة الصليبية على شخصية النبي ﷺ، ولم يكن عبثاً أن يضعه كاتب أمريكي على رأس مائة شخص أثروا في تاريخ البشرية.

(د) التراث الحضاري:

إن الفترة التي تلت العهد النبوي مباشرة، أي الخلافة الراشدة تمثل تراثاً حضارياً، وحلاً إسلامياً للمشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي جابهت الإسلام عندما خرج من مجتمع المدينة المحدود إلى آفاق الإمبراطورية لفارس والروم، وكان يجب أن تعتبر هذه الحلول من باب "السوابق الدستورية" الملهمه للمجتمع الإسلامي.

فإذا كانت عبقرية الخلافة الراشدة قد وقفت في نهاية هذه الخلافة – بعد قرابة ثلاثين عاماً – فإن المجتمع الإسلامي حتى في أظلم عهوده، لم يخل من الشخصيات المضيئة التي قامت بدورها وقدمت إضافتها خاصة في مجال العلوم.

وهذا هو ما نسميه "التراث الحضاري"، وهو يمثل الجذور كما يمثل الامتداد، ويمكن أن يلهم الصحة الإسلامية الشيء الكثير.

على أنه من المهم أن نميز بين شقين من هذا التراث:

الأول: يمثل الإبداع، وهو ما نجده في تراث الخلافة الراشدة، وعباقرة الصحابة والعلماء المسلمين.

الثاني: وهو ما يمثل الإتياع والتقليد الذي بدأ مع إغلاق باب الاجتهاد والعكوف على الفروع والجزئيات، وهذا الشق ليس له أهمية الشق الأول، وفي كثير من الحالات تنتفي منه كل آثار الإبداع أو الإضافة ويكون استلهامه مضللاً، ولأنه يعني بالفروع والتفاصيل، وليس بالكليات والأصول، لأنه كتب بأقلام "مدرسين" في ظروف وملابسات ومناخ لم تكن هي المثلى دائماً.

من هذا العرض لعناصر القوة في الناحية الأيدلوجية نجد أن الصحة الإسلامية يتوفر لها أبرز مقومات وأركان النهضة، فلديها كتاب يمثل جذرها ويرمز لوحدها ويضم نظريتها ودستورها عقيدتها وشريعتها، ولديها الشخصية القيادية الملهمة التي أدت دور القائد والزعيم أداء لم يسبق، ووضع ما ينبغي أن يكون عليه القائد إيجاباً وسلباً، أي ما يجب أن يقوم به وما يجب أن ينتزه عنه ثم لديها تراث حضاري أدبي وعلمي ويمكن أن يسهم في حل المشكلة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ولا يخالجننا شك في أن الصحة الإسلامية من هذه الناحية أفضل من أي "حركة" أخرى، ويمكن لها - من هذا المنطلق - ليس فحسب أن تتحول إلى نهضة، ولكن أيضاً أن تقوم بدور في إنقاذ البشرية المعاصرة الضالة.

(د) في الناحية المادية:

لا ريب في أهمية الناحية المادية، وقد يكون حقا ما يقولونه عن أن المال (عصب الحياة) ولكننا مع هذا نريد أن نوجه الأنظار إلى عدد من الحقائق:

(أ) أن رأس المال ما هو إلا عمل مبلور والعمل بدوره ثمرة للفكر سواء كان عقيدة أم علم، فاليابان مثلاً ليس لديها مواد أولية أو قوى محرّكة وهي تستوردانها بأغلى الأثمان، وقد خرجت من الحرب العالمية الثانية مدمرة، ولكنها استطاعت أن تصبح بعد أربعين عاماً أقوى دولة صناعية، لأن التراث الحضاري الياباني يقدس العلم والعمل، وفي مقابل هذا فيوجد في السودان مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة للزراعة والتي تروي بالأمطار ومع هذا لا يستطيع السودان أن يسد حاجة العدد المحدود من سكانه ويستورد الكثير من المنتجات الزراعية لأن السودان كبقية الدول العربية، وكما سيأتي لم يفهم من الإسلام وهو تراثه الحضاري إلا جانبه العبادي.

(ب) أن الثورات يمكن أن تكون أعظم (القوى الاقتصادية) ويمكن أن تدفع الاقتصاد دفعا إلى الأمام وتتأصل كل المعوقات في طريقها.

(ج) أن الثروة المادية الضخمة وإن كانت بلا شك تمثل قوة ضخمة إلا إنها عادة ما تصطبب بسوء الاستخدام وسوء التوزيع بحيث قد تفضلها ثروة معقولة لا تصطبب بسوء الاستخدام أو سفاهة التوزيع، وإن كانت موارد معظم الدول الإسلامية تعجز عن تحقيق الوفرة، فإن العدالة الإسلامية يمكن أن تمحو الفاقة.

ومع هذا كله فقد أنعم الله تعالى على بعض الدول الإسلامية وجعل في بلادها ثروات عديدة وفجر البترول خلالها تفجيراً بحيث أصبحت بعض دوله من أغنى دول العالم.

ثانياً: عناصر الضعف

(أ) الناحية الأيدلوجية:

(١) القصور في فهم الإسلام:

بعد عشرة قرون من التقليد تفوق الفكر الإسلامي في عدد محدود من المذاهب التي عنيت بفروع الفقه وشكلياته وابتعد عن النظر في القرآن مكتفياً بما قاله الفقهاء وغطت طبقات بعد طبقات أساسيات وجوهريات الإسلام وروحه ورسالته بحيث أصبح مدلول الإسلام هو التمدد بمذهب معين وإتباع شكليات معينة في الصلاة والصوم والحج تبعاً لشرح المذهب.

ومن الواضح أن الإسلام لم يكتسح العالم القديم وينتصر على الفرس والروم لأنه يقرر شكلاً معيناً في الركوع والسجود أو الحج والطواف.. الخ، وإنما انتصر لأنه كان قوة تغيير كبرى وثورة على المجتمع القديم الذي كان يقوم على شرعة التمييز والطبقية والاستغلال وعبادة الطاغوت، كان الإسلام يحمل رسالة العلم والعدل والمساواة والحرية (الكتاب والميزان)، وكان يستأصل بالسيف كل من يتمسك بالأوضاع الاستغلالية والتحكيمية والطبقية.

ومعنى هذا أن حيوية الإسلام وانتصاره الأول، إنما يعود إلى أنه دعوة لتحقيق الحياة الكريمة والمجتمع العادل وتحطيم الوثنيات وإحلال العلم والحرية والمساواة والعدالة محلها.

ولكن الفكر الإسلامي طوال القرون العشرة الأخيرة تجاهل هذا واقتصر فهمه للإسلام على أنه صورة معينة للعبادة.

صحيح أن العبادة مقوم هام من مقومات الإسلام، ولكن كل الأديان لها عبادات.

والجديد الذي جاء به الإسلام وميزه على الأديان الأخرى أنه لم يقتصر على العبادة، ولكنه عالج بقوة ووضوح القضية الاجتماعية ووضع لها الحلول والخطوط الرئيسية فأوجب في السياسة مقاومة الاستبداد والطغيان وتأليه الحكام، وجعل البيعة والشورى من أركان النظام السياسية للإسلام، وفي الاقتصاد أوجب التكافل الاقتصادي وفرض الزكاة، وجعل لها مصارفها باعتبارها حق معلوم، وحرم الربا والاكنتاز وكل صور الاستغلال، وفي النظام الاجتماعي حرر المرأة وأسقط كل صور التمييز الطبقي التي تحكم العالم القديم من لون أو جنس وحث على الثقافة والمعرفة والتفكير والتدبير وأوجب العمل وندد بالذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

والإسلام يضع هذا الجانب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في منزلة العبادة نفسها ولا يفرق بينهم. ومن هنا نفهم (ثنائيات القرآن)، فهو لا يذكر الصلاة إلا ويقرنها بالزكاة ولا يشير إلى الذين آمنوا إلا ويقرّنهم وعملوا الصالحات، والربا ظلم عظيم والظلم شرك وعبادة الملوك والحكام وثنية.

هذا الجانب هو سر حيوية الإسلام لأن المجتمع لا ينهض إلا به، وإذا أهمل فقد تهدر قيمة كل صور العبادات من صلاة أو صوم أو حج ويسود الظلم والجهل والفاقة في المجتمع الإسلامي، كما هو حادث فعلاً ويتقبل الذين يقصرون الإسلام على العبادات هذا الوضع وهذه هي مأساة الفكر الإسلامي، وقد يصور عمق هذا الفهم وتغلغله أنه عندما جعل إحدى الهيئات الإسلامية لأن يكون الإسلام ديناً ودينياً مصحفاً وسيفاً.. الخ، فإن كثيراً من أتباع هذه الدعوة نفسها لم يفهموا من هذا إلا أن الدولة الإسلامية هي الدولة التي تفرض العبادات وتوجبها على الناس بردها السلطان وقانون العقوبات.

ولو ألقينا نظرة على الصحافة الإسلامية لوجدنا أنها في الوقت الذي يتحكم الاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي وتنتشر الفاقة والحاجة وتتعدد المشكلات، فإنها لا تشير إلا شيء من هذا كأنها في عالم آخر وتملاً كل صفحات بالأحاديث عن الوضوء والصلاة وأركان الحج.. الخ.

(٢) العجز عن التوصل إلى صياغة (للمبادئ الإسلامية) التي تثبت وجودها أمام تحديات العصر، وهذا العجز مرتبط بالخطأ في فهم الإسلام وهذا الخطأ الذي حصر الإسلام في العبادة أبعدته عن الحياة والمجتمع والقضايا العامة وأخذ بأسلوب النقل والإتباع والتقليد وليس أعمال الفكر والتفكير والتمحيص، فلما جوبه الفكر الإسلامي بالعصر الحديث لم يستطع أن يتعامل معه لأنه يعيش في عالم يعود إلى عشرة قرون خلت، وما مثل علماء المسلمين اليوم إلا كأهل الكهف الذين ناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ثم بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة، وورقهم لا يصلح للتعامل.

وهكذا ظلت مجالات عديدة شاغرة من الحل الإسلامي ولم يتقدم المفكرون الإسلاميون إلا بصور ساذجة من الحلول لا تتلاءم مع عمق وتعقيد المشاكل سوء كان ذلك في السياسة أو الاجتماع أو الفنون أو الأدب أو الاقتصاد أو العلاقات ما بين العمال وأصحاب الأعمال أو الصحافة أو المرأة.. الخ.

في هذا المجالات كلها قد نجد الرفض وقد نجد التجاهل وقد نجد الحلول الساذجة أو الخاطئة نتيجة لاستلهاهم آراء وضعها الفقهاء منذ عدة قرون وفي ظروف وملابسات تختلف تماماً.

وليس هذا ذنب الإسلام، فالقرآن الكريم قد أسس المبادئ التي يمكن لو رُجع إليها رأساً أن تقدم أساس تأصيل الرأي من أعمال للفكر وابتغاء الحكمة أيًا كانت وعدم الاعتداد بما قرره الآباء والأجداد، بل إن الاقتباس نفسه مبدأ إسلامي وإذا كان الشيء المقتبس حسناً فنحن أولى به وقد قال النبي ﷺ على موسى (نحن أولى به منهم)، فليس هناك حساسية يمكن أن يستشعرها الإسلام نحو الجديد ما دام هذا الجديد يمكن أن يدخل في إطار الأصول الإسلامية العامة وفي سبيل تقبل أفضل وأحسن، أجاز الحديث لمن حلف على يمين فرأى خيراً منها أن يكفر عن يمينه وأن يأتي الذي هو خير (مسلم).

(٣) ضعف الهيئات الإسلامية:

كان لا بد أن تصاب الهيئات الإسلامية بالوهن نتيجة للعاملين السابقين وعندما رزقت الدعوة الإسلامية قادة أكفأ أو ظروفًا مواتية لم تترك إلا قليلاً، وضربت عندما حانت الفرصة، وقد ضربت الدعوة الإسلامية في أندونيسيا ومصر ونيجيريا وغيرها، كما قيدت أو استقطبت في دول أخرى، وكان من أبرز ما رزنت به الهيئات الإسلامية عدم وجود القادة الأكفاء بحيث أصبحت هذه الهيئات (جيوشاً بدون جنرالات) وظهرت صور من انفلات العيار، وغلب الجموح والتشدد على مجموعات عديدة من شباب الهيئات الإسلامية.

ويجب ألا نخدع بما نسمع عن انتصارات للدعوة الإسلامية، فإنها فلتات وأنها لا تعد شيئاً أمام التقدم المستمر والمنتظم للهيئات الأخرى (مدنية أو تبشيرية).

(ب) في الناحية العملية:

النقص الأكبر في هذا المجال هو الجهالة، فالمفكر الإسلامي الذي اقتصر على العبادة لم يمنح العلم والمعرفة حقهما فسادت الجهالة المجتمعات الإسلامية في حين أن العلم في العصر الحديث أصبح نوعاً من الهواء أو اللغة لا يمكن الحياة أو التعايش بدونها ولو أنصفت الدعوات الإسلامية لجعلت من نفسها مدارس لمحو الأمية، ومعاهد للتدريب المهني وقاعات للثقافة والمعرفة في مختلف تحديات العصر، لأن العزة والكرامة والقوة

والممنعة لا يمكن أن تأتي إلا في هذه الصور من المعارف والمهارات فهي أقرب أن تكون سلاح المجتمع الإسلامي في حربه مع أعدائه، وبالتالي تستحق الأولوية العظمى.

ثالثاً: تحليل وموازنة لعناصر القوة والضعف

إذا أردنا تحليل وموازنة عناصر القوة والضعف في الصحة الإسلامية لوجدنا أن عناصر القوة في (الثوابت) والعقيدة، فلدي الصحة الإسلامية (الكتاب) وهو الذي تتقطع دونه الأعناق وتعجز البشرية عن أن تأتي بمثله، ولديها مثال الرسول ﷺ، ولديها التراث الحضاري والخطوط العريضة التي وضعها الخلفاء الراشدون للمجتمع ولديها الأساس الفكري الذي يمكن أن تنهض عليه الدعوات والثورات والذي يعد أهم شيء فيها.

ولكن أعجز هذا المقوم الأعظم أن الفكر الإسلامي أساء فهم الإسلام ونظر إلى الكتاب والسنة عبر الشروح والحواشي والتفسيرات.. الخ، التي دخلها الزيف والكيد والوضع والخطأ، فضلاً عن أنه لم يفهم من الإسلام إلا الجانب العبادي وهو جانب فردي ويمكن أن يكون عقيماً إذا أهملت الجوانب الاجتماعية التي تصلح المجتمع.

فإذا أريد للصحة الإسلامية أن تنتصر فلا بد من أن تفهم الإسلام فهماً جديداً يعود به إلى منابعه الصافية رأساً ويستهدف أحكامه ومقاصده الرئيسية من عدالة وشورى وحرية ومساواة ومعرفة ويعني بالمشكلة الاجتماعية قدر ما يعني بالمشكلة الفردية ويتحول من إطار الالتزام بالفكر السلفي، لأنه إلى الالتزام بالكتاب والسنة وله الحق، بل إن هذا واجب أن يفهمهما تبعاً لمعايير الفهم السليم دون ابتسار أو تطويع، أن الصحة الإسلامية هي أساساً ظاهرة اجتماعية، ولا بد أن تركز على مقومات اجتماعية إسلامية، ولن يكفي حمايتها المقومات الفردية التي ظلت حتى الآن محور عناية الدعوات الإسلامية.

ولن تنتصر الصحة الإسلامية إلا إذا آمنت بالإسلام كما كان في أيامه الأولى: قوة تغيير، وثورة تحرير، وأداة لإنقاذ المستضعفين من الظلمات إلى النور، ومن الجهالة إلى العلم ومن الاستبداد إلى العدل.

إن البشرية اليوم لهي كما كانت أيام البعثة تخضع لتحكم دولتين عملاقتين (كما كان الفرس والرومان)، وتستبد بمصاير الجماهير وحياتهم قوى عديدة، وقد غلب تعقيد الحياة الحديثة قدرات الأفراد واستنفذ فاعليات النظم، ويمكن للإسلام أن يقدم إضافته التي فيها وحدها الخلاص والإنقاذ.

ومع إن عملية التوصل إلى هذا الفهم الجديد للإسلام كقوة تغيير وتحرير وصياغته في لغة مفهومه ونشره وتعميقه عملية صعبة لما أشرنا إليه من تغلغل الفهم القديم إلا إننا نؤمن بإمكان – ذلك – ولكنه سيتطلب بعض الوقت، وخلال هذا الوقت ستكون الصحة الإسلامية معرضة لكثير من المخاطر وقد يمكن لهذا المخاطر أن تؤدي بها في بلد ما، ولكن في النهاية ومع النجاح في التوصل إلى هذا الفهم السليم للإسلام، فإن الصحة الإسلامية ستبقى أساسها الصلد المتين.

ملف ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م

في أعقاب حوادث سبتمبر طلبت مكتبة الشروق الدولية مني كتابة بحث عن ١١ سبتمبر لأنها بصدد إصدار كتاب خاص عن هذا الحدث بأقلام عدد من الكتاب، فكتبت لها بحثاً بعنوان (هذا الحدث المريع.. الرائع) ، ونشرت البحث في الكتاب الذي صدر أواخر سنة ٢٠٠١م باسم (صاعقة سبتمبر)، (كما يفهم من رقم الإيداع)، ولكن بعد أن شطبت كلمة (الرائع) دون أن تخطرني، وفقد البحث بهذا كثيراً من دلالاته، ومع أن الكتاب كان بقلم ١٧ كاتباً من أشهر الكتاب، فإنه كالعادة لم يثر تعليقا.

وفي ١٨/٩/٢٠٠٦م كتبت مقالاً في جريدة المصري اليوم بعنوان: بمناسبة أحداث سبتمبر (لا راحة لأمريكا بعد اليوم).

وأثار المقال ضجة ونقلته اثنتان من قنوات (النت) هما (إيلاف وشفاف)، وكتب الأستاذ شاعر النابلسي المقيم في لندن مقالين أولهما (جمال البنا حلقة جديدة في سلسلة المرتدين) أعقبها بمقال ثانٍ عنوانه (جمال البنا.. لا تعتذر عما كتبت)، ولم أعلم بالمقالين، ولكن أحد الأصدقاء لفت نظري إلى المقال الثاني وأرسل لي صورة منه ففقت بالرد عليه دون أن يكون لدي أي فكرة عن المقال الأول.

وفيما يلي البحث الأول بعنوانه الذي جاء في كتاب (صاعقة سبتمبر) بعنوانه الكامل ثم مقال جريدة المصري اليوم ثم مقالي شاعر النابلسي وأخيراً ردي عليه.

[١]

هذا الحدث المريع.. الرائع

- ١ -

أشرفت شمس الثلاثاء ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م على جزيرة مانهاتن قلب نيويورك مؤذنة ببداية يوم خريفي جديد.

وكان الرجال والنساء يسرعون الخطا نحو مكاتبهم ومخازنهم بينما يجثم مركز التجارة العالمي ويرتفع برجاه شاهقان في عنان السماء.

كان مركز التجارة العالمي رمز أمريكا، أكثر من تمثال الحرية، فهنا يأوي قرابة تسعمائة شركة ومكتب وبنك بعضها من أكبر الشركات العالمية مثل بنك أميركان أكسبريس ومؤسسة ميريل وليننتش وبنك مورجان.. الخ، وكل برج يضم ١١٠ دوراً بارتفاع ألف وثلاثمائة قدم، وفي كل برج ٢١٨٠٠ نافذة، و ٢٥٠ مصعداً ترتفع بسرعة ٢٥ ميلاً في الساعة يستخدمها خمسون ألفاً من العاملين ومائة وثلاثون ألفاً من الزوار والعملاء.

في الساعة ٨٤٥ صباحاً حدث شيئاً عجيب، شيء لا يكاد يصدق، طائرة بوينج ٧٦٧، وهي من أكبر أحجام الطائرات تطير بسرعة ألف كيلو في الساعة تقصد عمدة متعمدة برج المركز لتصطدم به صدمه عنيفة مروعة.

في الثانية التي حدث فيها الاصطدام، انفتحت أبواب الجحيم، الطائرة تزن ٤٠٠ طن ويصبح وزنها بحكم سرعتها عشرة أضعاف ذلك وهي تحمل في أحشائها خمسين طناً من الوقود، أي ما يعادل حمولة عشرة لوريات من ناقلات الوقود، مما أحدث دويًا لم يسمع من قبل واندلعت للفور كرة من اللهب تجاوزت حرارتها ألف درجة،

وأصبح وقودها الناس والحجارة أتت على الطائرة وما تحمله من ناس ومتاع، ثم شقت الدور الثمانين الذي اصطدمت به، وتزعزع البرج بأسره.

بعد عشرين دقيقة، وسط ذهول الناس، تكرر الكابوس، طائرة بوينج أخرى، بالحجم نفسه، والسرعة نفسها تنطح البرج الثاني فتتلاشى فيه، ومعه نتيجة للصدمة، ويتعالى الحريق ويتدهور البرج بأسره.

وبعد قليل كان هناك طائرة ثالثة تقصد البنجاجون في واشنطن مقر وزارة الدفاع لتدمر جزءاً كبيراً من مبانيه.

وصلت طائرة رابعة طريقها كانت تقصد البيت الأبيض، ولكنها سقطت في بنسلفانيا.

هل هذا حلم أم علم؟ هل نحن في يقظة أم منام؟ أم أننا نشاهد فيلمًا سينمائيًا رهيبًا؟ هل يمكن أن يحدث هذا؟ بلى لقد حدث وترك الجميع حيارى وقد أذهلتهم المفاجأة.

وكان في الحدث شيء كان وما زال مستعصياً على الفهم، فكيف يمكن لتسعة عشر، أو ثلاثين فرداً بإمكانيات محدودة تقل بالطبع عن إمكانيات أصغر دولة أن يضعوا هذه الخطة وأن ينفذوها بإحكام بحيث تفقد أكبر دولة في العالم حلمها ولو للحظة؟ وتتصور أنها في مواجهة غزو ما فتسرع بوضع رئيسها، ووزير الدفاع في مكان سري خفي، كان مفتاح هذا هو الاستشهاد، فلو لم يكن الذين قادوا الطائرة ونطحوا بها البرج الصلد الأشم قاصدين الشهادة، لما وقع الحدث أصلاً وهذه الشهادة شيء لم يفهمه أكلة الخنازير الذين يعبدون الحياة الدنيا، ويحرصون على كل يوم ويعملون ليعيش كل واحد منهم مائة سنة لو استطاع.

كان في الإقدام والشجاعة شيء رائع يمثل بطولة من نوع ما مهما كان التصرف خاطئاً ومهما استتبع من مغيبات وخيمة.

- ٢ -

ما هي خطورة أحداث ١١ سبتمبر

ليست الخطورة فيما أحدثته من دمار، وأن كانت جسيمة دفعت الحكومة لتقدم عشرين ملياراً أعقبتها بعشرين ملياراً أخرى، لأن موت قرابة ثلاثة آلاف من المديرين وكبار الموظفين في التخصصات الإدارية والعلمية والفنية مما يمثل خسارة لا يمكن أن تعوض.

وليس تدمير المبنى وقتل العاملين فيه هو أسوأ ما في الموضوع، أسوأ ما في الموضوع أن هذا الحدث كان إهانة بالغة عميقة لأمريكا وصفعة مدوية على وجهها، وكان كل شيء فيه يعمق هذا الانطباع، الطبيعة الدراماتيكية التي تم بها، والسرعة المتلاحقة التي لم تدع لأمريكا فرصة الرد واستخدام ترسانتها، الرموز التي قصدها وأرادت أن تهزها: وهي القوة الاقتصادية، والقوة العسكرية، وأخيراً فإن هذا الحدث أخذ معه كل أسرارها، لقد احترق الجميع الخاطفون والمخطوفون وكلهم ذابوا في النار الحامية ولم يبق لهم أثر، واستحال أن يوجد خيط يبدأ منه تحقيق الأمر وأصبح على أمريكا أن تضرب أخماساً في أسداس وأن تطلق القول على عواهنه.

إن حدثاً بهذا العمق، وبهذه الملابس لا بد وأن يثير حفيظة أمريكا، لا بد وأن يدفعها دفعةً للانتقام، وقد بدأت ظواهره تواء، وتوالت الصيحات، ووجدت في حيرتها ومع انعدام القرائن في ابن لادن كبش الفداء المطلوب.

ولكن ابن لادن ليس إلا تعلقة، وحتى لو ثبت أنه المدبر لكل الأحداث، ولو حكم عليه بالموت، فهل يكفي هذا لكسر حدة غضب أمريكا، وإعلان انتصارها.

هيهات...

عندما تنثور حفيظة أمريكا فإن هذا يعني انطلاق الوحش من الظلمات.

لقد أثار العدوان الياباني علي بيرل هاربر حفيظتها، فلم تهدأ حتى ألفت علي اليابان قنبلتين ذريبتين، وليس قنبلة واحدة.

ولم ترد بهذا إلا أن تدمر مدينتين كبيرتين وتقتل في كل مدينة مئات الألوف، دون أن يكون هناك من مبرر موضوعي لأن اليابان كانت علي شفا التسليم ولو حدث هذا لما شفت غيظها، ولما أخذت بثأرها.

ونحن نجد فيما يحدث في أفغانستان مصداقاً لذلك.

فهذه القنابل التي هدت الجبال، ودمرت المدن وأصابت الأمنيين من نساء وأطفال ما كان لها داع في حقيقة الحال إلا شفاء الغيظ، والأخذ بالثأر.

وهل سيقف الانتقام الأمريكي عند أفغانستان؟ أن أمريكا تعلن أنها ستلاحق "الإرهاب" حيثما كان، وما هو الإرهاب؟ هو ما تراه أمريكا إرهاباً ولا معقب على هذا، وطبقاً لأقوالها فلن يقفها شيء عن متابعتها، وضربه حتى لو كان دفاعاً مشروعاً تقره الأعراف، وتعترف به الدول.

- ٣ -

عندما توقف الأحداث الإنسان علي مفاصل التاريخ، فإن رؤية المفكر تختلف عن رؤية الصحفي الذي يلاحق الأحداث أو السياسي الذي يعالج التطورات، المفكر يغوص في أعماق التاريخ من ناحية، والطبيعة البشرية من ناحية أخرى ويتقصى تفاعلها وانعكاس ذلك على الأحداث.

والشعب الأمريكي في أصله تعود جذوره إلي الشعب البريطاني، الذي ألقى في أمريكا في الفترة ما بين منتصف القرن السادس عشر والسابع عشر بطائفتين من رجاله الأولي المجرمين الذين ضاقت بهم سجون بريطانيا وأرادت أن تتخلص منهم فأرسلتهم إلى "أماكن عقوبة" وكانت في الولايات الأولى على الساحل الشرقي والذي يمثل "نيوانجلند" والطائفة الثانية مجموعة متزمنة في إيمانها متعصبة له بحيث أثرت الرحيل حتى تمارس عقيدتها حرة، ومن مزيج هاتين الطائفتين تكون الشعب الأمريكي الأول، والذي يمثل أرسنقراطية أمريكا ويطلقون عليه "الواسب" قبل أن تفتح أمريكا أبوابها للمهاجرين من كل حذب وصوب.

في هذه الفترة كانت بريطانيا تحكم الولايات المتحدة وتبدأ زحفها الاستعماري وتضع أسس الإمبراطورية، وكانت تعتبر نفسها وريثه للإمبراطورية الرومانية التي كانت حضارتها وآدابها وتاريخها يدرس في معاهدها وجامعاتها أكثر من أي مادة أخرى.

أي أننا نجد التاريخ الأوروبي يبدأ من روما، لينتهي عند بريطانيا، ليولد مرة أخرى في أمريكا، ترفقه سلاسل أوروبية تمثل انتقال الصدارة من روما إلى بريطانيا ثم إلى أمريكا.

واستعراض تاريخ الجنس الأوربي، منذ أن ظهرت أوروبا على خريطة العالم مع ظهور روما يثبت أن هذا الجنس جنس قوى يتمتع بشجاعة وأنه بالطبيعة مقاتل، وإن لم ينقصه الدهاء، وأن العامل الذي يسيطر عليه هو السيادة والهيمنة وثقته بنفسه لا حد لها، ويمكن القول إن هذه في جملتها قد تكون حسناً، ولكن في المقابل فإنه لا يعرف الرحمة ولا يستهدف الخير ولا يؤمن بالعدل، فالقوة وسيلته والسيادة هدفه.

وعلى مدار تاريخه كانت هذه الخصائص - إيجاباً وسلباً - هي التي تحتكم فيه وتحدد له دوره والطريقة التي يسلكها ويتعامل بها مع الآخرين، وقد عاصر حضارة زاهرة سابقة عليه مثل الحضارة المصرية، وقد استفاد منها، ولكنه لغلبة الأنانية والمركزية ازدهرها، وأرادت المسيحية إصلاحه، فعجزت، وأفسد هو المسيحية، أما الإسلام الصاعد فقد رفضه من البداية، لأن توجهاته ومثله كانت تناقض طموحاته .

مثل هذا الجنس كان لا بد أن يكون تاريخه صداماً وحروباً ومنازلة لغيره من الأجناس، بحكم طبيعته دون أي سبب آخر يدفعه لذلك والإلمام بجولات هذا الصراع يفيدنا فيما نحن بصدده، لأنه يكشف عما اتسم به في الماضي، وما يمكن أن يتسم به في الحاضر من حقائق.

وقد بدأت أولى جولات اللقاء - أو قل - القتال بين أوربا التي كانت وقتئذ تسكن الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض وقرطاجنة (تونس حالياً) على الساحل الجنوبي للبحر.

كانت روما قد استطاعت أن تهيمن على منطقتها والمناطق المجاورة، وبدأت أولى مراحل توسعها، بينما كانت قرطاجنة دولة تجارية مزدهرة لها أسطول تجاري يمخر البحار، كما كان لها مراكز ومستوطنات في جزر البحر الأبيض.

وكان من المحتمل أن تنتظم روما وقرطاجنة علاقات سلام وتبادل اقتصادي فروما دولة زراعية، وقرطاجنة دولة تجارية، ولكن الرغبة في المزيد من الكسب التي تملك قرطاجنة وإرادة السيادة التي تحكمت في روما أديا إلى سجال من الحروب.

في الجولة الأولى، والهامة، رزقت قرطاجنة قائداً عبقرياً هو هانيبال الذي سار بجيشه من تونس إلى أسبانيا ومن هناك تسلق بجيشه وعتاده وفيلته جبال الألب المنيعة لينزل على سهول روما، واستطاع أن يلحق بالجيش الروماني هزائم ولاسيما موقعة كينايا التي استأصلت الجيش الروماني وأسقطت بالعشرات رايات النسور وقتلت بالمئات القادة الذين كانوا زهرة أرسقراطية روما ومجلس شيوخها، وأصبح الطريق إلى روما مفتوحاً، ولو هاجمها هانيبال لكان من الممكن أن يدخلها وينهي الحرب، ولكنه أثر أن يمنح جنوده مهلة يستريحون فيها ويعد نفسه للمعركة التالية.

تمالك الشعب الروماني نفسه، ولم يفقد رباطة الجأش أو سلامة التصرف وكون بسرعة من فلول الجيش المنهزم ومن الصبيان والشباب جيشاً آخر ووضع على رأسه القنصل "فابيوس" المراوغ الذي كان يؤمن أن دحر هانيبال إنما يتأتى بتقادي الدخول معه في معركة مكشوفة، ولكن بحصاره، وإنهاكه وقطع خطوط إمداده.. الخ، وأفلح هذا التكتيك الذي أصبح فيما بعد علماً على نهج من العمل السياسي حمل اسم "الفابية" يقوم على التسلل وعدم الضرب إلا في الوقت المناسب، وعندما تسنح الفرصة.

ودخلت الحرب في جولة ثانية عندما نقلها القائد الروماني البارح سيبو إلى أرض قرطاجنة نفسها التي وجدت نفسها عزلاء وهي تواجه جيشاً رومانياً قوياً، فأرسلت على عجل إلى هانيبال ليوافيها، فترك موقعه وعاد إلى قرطاجنة، ولكن الشعب القرطاجي والسلطات الحاكمة لم تمنحه التأييد اللازم فهزم في معركة "زاما" التي تهاوت على أثرها قرطاجنة.

وتَقَصَّى سياسة روما يلقي بضوء على سياسة أوروبا مع الدول التي تفتحتها، فقد قررت روما تدمير قرطاجنة تدميراً تاماً، والانتهاه منها مرة واحدة، وإلى الأبد ولكنها سلكت سبيل الخداع، فأخذت ثلاثمائة شاب من الأسر النبيلة ليكونوا رهينة، ثم طالبت بالأسطول وأخذته، وأخيراً طالبت بالسلاح على أساس أن روما ستقوم بحماية قرطاجنة فسلم القرطاجيون سيوفهم وسهامهم ورماحهم، وأخيراً قالوا لهم إن عليهم أن يتركوا هذه

الأرض وبيحثوا عن أرض أخرى لأن روما قررت تدميرها، وعندئذ فحسب حاول القرطاجيون الحرب، ولكن بدون سلاح فهزموا وقتلوا، ودمرت روما قرطاجنة تدميرًا أتى عليها ولم تقم لها قائمة.

ومرت القرون...

وحلت المسيحية محل الوثنية، وورثت بيزنطة تراث روما وأخذت توطد دعائمها عندما انبثق شهاب الإسلام الثاقب، فأضاء المنطقة بأسرها وغير موازين القوى فيها.

استطاع الإسلام الذي دار حول عقيدة التوحيد السهلة البسيطة البعيدة عن كل تعقيد لا هوتي وبقيادة الرسول الذي كان نمطًا فريدًا من القادة، أن يولف القبائل العربية التي لم يكن ينقصها الشجاعة، ولكن ينقصها الوحدة، ووضع في يدها الكتاب والميزان وجعلهم رسل حضارة جديدة تقوم على العلم والعدل والمساواة فانطلقوا في سرعة البرق وخلال عشرين عاما حررت الجيوش الإسلامية العراق من أسر الإمبراطورية الرومانية وحررت مصر وسوريا من احتلال بيزنطة، بل حاصرت القسطنطينية نفسها عاصمة بيزنطة بينما سار جيش طارق بن زياد، وموسى بن نصير فدخل أسبانيا وفتح معظم قلاعها، وكانت خطة القائد موسى بن نصير أن يخترق جبال الألب وينزل من أسبانيا إلى روما كما فعل هانيبال من قبل، ولكن اختلاف سياسات الخلفاء الأمويين حال دون ذلك، ولما حاول عبد الرحمن الغافقي ذلك واخترق السهل الأوربي حتى كان على مقربة من باريس هزم لا لنقص في الشجاعة، ولكن لأن البربر حرصوا على الغنائم، أكثر مما حرصوا على النصر، ففقدوا الغنائم والنصر معًا، وكانت تلك هي "بواتية" أو بلاط الشهداء التي أوقفت المد الإسلامي، وحالت دون أن يصل إلى العمق الأوروبي.

وكان على أوروبا أن تقضي خمسة قرون قبل أن توحدها سيوفها وتوجهها للإسلام فيما أطلق عليه الحملات الصليبية التي دعا إليها البابا أربان والتي حملت رسم الصليب على أعلامها واستهدفت إنقاذ قبر المسيح من أيدي الكفرة المسلمين.

ولم تكن الحروب الصليبية صليبية في حقيقتها رغم كل الشعارات والحماسات، ولكنها كانت جولة جديدة من الصراع بين الشرق والغرب وخطة ذكية من البابا لتوحيد سيوف أوروبا وتوجيهها نحو الشرق، وإذا كان هناك حملة يمكن أن يقال عنها أنها صليبية حقا، فتلك هي حملة الأطفال التي لا تكاد تعرف، عندما تجمع بضع مئات من الأطفال - من بنين وبنات - بتأثير أحد القسس الذي اتضح فيما بعد أنه نخاس وتاجر رقيق يتعامل مع بعض أصحاب السفن في البندقية الذين يتعاملون مع المسلمين واستطاع هذا القسس أن يلهب حماسة الأطفال الأبرياء بحيث لم يتمكن أبأؤهم من منعهم من السفر، وخاصة بعد أن باركت الكنيسة رحلتهم ولم تكذب السفينة تباعد عن الشاطئ حتى ظهر تاجر رقيق السفينة، وأخرجوا الأطفال يعدونهم ويفحصونهم ويضربونهم بالسياط حتى وصلوا إلى البندقية وأخذهم تاجر الرقيق، ولكن عددًا محدودًا استطاع أن يختبئ، فنجوا من هذا المصير وتمكن من العودة ليخبر الآباء والأمهات بهذه المصيبة.

في هذه الجولة الثانية من الصراع ما بين الغرب والشرق (كانت الجولة هي جولة الفتوح الإسلامية صدر الإسلام) انتصر الشرق، وأن كان دفع غاليًا ثمن الفرقة التي مزقت دولة، ولكنه في النهاية انتصر ورد الصليبيين على أعقابهم بعد أن عاثوا فسادًا وأعملوا التقتيل والتذبيح.

ومضت خمسة قرون على آخر انتصار شرقي على جنود الفرنجة، قبل أن تبدأ الجولة الثالثة مع بدايات القرن التاسع عشر، وهي التي شاهدهت الغزو الأوروبي الكاسح للدول الشرقية والإسلامية، فانتصر نابليون حيث هزم لويس التاسع، وعاد أحفاد بلدوين وجودفري إلى سوريا ولبنان بعد أن طردهم صلاح الدين، لأن الغرب

استطاع خلال القرون الخمسة أن ينمي نفسه وأن يتوصل إلى الثورة الصناعية التي فتحت أمامه آفاق الصناعة الحديثة، والتي تمخضت عن بناء سفن عملاقة تسيّر بالبخار وسك حديدية ثم أسلحة من بنادق ومدافع كفلت للجيش الأوربية الانتصار على الجيوش الشرقية التي كانت تحارب بالسيف والرمح.

ولم يقدر للشرق أن يتحرر من الاستعمار إلا بفضل التطورات الدولية التي كان أبرز معالمها الحربين العالميتين ١٤ - ١٩١٨م و ٣٩ - ١٩٤٥م واستطاعت أن تحقق قدرًا محدودًا من التقدم الصناعي، ولكن لما كانت الشقة ما بين الغرب والشرق خاصة بعد التوصل إلى التكنولوجيات الحديثة اتسعت جدًّا، فإن احتمال نجاح الشرق في استدراك هذا التخلف رهن بقيام ثورة تكنولوجية تقفز فوق الشقة الواسعة بحكم القوى الإيمانية الاستثنائية التي يثيرها الإيمان في النفوس، فبدون هذا سيظل الشرق في وضع الدول المتخلفة، بينما يكون الغرب في الدول المتقدمة، وهو وضع يفتح شهية الغرب المتربص ويجعل احتمالات نجاحه في إخضاع الشرق راجحة، وهو ما كان يحدث خلال العقود الأخيرة مع محاولة عولمة العالم، بمعنى أن يكون الشرق سوقًا للمنتجات الغربية، وأن تكون شعوبه مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة.

* * *

هذا الاستعراض لتاريخ العلاقة بين الغرب والشرق يوضح أن الخصائص التي كشفت عنها أول جولة في هذا الصراع ما بين روما وقرطاجنة واصلت البقاء والظهور حتى آخر الجولات أي المرحلة الاستعمارية في القرن التاسع عشر، كما ظهرت في خصائص العلاقة ما بين المستوطنين الأمريكيين الأول وسكان البلاد الأصليين الذين يطلق عليهم الهنود الحمر، في كل هذه الجولات استخدمت أوروبا كل وسائل العدوان من حرب أو سياسة، كما لجأت إلى القسوة والتدمير دونما أي رحمة، واستنزاف كل ثروات وموارد البلاد التي دخلوها، بحيث لا يتصور أن يتغير هذا المسلك في أي جولة قادمة ما بين الغرب والشرق.

مع بداية القرن العشرين كانت أوروبا قد اقتسمت العالم الإسلامي واستعمرت دوله، وكان آخرها احتلال إيطاليا لليبيا، وإن كان هذا القرن نفسه رسم نهاية المد الذي بلغه الاستعمار وبداية جزره، ويقظة الشرق، وظهرت أولى ثمار جمال الأفغاني وغيره من الرواد مما كان يؤذن ببداية التحرير، كما كانت التطورات الدولية تتطلب تغييرًا في السياسات الاستعمارية الغشيمة التي طبقت خلال القرن التاسع عشر، لقد أصبح لدى الشعوب الشرقية - خاصة الإسلامية والعربية - إمام كبير بالثقافات الحديثة والعصرية، ونهضت الصناعة ولو على أيدي الرأسماليين الأجانب الذين استفادوا من رخص اليد العاملة، وظهر جديدًا أن أسلوب وحشية القرن التاسع عشر لم يعد ملائمًا!

وقامت الحرب العالمية الأولى فأثارت دوامة من التطورات غيرت خريطة العالم العربي لعل أبرزها كان إعلان بلفور وظهور الحركة الصهيونية في فلسطين وكان الفلق الذي اتسمت به "هدنة العشرين عامًا" كما أطلق عليها ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الحرب العالمية الثانية عاملاً مساعدًا للدول الإسلامية والعربية لأنه شغل الدول الأوربية بمشكلاتها التي أدى تفاعلها في النهاية إلى نشوب الحرب العالمية الثانية التي كان لها آثار بعيدة المدى إذ كانت بداية حركة التحرير التي شملت دول الشرق المستعمر بما في ذلك الهند، مصر، سوريا، ولبنان، والعراق، وليبيا، والسودان.. الخ.

ولم يكن معنى هذا أن الغرب تخلى عن طابعه العدوانى الموروث أو عن استهداف السيطرة أو استخدام القوة، كان خير تصوير لمسلك أوروبا هو ما قاله الكاتب العسكري الألماني الشهير كلاوزفيتز "أن السياسة هي

ممارسة الحرب بطرق أخرى"، فطوال القرن لم تكف الدول الأوروبية عن دس الدسائس والتآمر أو التدخل أو اصطناع العملاء وقد تحدث الأمير شكيب أرسلان عن "مائة مؤامرة لأوروبا على الإسلام" وإذا أعطينا تعبير المؤامرة قدرًا من المرونة فقد يزيد العدد عن مائة.

أذكر أن صديقي الكريم الدكتور سعيد رمضان رحمه الله أعطاني عندما كنت في ضيافته في جنيف منذ عشرة أعوام تقريبًا روايتين إنجليزيتين لأتسلى بهما، كانت الأولى باسم "المهدي" وتقوم فكرتها على محاولة المخابرات في أمريكا التأثير على العالم الإسلامي من داخله لأن عنده درجة من المناعة في مواجهة التأثير الخارجي، وبناء على هذا عمدت لكي تقنع - بطريق ما - أحد الشيوخ أنه المهدي وفي الوقت نفسه ترسم السياسات لتوجيه الشيخ طبقًا لما يحقق مآربهم، وعرفوا أن شيخًا تقيا في الأردن يدعى الشيخ عبد القادر يتعبد في كهف قصي فدخلوا الكهف في غيبته وركبوا - في مكان خفي - جهازًا عليه شريط تسجيل يقول يا شيخ عبد القادر أعلم أنك المهدي الذي اصطفاه الله لأن يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً، ويكرر هذا بضعة مرات في مواعيد صلاة الشيخ وهكذا فإن الشيخ لم يكذب يتم صلاة الفجر حتى فوجئ بالصوت الخفي يناديه ودهش الرجل ولكن لم يعلق، وتكرر الآن في اليوم الثاني واليوم الثالث اتصلت المخابرات بعمل لها ورسمت له دور "الصديق" للمهدي، فلم يكذب الشيخ عبد القادر يخرج من كهفه حتى تلقاه هذا العميل مقبلاً يديه ووجنتيه قائلاً أنه شاهد الرسول في المنام وأخبره أن الشيخ عبد القادر هو المهدي وعندئذ تأكد من صدق ما سمعه، وجلس مع صديقه لدراسة كيف يمكن لهما دعوة الناس، وكانت المخابرات قد أعدت حيلة جديدة تقوم على فكرة عريضة في التراث الديني هي أن الله تعالى عندما يتقبل قربان أحد الناس يرسل من السماء ناراً تحرقها، وأخبره صديقه أنه شاهد رؤيا بهذا المعنى وأنه ما أن يتم ذلك حتى يؤمن به الناس، واقتنع الشيخ بالفكرة، وفي مكة المكرمة، يوم النحر الأضحية، نحر الشيخ خروفاً فنزلت نار من السماء أحرقت الخروف، فأخذوا يهللون ويكبرون.. الخ، ولا أريد أن أطيل لأن الرواية تدخل في مضاعفات لا مبرر لها إلا السرد القصصي فقد علمت المخابرات السوفيتية بسر المهدي، وأرادت أن تدخل في اللعبة.. الخ، أما الرواية الثانية فقد غاب عني اسمها ولكنها - باختصار - تدور حول محاولة إلقاء قنبلة ذرية على الحجاج يوم عرفه حيث يجتمع مليون حاج، ويمكن بهذا قتل هذا العدد الذي يفوق، كل ما قتل في المعارك الأخرى، وفشل المشروع لعطل فني في الطائرة.

وأمثال هذه الروايات عديدة، وما خفي بالطبع أكثر وكلها تؤلف فصولاً من ممارسة الحرب بطرق أخرى، وكلها تستهدف إفساد المجتمع الإسلامي بمختلف الطرق.

[٤]

قد يقول قائل..

وما علاقة هذا كله بأحداث ١١ سبتمبر..

العلاقة أن أحداث ١١ سبتمبر بعثت إلى الحياة كل هذه الذكريات القديمة المخزنة في الذاكرة العميقة للشعوب الأوروبية والتاريخ الأوروبي، ولم يكن صدفة بالطبع الإشارات المتكررة على السنة الأمريكية والأوربيين إلى الحرب الصليبية الجديدة، وسيغريها هذا بأن تسير في المستقبل، كما سارت في الماضي، أي أن تكون علاقتها علاقة صراع وقتال تمارس فيها أساليب الانتقامية الوحشية التي بدأت بتدمير قرطاجنة، وظلت حتى محاولة تدمير العراق وأفغانستان حتى وإن كانت قد عمدت إلى الأساليب الدبلوماسية والتأمرية التي كانت تتلاءم مع المناخ الذي وقعت فيه أحداث ١١ سبتمبر.

وهذا ما يفرض علينا أن نضع استراتيجية محددة لما يكون عليه العمل العربي / الإسلامي في عالم ما بعد ١١ سبتمبر.

والعناصر الرئيسية في هذه الاستراتيجية هي:

أولاً: أن الإرهاب ظاهرة اجتماعية / اقتصادية / سياسية تظهر لدى كل الشعوب وكل الأوقات عندما تنهياً عوامل معينة ومن الخطأ والابتسار ربطها بالإسلام، فقد ظهرت في روسيا القيصرية في العقد الأول للقرن العشرين في حركة النهليست الذين اغتالوا القيصر وعدداً كبيراً من المحافظين والضباط احتجاجاً على فساد نظام الحكومة الأوتقراطي وسيطرة النبلاء، كما حدثت في الولايات المتحدة وهو ما يفترض أن يعلمه المستر بوش في كوكلوس كلان وإرهابها للأمريكيين السود وفي التنظيمات الأصولية الجديدة التي أولت المسيحية تأويلاً يخدم السياسة الإسرائيلية أو غيرها من الهيئات.

وقد ظهر الإرهاب في المنطقة العربية لديكتاتورية النظم العسكرية وفسادها، وبدأت البذرة الأولى في سجون عبد الناصر ونتيجة للتعذيب الوحشي الذي مارسه مع الإخوان المسلمين طوال حكمه وانتقلت إلى سوريا التي هدم فيها حافظ الأسد حماه بالمدافع والقنابل عندما اعتصم بها الإخوان المسلمون وأصدر قانوناً يعتبر العضوية فيها خيانة عظمى يعاقب صاحبها بالإعدام.

فهذه النظم التي حكمت بالديكتاتورية واتسمت مع هذا بالفشل وتطرق إليها الفساد كانت السبب في قومة مجموعة الشباب الوطنيين المخلصين لبلادهم ولقيم الحرية والعدالة بأعمال غير مشروعة عندما حرم عليهم العمل المشروع، أي من تكوين أحزاب أو إصدار صحف للإعلان عن رفضهم لهذه النظم ومطالبتهم بالديمقراطية.

فالإرهاب هنا كان نتيجة للحكم الديكتاتوري الفاسد الذي كتم الأنفاس وسد منافذ العمل المشروع بحيث أصبح لا مناص عن العمل غير المشروع كنوع من الاحتجاج وكان لا بد أن يوجد وقد وجد في حركة المصوتات النسائية في بريطانيا Suffragette في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى عندما أصرت الحكومات المتعاقبة على رفض مطالبهن أما الإسلام فلم يكن إلا المظلة الأيدلوجية التي ابتدعها الذين قاموا بهذه الأفعال ليعطوا لعملهم شرعية ومصداقية، ولكن السبب الأصيل هو فساد الحكم وديكتاتوريته التي تحول دون العمل المعلن المشروع، وهذا الحكم تحميه أمريكا وتساند قاداته وتزود حراس سجونهم وأمنه بالعتاد والمعدات والخبرات.

ثانياً: إن من أكبر أسباب كراهية الشعوب لأمريكا هي سياستها المنحازة انحيازاً أعمى لإسرائيل بحيث باركت تكسير عظام الأطفال، والتعذيب في السجون، واغتيال المخالفين سياسياً وقلع الأشجار وهدم البيوت، والإساءة إلى الكرامة بكل الطرق واستخدام حق الفيتو ٣٤ مرة منذ عام ١٩٨٢م لإيقاف قرارات من مجلس الأمن كان معظمها بأغلبية أصواته، إن وحشية العدوان الإسرائيلي الذي شهد به المنصفون في كل العالم كلها ما كان ليحدث لولا تأييد أمريكا ومباركتها وتزويدها بالمعونات والسلاح بحيث أصبحت شريكة لها، وإثر كل عدوان تقول أمريكا إن إسرائيل من حقها أن تدافع عن نفسها، وأن شارون رجل سلام !

إن هذا الموقف يخالف كل أصول العدالة وكل القيم التي تدعو إليها الولايات المتحدة وتمثل الحضارة الحديثة، ثم هو يسئ إساءة بالغة إلى المصالح الأمريكية لأن المصالح الحقيقية لأمريكا لا تتحقق إلا بتأييد شعوب المنطقة وقبولهم.

لقد تصور البعض أن الشرق الفقير يحسد أمريكا الغنية المترفة، وينقم عليها ثراءها، وهذا غير صحيح، وهو يخالف أخلاق أهل هذه المنطقة، الصحيح أن الولايات المتحدة جعلت من نفسها شريكة لإسرائيل في كل صور العدوان على الشعب الفلسطيني وعلى سكان منطقة عريضة على قلوب العرب والمسلمين جميعاً ولو أقلعت الولايات المتحدة عن سياسة التأييد الأعمى لوجدت التقدير - كل التقدير - من شعوب المنطقة.

حتى ابن لادن، الذي أصبح رمزاً للشيطان كان يوماً ما حليفاً مخلصاً لأمريكا في كفاحها ضد غزو السوفيت وألم بالثقافة الأوروبية والأمريكية، وكان يمكن أن يكون صديقاً لأمريكا، والشيء الوحيد الذي جعله عدواً لأمريكا هو تأييدها لإسرائيل بصورة جعلتها هي وإسرائيل شيئاً واحداً.

إن من الضروري أن تتخلص الولايات المتحدة من سيطرة اللوبي الإسرائيلي الذي يسخر مصالح الولايات المتحدة لمصلحة إسرائيل، والذي يجعلها تقف مؤيدة ومباركة لرجل تعتبره العدالة الدولية مجرم حرب، وتجعلها تؤيد سياسات العدوان على حساب القيم الحضارية وقد أن لها أن تعرف أن إسرائيل أصبحت عبئاً عليها وليست كسباً لها خاصة بعد أن تحلل الاتحاد السوفيتي، ولا بد أن تولى المصلحة القومية والعليا للولايات المتحدة على المصالح الحزبية.

ثالثاً: لا بد من عرض الإسلام عرضاً سليماً، وأن يقدم باللغة والروح التي تفهمها ويستوعبها الجمهور الأوربي/الأمريكي، والمشكلة أن الحكومات تلجأ إلى المؤسسة الدينية لتقوم بهذا الدور، وهي آخر من يصلح لذلك لأن فكرتها تقليدية رديئة، ولا تستطيع أن تقدم ما هو أفضل منها لاعتبارات عديدة.

وإنما يجب أن يقوم بذلك المفكرون الإسلاميون الذين يجمعون ما بين الثقافة الحديثة والفهم الإسلامي.

وقد أدى عقم المؤسسة الدينية والتزامها بالفهم السلفي التقليدي القديم وخضوعها لسياسة الحكومات أن ظهرت مجموعات لها اجتهادات خاصة ولكن لما كان ينقص بعضها نضج السن والخبرة، والإلمام بالثقافات الحديثة، فإن ما توصلت إليه لا تفضل ما توصل إليه الشيوخ التقليديون إلا قليلاً، وفي بعض المجالات إتسم بالشطط والغلو.

والمطلوب أن يقدم الإسلام، كما قدمه القرآن وكما مارسه الرسول دعوة لتحرير الشعوب والجماهير وإنقاذها من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة وإشاعة قيم العدل والمساواة والخير والحرية، والإيمان بالله تعالى باعتباره أصل القيم وأن الإسلام أعلى قيمه المساواة بين الناس جميعاً وقضى على كل دعاوى العنصرية التي كانت تسود العالم القديم.

ويجب إبراز ما أتصف به المسلمون في فتوحاتهم من عدل وإنسانية، وسمح لكل الأديان الأخرى بالبقاء وتركهم أحراراً في كل ما يتعلق بعقائدهم، كما يجب إبراز ما تضمنه القرآن الكريم وكرره مراراً من إيمان المسلمين بكل الأنبياء السابقين بما في ذلك موسى وعيسى وتوقيرهم للسيدة مريم، وأن المسيح لديهم نبي كريم وأمه سيدة نساء العالمين، وأن الإسلام حقق تعايش الأديان وحقق عالمية أفضل من العولمة التي يدعون إليها.

ويجب إبراز حقيقة أن ما أُلصق بالإسلام من اجتهادات منحرفة، أو متخلفة، أو ما اتسمت به بعض فترات الحكم الإسلامي من عسف أو جهالة، إنما يعود إلى أصحابه وليس إلى الإسلام، وأنهم كانوا جهلة بالإسلام أو مستغلين له وأن هذا حدث في أوروبا وآسيا.

ويجب كذلك إبراز الدور الإسلامي والحضارة الإسلامية في النهضة بالفلسفة، والعلوم والفلك والجبر والهندسة والحساب والطب والملاحة وأن الفكر الإسلامي قدم لأوروبا ما مكنها من تحقيق نهضتها، وكذلك

استخدام الأسلوب التجريبي والعملية في العلوم، والتحرر من سطوة وهيمنة الأحرار والرهبان، وأن تكون علاقة الفرد بالله تعالى مباشرة، ودون وصاية أحد أو سيطرة مؤسسة دينية كائنة ما كانت.

ويجب أن يكتب هذا على مختلف المستويات - مقالات في صحف لقاءات تليفزيونية - كتيبات صغيرة - كتب لها طابع المراجع، ويلحظ أن يكون الأسلوب سهلاً سائغاً بعيداً عن التحذلق أو التعقيد.

ويجب الإشارة إلى أن العالم الإسلامي يموج بأفكار حديثة يتطلبها التطور وكمثال ففي مصر تشق طريقها الآن دعوة الإحياء الإسلامي التي تمثل تجديداً حاسماً يعتمد على تأصيل إسلامي دقيق وفي الوقت نفسه يتقبل الفكر الآخر ويفيد منه، وهي لا تلتزم بالتراث المذهبي والفقهية الذي كان السبب في تقوقع الفكر الإسلامي، وعلو بعض اتجاهاته.

إن هذا الفهم سيزيل غشوات وشكوكاً مستحكمة تؤثر على إصدار القرارات والأحكام ولعله أن يكسب للإسلام، ليس فحسب أصدقاء، بل أيضاً مؤمنين جدد يكونون عوناً له في صميم المجتمع الغربي.

رابعاً: يجب أن يقوم بهذا الجهد بالدرجة الأولى الهيئات الفكرية المتطوعة، ومنظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان التي تجد في الإسلام نصيراً لها، والمفكرون الإسلاميون الأحرار، وسيقدم المجتمع مناصرة من أفراد كثيرين يدعمونه بالعموم المادي والتأييد الأدبي.

ومن المهم أن تتحرك الاتحادات العمالية والنقابات المهنية لتمارس دورها في الدبلوماسية الشعبية التي هي أكثر فعالية من الدبلوماسية الحكومية المقيدة بالاعتبارات الرسمية.

[٢]

بمناسبة أحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١ لا راحة لأمريكا بعد اليوم

لم يحدث أن فقدت أمة في العصر الحديث رشدها ولو لمدة ساعة كما حدث لأمريكا إثر وقوع أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م.

لم يحدث هذا لأمريكا عندما فاجأ الطيران الياباني الأسطول الأمريكي الراسي في بيرل هاربور ودمره تدميراً.

فمع أن عنصر المفاجأة كان موجوداً، فإن الطريقة كانت معهودة، وهي استباقية دولة لعدو لها لحرب تدمر به سلاحها.

أما أحداث سبتمبر كانت شيئاً جديداً بالمرّة، شيء لا يكاد يصدق، فالإنسان ينظر بعينيه إلى ما حدث أن تأتي طائرتان من أضخم طائرات السفر كل واحدة ممتلئة بوقودها وركابها ثم تصدم كل واحدة - عامدة متعمدة - أحد برجى التجارة فتحول الجميع في دقائق إلى أعظم محرقة وتدمير ونار وقودها الناس والحجارة.

ومنذ أن وقعت هذه الأحداث، ولم يتوقف مستر بوش عن الحديث عن عدو خفي غريب يظهر في أي وقت، وفي أي مكان اسمه "الإرهاب" !

لم يكن بوش مخطئاً عندما ضخم الحدث الذي وقع في ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١، ولكنه أخطأ في التعرف على أسباب وقوعه، ولم يستطع، ولن يستطيع أن يعرف أسباب هذا الوقوع، لسبب بسيط أنه هو نفسه السبب ! أو على الأقل أحد أسبابه !.. وهيئات.. هيئات أن يخطر هذا بباله، وإن خطر فلن يعترف به.

قبل أن تقع أحداث ١١ سبتمبر كانت الولايات المتحدة قد قطعت شوطاً كبيراً في بسط سيادتها على العالم، وبوجه خاص الشرق الأوسط حيث توجد المحبوبة - أو المعبودة - إسرائيل، وحيث توجد منابع النفط التي كانت محل حسد الولايات المتحدة وعجيبها المستمر أن توجد وسط "الأعراب" الذين لا يعرفون قيمتها، وأن لا توجد في أمريكا التي تقوم عليها صناعاتها، وكانت تستنكر على الأقدار، لماذا تضع اللحم أمام من ليس لهم أسنان !!

كانت الخطوة الأولى أن أغرت العراق بحرب إيران وإجهاض ثورتها الرائعة التي أدلتها وحاصرت سفارتها، فزودت صدام حسين الذي تعرف فيه الطموح والاندفاع والوحشية بأسلحة الدمار الشامل التي تكفل له الانتصار، وبهذا دخل صدام حسين في حرب دامية مع إيران لمدة ثمان سنوات كاملة استنزفت أموال وقوى الدولتين وأجهضت ثورة إيران الوليدة.

كان هذا انتصاراً نموذجياً لأنه أوهن أكبر قوتين في الشرق.

ثم أغرت أمريكا - صدام - مرة أخرى بغزو الكويت ولوحت له سفيرة الولايات المتحدة أن بلادها لن تتدخل، وبلغ الطاغية الطعم وهاجم الكويت، وعندئذ حانت الفرصة للولايات المتحدة أن تضرب لتكسب ثلاث انتصارات من حرب واحدة.

أعلنت الحرب على العراق بعد أن جيّشت جيوش العالم، بما فيها جيوش دول عربية، واتفقت مع الكويت ومع السعودية أن ترسل حاميات عسكرية لتحمي الدولتين من "البيع"، وبهذا دخل الأمريكان البلد المقدس، والكويت العزلاء بإذن حكومات الدولتين، وعلى أساس أن تدفع الدولتان الإقامة وكل التكلفة، كل هذا دون أن تطلق رصاصة واحدة.

واستطاعت بما جيّسته من جيوش أن تلحق الهزيمة بصدام وأن تجعل من "أم المعارك" "أم الهزائم"، ولكنها مع هذا أبقت على صدام ليظل - حتى تهضم الوجبة الثقيلة التي أكلتها - "البيع" قائماً وموجوداً.

وقبل هذا كانت الولايات المتحدة قد تعاونت مع الأفغان لحرب السوفييت التي ارتكبت خطأ تاريخياً عندما احتلت أفغانستان، وهب الشعب الأفغاني الأبى يحارب عن استقلاله، وتقاطرت على الأفغان مجموعات من الشباب المسلم لكي تتطوع في هذا الجهاد المقدس ضد الغازي السوفييتي.

واتصلت أمريكا بابن لادن وزودته بالأسلحة وقاد ابن لادن الحرب الشعبية حتى هزم الاتحاد السوفييتي وانسحب الجيش السوفييتي من أفغانستان، وفي هذه اللحظة طالبت الولايات المتحدة ابن لادن بتسليم السلاح الذي سلمته له، وأبى هذا، فاحتدمت بينهم العداوة.

كانت مجموعة من شباب الخليج، ومصر، تتابع المشهد وتشهد فصوله المأساوية فصلاً فصلاً، وترى بأم عينها الدول العربية تتساقط وتستسلم لأمريكا وتشهد الأوغاد الأمريكان يمرحون "ويبرطعون" في الأرض المقدسة، ويأكلون وقيمون على حساب بلادهم، ثم تابعوا والألم يعتصرهم فقد المكاسب المحدودة التي كانت فلسطين قد كسبتها في أوسلو ورأوا السفاح "شارون" يرأس إسرائيل ويرتكب كل يوم مجزرة، وقيم سداً يخنق الفلسطينيين ويجعلهم في شبه سجن ويتحكم في أرزاقهم ويرتكب كل ما يشعرهم المذلة، والولايات المتحدة تصفق له وتقول إن من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها، وتدرأ أي إدانة لها في الأمم المتحدة حتى لو كان كل أعضاء مجلس الأمن معارضين باستثناء أمريكا وحدها التي تستخدم الفيتو فيسقط القرار، ويحدث هذا لا مرة واحدة ولكن مراراً.

وشاهدوا صقور المحافظين الجدد الذين استعبدتهم أسطورة توراتية واستخدمهم الصهونيون ليرسموا الخطط لتتال إسرائيل أرضها من النيل إلى الفرات، ولو أقحمت الغرب في حرب عالمية.

فكر هؤلاء الشبان في طريقة لإعطاء أمريكا درساً بطريقة فريدة لم تسبق وهداهم التفكير إلى خطة ما كان يحلم بها أكثر المخرجين السينمائيين الأمريكيين أن يستخدموا طائرات الخطوط الجوية الأمريكية فيتدربوا أولاً على قيادتها، ثم يضعوا الخطة للسيطرة على عدد منها، وأن يحولوا اتجاهها بحيث يمكن أن يدمروا رمز الازدهار والخيلاء الأمريكية "برج التجارة العالمي"، وذلك بأن يصطدموا به فتفتجر الطائرة بتأثير السرعة والصدمة، وكثرة الوقود ليحدث "جحيم" لا يتصور.

ونجحت الخطة التي وضعها تسعة عشر شاباً معظمهم من السعودية والخليج وإن كان رئيسهم مصرياً نجاحاً تاماً يعود دون ريب إلى حنكة هؤلاء الشبان وإيمانهم وتكتمهم واستعدادهم للتعامل مع كل المواقف، على أن حليفهم الأعظم جاء من أن أحداً من السلطات أو الجمهور – ما كان يتوقع أو يتصور شيئاً كهذا، فكانت غفلة ساعدتهم على النجاح في مفاجأة مذهلة.

* * *

وهكذا وقع هذا الحدث المريع.. الرائع.

المريع.. لأنه خلال نصف ساعة وفي مشهد درامي يجاوز عنفه كل تصور هدم برج التجارة الذي كان محل زهو وفخر الولايات المتحدة وقتل أكثر من ثلاثة آلاف نفس، وهذا أمر مريع فعلاً.

والرائع.. لأن الذين رسموا خطته تلك بكل ما فيها من جسارة ومن قوى تدمير يعجز الإنسان عن تصورها كانوا يعلمون أنهم أول من يموت، وأنهم خلال ثوان من اصطدام طائراتهم بالبرج ستكون أجسامهم دخاناً لا يبقى على "فتفوتة من عظم أو لحم أو أثر من أي نوع"، ومع هذا لم يترددوا فكانوا بحق "أشجع الشجعان".

ورسم هذا الحدث نهاية لعهد وبداية لعهد.

فقبل هذا الحدث كانت الدول الغنية القوية التي استعمرت الشرق ونهبت ثرواته وقتلت رجاله واحتلت أرضه ونقلت إلى بلادها كل ثمين وغالٍ، حتى حققت "تراكمها الرأسمالي" الذي ما كانت تستطيع بدونه أن تحقق ما وصلت إليه من ارتفاع هائل في مستويات المعيشة، فهذا التراكم الذي ظل لمدة قرنين أو ثلاثة قد أفقر الشرق بقدر ما أغنى الغرب، واشترك في هذا النهب بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا وهولندا، أما الولايات المتحدة فكانت قد حققت تراكمها بإبادة الشعب الأصلي لأمريكا بأدنى الوسائل والاستيلاء على أرضه، ثم أفقرت أفريقيا عندما استعبدت عشرات الملايين من شبابها اصطادهم الأسطول البريطاني والأمريكي وتجار الرقيق (كانت الملكة اليزابيث شريكة في إحدى سفن الرقيق وكان الكثير من قباطنة الأسطول من هؤلاء القراصنة).

دع عنك الجريمة النكراء جريمة هيروشيما وناجازاكي.

إن هذه الدول سواء منها المستعمرة القديمة في أوروبا أو زعيمة الاستعمار العالمي الجديد أمريكا ما كانوا يخافون حساباً أو عقاباً، ورفضوا حتى الاعتذار، ولكن أحداث سبتمبر فتحت آفاقاً جديدة وأسلوباً جديداً يمكن به تصفية الحسابات القديمة.

وإذا كان الأوروبيون والأمريكيون يرون فيها إرهاباً فليقرأوا تاريخهم الحافل بالمجازر والقتل والتدمير والنهب والسلب.. الخ.

أصبح من الممكن لكل الشبان الذين يراجعون التاريخ، ويعلمون الكم الهائل من الجرائم التي اقترفتها أجدادهم خلال ثلاثة قرون متوالية، وإن هذا كله لم يقتنعهم فأخذوا يسلطون العولمة المتوحشة ويضعون الاتفاقيات الدولية التي تجعل الدول الفقيرة فريسة عزلاء أمام الدول الغنية حيث تقوم الشركات متعددة الجنسية بما كانت تقوم به الجيوش، فيتملكهم شعور جارف بضرورة الوقوف موقفاً إيجابياً صلباً، وكانت المظاهرات هي هذا الأسلوب، ولكنه فشل، وفي النهاية فسيوجد من شباب هذه البلاد من يفكر في أسلوب سبتمبر أو الطريقة الاستشهادية التي يقوم بها رجال فلسطين.

نحن نعترف أن هذه الطرق ستودي بأبرياء، ولكن متى كان للأبرياء حساب عند الدخول في معركة، إن الطيار يضغط على زر فتسقط قنابله على مباني ومستشفيات ومدارس ومحطات مياه ومون.. الخ.. إن الحرب الحديثة، وبالذات سلاح الجو لا يمكن أن يعمل حساباً لأبرياء، فليسكتوا، أو ليحرموا استخدام الطائرات.

ونحن نعترف أن هذا السبيل قد ينتج عنه سوء استغلال، ولكن هذا إنما يدل على فساد في المجتمع كن يجب على المجتمع أن يصلحه، وعندما أهمل فإنه يدفع ثمن إهماله.

أريد أن أقول في النهاية إن وسيلة جديدة لتحقيق العدالة، أو نيل الحقوق لم تكن معروفة قد أظهرتها أحداث ١١ سبتمبر (جنباً إلى جنب أحداث استشهاد الفلسطينيين)، وأنها ستجد سبيلها حتماً إلى المجتمع الأمريكي/الأوروبي في المستقبل مادامت سياسة هذا المجتمع الرأسمالية المتوحشة واستعباد الشعوب، وأن القضية هي قضية وقت فحسب، وسيكون الذين يقومون بمثل أحداث سبتمبر أو بمثل الاستشهاد الفلسطيني من أبناء المجتمع الأوروبي نفسه، وليس من "الفاشية الإسلامية" كما يقول المستر بوش، وأن هذا لن يدع راحة لأمريكا أو لحلفائها لأنه من العسير مقاومته، حتى لو ارتدت الحضارة الأوروبية عن مثلها العليا الحضارية، وكممت الحريات وأصبحت معسكراً مدججاً، فإن هذا سيفقد حسانتها التاريخية، ولن ينحيا من المصير الأسود، وكل جهد تبذله في محاربة الإرهاب سيكون لحساب الإرهاب، فليواجه الغرب مستقبلاً لا راحة فيه، بعد أن انسلخ من ماض لا إنسانية فيه.

[٣]

جمال البنا حلقة جديدة في سلسلة المرتدين المقال الأول نشاكر النابلسي

جمال البنا، شقيق مؤسس حركة الإخوان المسلمين حسن البنا، ولكنه هو القائل "لن أعيش في جلباب أخي"، وهو من رجال الدين المسلمين الذين أحببناهم وقدرناهم واعتبرناهم من التنويريين الدينيين الجدد، فموقفه كان شجاعاً من حجاب المرأة، وهو الذي اعتبر أن الحجاب فرض على الإسلام ولم يفرضه الإسلام، وأنه لا يوجد نص قرآني بتغطية مكان معين من جسم المرأة إلا فتحة الصدر، وحلل زواج المتعة، ودعم إمامة المرأة في الصلاة، وعارض ختان البنات، وكانت له مواقف لا تتسجم مع مواقف الإخوان المسلمين، وكان له موقف إيجابي من العلمانية التي قال فيها بأنها ليست ضد الدين، وأنه ضد أن يتدخل الدين في السياسة، وأن فكر وفقه القدماء لا يصلح لعصرنا، وأن من يكفرون الكُتَّاب والمبدعين مجانين، وأن منع الكتب جريمة لا تغفر، وهو الذي كان من بين الكتاب الذين منع الأزهر كتبهم ومنها كتابه "مسؤولية فشل الدولة الإسلامية في العصر الحديث"، وهو مؤلف كتاب "نحو فقه جديد"، الذي نادى بإعادة فتح باب الاجتهاد، وتنقية التراث، واستنباط أحكام فقهية جديدة عن النصوص القرآنية المقدسة، لكي يتواءم المسلمون مع عصرهم، وكانت له مواقف سياسية وآراء سياسية مشهود لها، منها قوله إن ثورة يوليو هي انقلاب عسكري "للأحذية العسكرية"، وليست ثورة، وأن كلام سيد قطب عن الحاكمية الإلهية كلام فارغ وحلم مستحيل، وأن ما يسميه المسلمون خلافة كان مُلكاً

عضوياً، وكانت كلها مواقف عقلانية تنويرية من منطلق ديني حدائى وتنويرى بعيداً عن إغراق الدين فى الأساطير والتعاويد والشعوذات والخرافات، وأكاذيب فقهاء السلاطين.

- ٢ -

هذه الآراء الحدائى العقلانية التنويرية جميعها، أبهرتنا بنورها وجرأتها وشجاعتها ومنطقها العصرى، وأصبح جمال البنا شيخنا وإمامنا نحن معشر الليبراليين، وكان منارتنا الدينية الهادئة والداعية والمرشدة فى بحر الظلمات، فخلفه وحده نصلى، وفتاواه وحدها ضالتنا ومشكاتنا، وآراؤه فى الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد هى المنارة والعصارة، واغتاظ السلفيون والمتشددون المتخشبون من هذا الصوت الدينى الجديد، ورحب الليبراليون بهذا الداعية التنويرى، واحتفلوا به، وأطلقوا عليه مربي الأجيال، والمفكر التنويرى، وشيخ الإسلام المجدد، وخليفة الشيخ محمد عبده، وقبس من روح أبى ذر الغفارى، والعالم القرآنى، وكانوا كمن وجد ضالته فى جمال البنا، فى صحراء التيه العربية، سيما وأنه القائل فى عام ٢٠٠٣، بأن القتال إلى جانب الأمريكيين فى العراق ضد الطاغية صدام حسين أكثر ثواباً وأفضل جهاداً من القتال إلى جانب الطاغية صدام حسين ضد الأمريكيين، وبمناسبة الذكرى الأولى لكارثة سبتمبر ٢٠٠١م، أى فى سبتمبر ٢٠٠٢م، كتب جمال البنا مقالاً فى جريدة "القاهرة" الأسبوعية، مجدداً دعوته للإصلاح الدينى فى الإسلام، وأفردت له صحيفة "القاهرة"، صفحة كاملة، ليكتب حول الحاجة لحركة إصلاح دينى مثل تلك التى حدثت فى أوروبا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، على يد "مارتن لوثر" و "جون كالفن"، مما يعنى أن كارثة ١١ سبتمبر كانت بفعل خلل فى فهم الدين، وأن الذين ارتكبوا هذه المجزرة خطفوا الإسلام وزوروه، ولكن لم يمض على هذا المقال غير أربع سنوات حتى قال جمال البنا فى المناسبة نفسها، وفى الذكرى الخامسة لكارثة ١١ سبتمبر من أن الذين ارتكبوا كارثة ١١ سبتمبر هم من "أشجع الشجعان"، وأن هجوم الانتحارى الهمجى على برجى نيويورك، وقتلهم حوالي ثلاثة آلاف من الأبرياء كان "أداءً رائعاً"، وهو ما قاله بن لادن حين وصف منفذى الكارثة بأنهم "كوكبة من أبطال الإسلام"، وأبدى جمال البنا، عظيم اعجابه بالانتحاريين الـ ١٩ الذين شنوا تلك الهجمات البشعة، كما صرّح لصحيفة "المصرى اليوم"، فى ١٠/٩/٢٠٠٦م !

فما الذى حصل لعقل جمال البنا؟

وهل كان مُقنعاً طيلة هذه السنوات الأربع، وخلع قناعه الآن؟

هل أصابته لوثة الإرهاب الدينى؟

وهل كان ذلك بسبب المال، أم التهديد بالقتل، أم بإغراء مادي معين، أم ماذا؟

أم أدركته عقد الذنب الدينية التى أصابت من قبله مجموعة من المفكرين التنويريين المصريين، منهم طه حسين الذى خضع لرأى رجال الدين والشارع الغوغائى، وحذف فصلاً كاملاً من كتابه العاصفة "فى الشعر الجاهلى" وغير عنوانه بعنوان جديد "فى الأدب الجاهلى"، وكقر بعد ذلك عن ذنوبه الدينية، وكتب عدة كتب فى تاريخ الإسلام، لم يقدم فيها شيئاً جديداً، عما هو معروف ومكشوف.

أم هل أصبح جمال البنا عنصراً فى تنظيم "القاعدة" عندما قال لجريدة "المصرى اليوم" فى التاريخ السابق وفى نفس الحديث الصحافى، من أن "أحداث سبتمبر فتحت آفاقاً جديدة، وأسلوباً جديداً، يمكن به تصفية الحسابات القديمة".

فهل انضم جمال البنا إلى أيمن الظواهرى ويوسف القرضاوى وفهمى هويدي وأحمد عاكف ومنتصر الزيات وغيرهم من منظري "القاعدة" المباشرين وغير المباشرين؟

وهل أصبح جمال البنا المثال الآخر للرّدة في الفكر الديني المصري المعاصر، مثله مثل خالد محمد خالد، الذي فصل الدين عن الدولة في الخمسينات، ثم عاد وقال في الثمانينات يربط الدين بالدولة في كتابه (الدولة في الإسلام، ١٩٨١)، وتخلّى عن كافة آرائه السابقة، تحت تهديد الإخوان المسلمين، وبقيّة الجماعات الدينية في مصر؟

هل انقلب جمال البنا على الحركة الليبرالية العربية، وارتد عن كل ما قاله من آراء، تحت أول تهديد من الإرهابيين في مصر، بحيث فاجأنا بقوله في جريدة "المصري اليوم" أن الثورة الخمينية الداعية إلى ولاية الفقيه هي "ثورة رائعة" مثله في ذلك مثل سيّد القمني الذي أعلن التوبة، وتخلّيه عن أفكاره السابقة، والتوقف عن الكتابة. وما زال متوقفاً حتى الآن؟

من يتصوّر أن ينقلب جمال البنا على يقيناته هذا الانقلاب الفجائي ويعلم بأن مجموعة من شباب الخليج ومصر، الذين فجّروا برجي نيويورك كانت "تتابع المشهد وتشهد فصوله المأساوية فصلاً فصلاً، وترى بأعينها الدول العربية تتساقط وتستسلم لأمريكا، وتشهد الأوغاد الأمريكان يمرحون ويبرطعون في الأرض المقدسة، ففكر هؤلاء الشبان في طريقة لإعطاء أمريكا درساً بطريقة فريدة لم تسبق. وهداهم التفكير إلى خطة ما كان يحلم بها أكثر المخرجين السينمائيين الأمريكيين، وأن يدمروا رمز الازدهار والخيلاء الأمريكية".

- ٤ -

لم يكن جمال البنا الشيخ العربي المسلم، أول من يبارك جريمة وكرامة ككارثة ١١ سبتمبر، فقد باركها وامتدحها كثير من الأشياخ العرب المسلمين قبله، واعتبروها أول "الحملات الهلالية" ثأراً للحملات الصليبية في القرن الحادي والثاني عشر. وامتألت الصحف والفضائيات ومواقع الانترنت بـ "الفكر الهلالي" التكفيري الذي ينادي بالجهاد الثأري لكل ما حدث للمسلمين منذ ١٤ قرناً حتى الآن، مقابل "الفكر الصليبي" الذي ينادي بالتفكير بدلاً من التكفير، وبتفجير الطاقات والمواهب بدلاً من تفجير الأجسام وقتل الأرواح وهدم المباني. ولم نكن نعترض على مثل هذه الآراء المتشجعة التي قال بها جمال البنا الآن وغيره في الماضي، فلا حادثة تاريخية مهمة، إلا واختلقت فيها الآراء ولكن المفاجأة هو أن ينقلب جمال البنا على عقبيه، كما لم ينقلب أية داعية ديني آخر، فانقلب من داعية للتنوير إلى آلة للتزوير، ومن فكر حدائثي إلى طبل خرافي، ومن داعية حدائثي إلى مهرج تاريخي، ومن فقيه تنويري إلى درويش من دراويش التكايا.

- ٥ -

يقول الشيخ محمد عبده: "لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين".

لهذا، ومن أجل هذا كله، نقول لكم: افصلوا الدين عن السياسة، واحذروا من آراء رجال الدين في السياسة والاجتماع مهما أظهروا من تنوير وتفهم وتقدم، فهم متقلبون وانقلابيون مغامرون، لا يؤمن لهم جانب، وهم يغترون بنا، فمواقفهم وآراؤهم ككتبان الرمال في الصحراء، تتغير كلما يوم حسب اتجاه الرياح وقوة هبوبها، وهم يستعملون النص الديني الواحد لليمين واليسار والوسط، ويطبخون بالنص الديني الواحد كافة الأكلات العربية والغربية، فهم طهارة مهرة يطبخون لك ما تشتهي من حديقة الإسلام المسروق والمخطوف، التي تنبت لهم كل ما يحتاجونه من خضروات.

ويظل كلامنا قائماً وناظراً ولائقاً بجمال البنا، ما لم ينكر جمال البنا صحة ما قاله من تصريحات في جريدة "المصري اليوم"، ويهتدي.

جمال البنا.. لا تعتذر عما كتبت ! بقلم شاعر النابلسي

- ١ -

كنتُ أحبُّ وما زلتُ أحبُّ شيخنا جمال البنا، وأقدره حق قدره، واحترم منزلته الكبيرة الدينية والفكرية، وكنتُ أتمنى وكان يتمنى معي من أحبوه من الكتاب والمفكرين والقراء أن لا يكون ما كتب في صحيفة "المصري اليوم" صحيحًا، وأن يكون مدسوسًا من قبل أعداء جمال البنا الكثر الذين يضيقون بفتاويه الدينية والجريئة والمتحدية لمجموعة كثيرة من أشياخ الدين، والتي تحتفل بها المرأة العربية أيما احتفال، ويحفظها الليبراليون عن ظهر قلب ويجادلون بها خصومهم من أشياخ الدين المتشددين، ولكن أمنيتنا وأمنية محبي الشيخ البنا، في أن لا يكون صحيحًا ما كتبه في مقاله المذكور، عن كارثة ١١ سبتمبر قد خابت، ومضى أسبوعان، ولم ينفِ الشيخ البنا أنه كتب هذه المقالة، أو يعتذر عن سوء فهمنا لمقالته - كما هي عادة السياسيين في النفي - رغم أننا نشرنا مقالنا (جمال البنا.. حلقة جديدة في سلسلة المرتدين) في أكثر من صحيفة ورقية، وفي أكثر من أربع صحف اليكترونية، وتناقلته مواقع كثيرة على الانترنت لا حصر لها، ومن المؤكد أن شيخنا قد قرأه أيضًا أو أحدًا من مريديه - وهم كثر - لفت نظره إليه، ويبدو أن الشيخ البنا مؤمن تمامًا بما قال في مقاله، من أن مجرمي كارثة ١١ سبتمبر، "أشجع الشجعان" وبأن الجريمة التي ارتكبوها، وقتلوا فيها ثلاثة آلاف من الأبرياء، كانت "أداءً رائعًا"، وهو ما قاله بن لادن حين وصف منفذي الكارثة بأنهم "كوكبة من أبطال الإسلام"، وأن الشيخ البنا فخور بإعجابه بالانتحاريين الـ ١٩ الذين شنوا تلك الهجمات البشعة.

فمعدرة لكل محبي ومريدي الشيخ البنا، وكل من توقع أن يكون ما كتبه الشيخ البنا في مقالته تلك غير صحيح، ولكن تبقى الأيام حبلَى بالمفاجآت.

- ٢ -

ولكن لو قلبنا الأمر على أكثر من وجه، لرأينا أنه من الواضح أن جمال البنا غير مؤمن إيماناً عقلياً - وهو الشيخ العقلاني - بما قاله في مقالته السابقة الذكر، ولو كان مؤمناً حقاً بما قال لما صبر كل هذه السنوات الخمس ليقول لنا في نهايتها أن مجرمي ١١ سبتمبر هم "أشجع الشجعان" وأن جريمتهم كانت "عملاً رائعاً"، فنحن لم نشهد في تاريخ الفكر الديني المعاصرة ردة كهذه الردة، ولا تراجعاً كمثل هذا التراجع الحاد والكلي، سيما وأن الشيخ البنا قد وُصف في تيار الفكر الديني بأنه من "التيار الإسلامي الليبرالي" من خلال كتبه: (الحرية)، و(التعددية في المجتمع الإسلامي)، و(الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة)، و(استراتيجية الدعوة الإسلامية) وغيرها، والتي كانت تركز على ليبرالية الإسلام وعقلانيته من خلال التالي:

- ربط الحداثة بالفكر الإسلامي.
- التوحيد الذي جاء به الإسلام يعني إطلاق التعددية بين الخلق وليس الوحدانية السياسية أو الحزبية.
- الإسلام هو دين العلمانية، ولا ربط بين الدين والدولة، ولكن هناك ربطاً بين الدين والأمة.
- ينادي البنا بوقف تفاسير القرآن، وإلغاء ما سبقها من تفاسير ذلك أن هذه التفاسير السياسية والأيدولوجية، قد أساءت كثيراً للإسلام، وأن هذه التفاسير ادعت على لسان القرآن والسنة ما ليس فيهما من معان، وأدخلت الكثير من الإسرائيليات والأحاديث الضعيفة والمنحولة.

وفجأة ينقلب الشيخ البنا ١٨٠ درجة، ويصبح صدىً لأصوات الكهوف في تورا بورا، ويردد ظلاميات وهذيان عُربان "القاعدة" التي تريد أن تعيد المسلمين إلى ما قبل القرون الوسطى المظلمة، فقولته بأن مجرمي ١١ سبتمبر هم "أشجع الشجعان"، وأن كارثة ١١ سبتمبر "أداء رائع" ليس مجرد تلاعب بالألفاظ، ولا هو بالعلك السياسي، فشيخ جمال البنا لا يتلاعب بالألفاظ ولا يعلك بالسياسة، وهو يعتبر نفسه مثقفاً عضويًا مسئولاً عن كل كلمة يقولها، وإنما أقواله هذه ردة من إيمان البياض إلى إيمان السواد، ومن إيمان القرن الحادي والعشرين إلى إيمان القرون الوسطى، ومن إيمان فقهاء الرحمان إلى إيمان فقهاء السلطان، ومن إيمان إسلام القرآن إلى إيمان الإسلام المخطوف، ومن إيمان إسلام المحبة إلى إيمان إسلام المطيئة.

فلماذا فعل جمال البنا كل هذا عن قناعة تامة كما يبدو لنا الآن، ولكنها قناعة من أجل هدف واحد، وهو هدف الشهرة والنجومية، الذي كان يسعى إليه جمال البنا منذ بدء حياته إلى اليوم، وعبر كتبه وفتاويه المثيرة والمتميزة.

- ٣ -

جمال البنا، هو ابن أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي، وأحمد البنا كان ساعاتيًا، يصلح الساعات، وتعلم هذه المهنة أيام كان يدرس في الإسكندرية في حلقات العلم الأزهرية في المعهد الديني الأزهرية، ولكنه كان في الوقت ذاته محققًا تراثيًا، حقق عدة كتب منها كتاب "الفتح الرباني لمسند الإمام أحمد بن حنبل"، ثم شرح كتابه هذا شرحًا موسوعيًا (٢٤ جزءًا) سماه "بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني"، وله في الحديث النبوي كتب، منها كتاب "بدائع المنز في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن"، و "منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود"، وله مؤلفات لم تطبع منها "إتحاف أهل السنة البررة بزبدة أحاديث الأصول العشرة"، إذن، فقد كان الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي علمًا في زمانه وشيخًا له مكانته ومقداره الثقافي الديني الكبير (توفي ١٩٥٨م)، وكان جمال البنا يسعى لأن يتفوق على والده في المجال الديني الثقافي نفسه، وهو سعي محمود، ولكن سعيه هذا كان قد وصل به إلى حد العقدة النفسية، وربما العقدة المرضية، كما يقول أحد عارفيه عن قرب، ومنهم الشيخ أحمد صبحي منصور.

فلو أننا اعتبرنا - فرضًا - أن العقد النفسية الأولى لجمال البنا كانت سمعة والده الشيخ أحمد البنا، فإن العقدة الأكثر حدة والأعمق أثرًا، كانت عقدة شقيقة الأكبر حسن أحمد البنا مؤسس حركة الإخوان المسلمين، فكان جمال البنا بكتبه وفتاويه المثيرة كالمفرقات، يريد أن يتفوق في الشهرة والنجومية على شقيقه حسن البنا الذي أصاب من الشهرة والنجومية منذ الأربعينات وحتى الآن الشيء الكثير، بل إنه يعتبر بفضل حركة الإخوان المسلمين في مصر والعالم العربي والعالم الإسلامي والغرب عمومًا محاذيًا للصحابه والخلفاء الراشدين في الشهرة والنجومية والتبجيل، بل إن كثيرًا من شباب الإخوان يعرفون جيدًا من هو حسن البنا، ولا يعرفون الكثير من الصحابة، ولا خليفة أموي أو عباسي، ولا سلطان عثمانياً، ولا حاكمًا فاطميًا أو مملوكياً، يعيش في ذاكرة الأتباع والمناصرين والمريدين بالملايين من حركة الإخوان المسلمين كحسن البنا.

وحسن البنا لم يكن زعيمًا سياسيًا فقط يُغتال اغتيالاً سياسيًا في عام ١٩٤٩م، ولم يكن فقط قائداً لحركة دينية سياسية كحركة الإخوان المسلمين التي هي الآن أكبر حزب ديني سياسي في العالم، حيث يوجد لها فروع في أكثر من سبعين بلداً في العالم، وتقدر أموالها وأصولها المنقولة وغير المنقولة بمليارات الدولارات، ولكن حسن البنا، إضافة إلى ذلك كله، كان مفكرًا دينيًا كبيرًا ترك من الآثار الفكرية - الدينية - السياسية الشيء الكثير، ولم يُكتب عن زعيم ومفكر ديني وسياسي في الشرق والغرب كما من الدراسات والأبحاث كما كُتب عن حسن البنا.

وقد شعر جمال البنا بأن حسن البنا لم يترك له مكاناً مهماً تعلم واجتهد وأفلح، وأن المكانة الدينية والسياسية لحسن البنا قد طغت على مكانة ملوك أسرة محمد علي في مصر، وأنها طغت كذلك على بعض رجال الثورة المصرية فيما بعد، وما زالت هذه المكانة لحسن البنا إلى الآن، تزداد بريقاً ووهجاً وتجددًا كلما انتصرت حركة الإخوان المسلمين في قطر من الأقطار، وارتفع شأنها في مصر من الأمصار.

فماذا يفعل جمال البنا حيال هذا الهرم الكبير، لكي يتفوق، ويشتهر، ويبرز، ويصبح نجمًا كشقيقه، أو حتى يقترب من هذه النجومية الساطعة؟

- ٤ -

لا غبار أن يكون أبي شيخًا مشهورًا كأحمد البنا، ولا غبار أن يكون شقيقي الأكبر زعيمًا دينيًا وسياسيًا كبيرًا كحسن البنا، ولا غبار عليّ أن أسعى لأن أكون نجمًا ساطعًا مثلهما، ولكن المهم أن لا يكون مثل هذين العاملين، سببًا في إحداث عقدة نفسية مرضية لي، أتخطب بها، بحيث أنني أكفر بما كنت أو من، وأؤمن بما كنت أكفر، وأتحول إلى مطرب ديني وفكري من مطربي السهرة العربية الصاخبة الحالية، وأقول ما يرضي الجمهور، ويزيد من شعبيتي الجماهيرية على حساب الحقيقة، لكي أسعد الجمهور، وأنال تصفيقه واستحسانه مقابل التنازل عن يقيناتي وقناعاتي.

وجد جمال البنا، أن أسهل الطرق إلى الشهرة والنجومية، هي معارضة ونقض معظم ما قاله شقيقه حسن البنا، وجاءت به جماعة الإخوان المسلمين، أي أن يقف معارضاً لمعظم أفكار شقيقه ولخطاب جماعة الإخوان المسلمين الديني والسياسي والاجتماعي، فجمال البنا رغم عمله المتواصل لمدة نصف قرن بين طبقة العمال، وجهوده الكبيرة في مجال العمل النقابي والعمالي الذي ظل محور مشروعه الفكري، إلا أنه لم ينل من الشهرة والنجومية ما يريد ويأمل.

فماذا فعل جمال البنا؟

لقد فعل، وقال التالي:

(١) العمل في السياسة إلى جانب العمل كشيخ من شيوخ الأزهر، بمعنى عدم ترك السياسة للسياسيين، ومزج الرأي السياسي بالرأي الديني الشرعي، وهو عارض بذلك دعوته ودعوتنا بضرورة ابتعاد رجال الدين عن السياسية وعدم خوضهم في المعارك السياسية، وفصل الدين عن السياسة، ونحن غضضنا النظر عن عمله بالسياسة وهو الشيخ الأزهرى، عندما شعرنا بأن مواقفه السياسية الليبرالية مما جرى في أفغانستان ومما جرى في العراق على وجه الخصوص تخدم توجهنا، وتساند دعوتنا، وتؤيد مطالبنا، خاصة عندما قال إن الجهاد إلى جانب الحاكم الكافر العادل فرض عين أكثر من الجهاد إلى جانب المسلم الظالم، وكان في ذلك تأييداً واضحاً لخلع صدام حسين بالطريقة التي تمت فيها، فجر التاسع من نيسان ٢٠٠٣م.

(٢) وقف جمال البنا مواقف سياسية واضحة وصريحة معارضة لمواقف الإخوان المسلمين، وبالتالي معارضاً صريحاً لشقيقه حسن البنا فيما لو كان حياً بيننا الآن، فالإخوان المسلمون الذين أيدوا غزو صدام للكوييت والاعتداء على شرق السعودية، عارضه جمال البنا، وغزو أمريكا لأفغانستان والعراق الذي عارضه الإخوان المسلمون أيداه جمال البنا، وكان جمال البنا على نقيض تام مع مواقف الإخوان المسلمين من عدة قضايا سياسية.

(٣) أصدر جمال البنا عدة فتاوى معارضة لفتاوى أخيه حسن البنا، فحسن البنا قال بوجوب إقرار العدل للصحابة إلزاماً كما استقر المنهج عند أهل السنة والجماعة، وجمال يرى أن الصحابة قد يكذبون في الحديث.

وحسن يرى أن الإجماع دليل من أدلة الأحكام المعتمدة عند أهل السنة والجماعة، وجمال يراه خرافة لا يمكن أن تتحقق.

وحسن يؤمن ما اصطلح على تسميته بعلوم القرآن جملة وتفصيلاً؛ وهي العلوم التي استقر علماء السلف على اعتمادها كقواعد وآليات لفهم النص القرآني، وجمال يرفض ذلك.

وحسن البنا قال بالحجاب في الإسلام، وجمال نفى أن يكون الحجاب من الإسلام.

وحسن اعتبر أن التدخين في رمضان يفسد الصيام، وجمال نفى أن يكون التدخين مفسدة للصيام، وأباح التدخين أثناء الصيام، وحسن استنكر إمامة المرأة للمسلمين في الصلاة، وجمال أباح إمامة المرأة في الصلاة.

وحسن أبطل الزواج الشرعي ما لم يوجد شهود وولي أمر، وجمال قال بصحة هذا الزواج بدون شهود أو ولي أمر.

وحسن أجاز وقوع طلاق الرجل للمرأة منفرداً بدون موافقة الزوجة، وجمال أنكر ذلك، ورفضه.

وعلينا أن نلاحظ أن لا شيخ في الإسلام قديماً أو حديثاً أفتى بما أفتى به جمال البنا، وقال بما قال جمال البنا، أو أيده في فتاويه، مما يدل على أنه لا أصول في الإسلام لفتاوى الشيخ جمال، وأن فتاويه عبارة عن اجتهاد شخصي، ومواقف شخصية معارضة، لا سند لها، ولا أساس، ولا برهان مقنعاً.

وتلك واحدة من مظاهر فوضى الفتاوى المتضاربة، والتي أوقعنا في مأزق وكوارث ومهالك، لا حدود لها.

وبعد، فهل من الممكن أن يتخلى الشيخ جمال البنا عن مواقفه وفتاويه؟

إن ذلك يعني بكل بساطة تخليه عن نجوميته وشهرته، وهو بذلك لن يعتذر عما كتب.

السلام عليك،،،

* * *

[٤]

رد جمال البنا على شاكر النابلسي

الأستاذ شاكر النابلسي يعرف شيئاً عن جمال البنا، ولكن ما يجله عن جمال البنا أضعاف ذلك، وقد

أوضحت كلماته الأخيرة إنه لا يعرف جمال البنا.

فما يجله أنني لم أقرأ ما كتبه عني، بل - وأرجو ألا يجد غضاضة في ذلك - لم أقرأ له هو شخصياً

شيئاً، ولا كلمة واحدة، ومما يجله أنني لا أتابع ما يكتب عني، بل ولا أتابع أعماله نفسها، فلا أعيد رؤية لقاء

تليفزيوني، ولا مقال منشور، وكثيراً ما يأتيني مندوبون عن صحف ويجلسون جلسات طويلة ويسجلون أحاديث

عديدة ثم يمضوا، ولا أحاول بعد هذا أن أتعبهم، إلا إذا اتصل بي أحدهم ليخبرني أن المقال نشر في العدد

الفلاني.

ومما يجله أنني لا أتابع الصحافة، ولا التلفزيون، ولا النت، لأنه ليس لدي وقت، وإذا تابعتها فلن أجد وقتاً للتأليف، وهو رسالتي الحقيقية، وفي كل عام هناك "كوتا" من الكتب يجب أن تصدر.

ومما يجله أنني لا أرد على ما يقوله الآخرون عني، أولاً لما ذكرت من أنني أصلاً لا أقرأها وفي الحالات القليلة التي أعلمها لا أرد أيضاً لأن النقد قد يعود إلى اختلاف المناهج، أو للارتباط بمصالح أو لمجرد التشويه، وكلها مما لا يتسع له، أو مما لا يستحق الرد، فلو قال أحد الشائنين إن جمال البنا لا يفهم شيئاً، أو أنه مدفوع من دولة ما، أو أنه غاوي شهرة، فهل أشرف مثل هذا الإسفاف برد؟

لم أعلم بما كتبه الأستاذ النابلسي، أولاً ولا آخرًا إلا من صديقي الأستاذ سامح سامي وهو مراسل شفاف في القاهرة، فطلبت منه إرسال صورة لهذه المقالات، فأرسل لي آخر أيام رمضان ١٠/٢٣ بالبريد الإلكتروني مقاله " لا تعتذر ".

بادئ ذي بدء أخذ الأستاذ شاعر النابلسي مفتاح حديثه عن جمال البنا من علم النفس، ومن "عقدة" الأب والشقيق، علم النفس علم ضال، متخبط ليس له معايير موضوعية، ولكن له تجارب عديدة ورغم أن بعض نتائجه لها طابع "الظاهرة" التي قد تصل إلى شاطئ المعرفة العلمية، ولكنه بكل تأكيد يصدر أحكاماً اعتباطية، ومن منطلق نظرية افتراضية لا تنطبق على كل الناس، فضلاً عن أن الاعتماد على منهج واحد لا بد وأن يصم صاحبه بنظرة أحادية.

لو أنه أخذ مفتاحه من واقعة عملية لا شك فيها، هي أن بعض أفراد هذه الأسرة يتسمون بعلو الهمة وقوة الإرادة والطموح و "الرسالية"، وهي ملكات نفسية ينعم الله بها على من يشاء وهذه كلها وقائع ثابتة، لكان هذا مفتاحاً سليماً وواقعياً.

الشيخ الوالد رحمه الله الذي فر من القرية، وتنازل عن قراره من الأرض له لكي يتعلم وينذر حياته للمعرفة، والذي ما أن ألم بمفاتيح المعرفة الإسلامية في جامع القائد إبراهيم في الإسكندرية حتى بدأ مشروعاً لم يقم به أحد الأئمة الأعلام من المسلمين لمدة ألف عام !

ولكي يكون سيد نفسه، ولا يربطها بوظيفة تعلم تصليح الساعات، وهي حرفة لا تشغله، ويمكن أن لا يمنحها من الوقت إلا ما يحقق له شيئاً من التغيير من القراءة والكتابة.

العمل الذي قام به هو تصنيف مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني الذي يضم قرابة عشرين ألف حديث رتبت على أساس الراوي وليس على أساس الموضوع، وكان هذا سبباً في عدم الاستفادة من هذه الموسوعة في استخراج أحكام فقهية.

حاول ابن كثير أن يرتبه ولكنه عجز وقال: "لا زلت أقرأ فيه والسراج ينونص حتى كف بصري".

لم يفتع الشيخ الوالد بهذا العمل، ولكنه أضاف شرحاً لكل حديث يتناول السند، وغريب اللغة، والتخريج ثم الإحكام، وهذا الشرح يماثل المتن، ويزيد عليه.

استغرق هذا العمل من الشيخ الوالد خمسة وثلاثين سنة قضاها في مكتبه في عطفة الرسام المتفرعة من الغورية، بلا أضواء ولا شهرة، معتكفاً عن العالم بأسره.

الأغرب والأعجب أن هذا الرجل - المأذون الشرعي - الساعاتي - قام بطبع الكتاب على حسابه ! وأتم طبع ٢٢ جزء، علماً بأنه كان رجلاً فقيراً يعول أسرة كبيرة.

هذا هو علو الهمة، أو هو الإيمان بدور يضحى في سبيله بكل ما يسعى الناس العاديين إليه، الشهرة، الثراء، المنصب.. الخ.

يمائل الشيخ الوالد في علو همته، وإيمانه بدور رسالي ابنه البكر الإمام الشهيد حسن البنا.

حسن البنا خريج دار العلوم، معلم الخط كما نبذه شأنوه، كان يمكن أن يكون معلماً عادياً، فما أكثر المعلمين في المدارس الابتدائية.

ولكنه كان الرجل الذي أقام "الإخوان المسلمين" وفرض بصمته على الدعوة الإسلامية في العالم أجمع، وأعاد الإسلام إلى صدارة المجتمع بعد أن وضع في ركن قصي، هنا أيضاً نجد علو الهمة والإيمان برسالة يضحى في سبيلها بكل شيء.

جمال البنا أيضاً سار على الخط، ورزق الموهبة نفسها، وأراد لنفسه من البداية أن يكون كاتباً، واطرح المجتمع البورجوازي بمثله المعبودة (الوظيفة، المنصب، المال، الاستماع، الأسرة، والأبناء.. الخ).

من طفولته وهو يقرأ، لأن صحته لم تكن تساعد على أن يلعب أو يكون له هواية، وكانت الهواية المناسبة والمفضلة هي القراءة، ويمكن القول أنه يقرأ من العاشرة حتى الآن، وأنه لو خيّر بين كتاب ممتع، وعرض لمكات الجمال لفضل الكتاب، ولهذا استطاع أن يصدر أكثر من مائة كتاب وهي وحدها شهادة له.

كان على الأستاذ النابلسي أن يأخذ نقطة انطلاقه عن جمال البنا:

أولاً: الثقافة الموسوعية التي مكنته من أن يصدر كتباً لها أصالتها في مجالات متعددة كالعمال والعمل النقابي، الدراسات السياسية، المواضيع الدينية الحركات الشعبية، عمالية أو نسائية أو جماهيرية لتحقيق العدالة والمشاركة في السلطة.. الخ، وكتبه شاهدة بذلك.

ثانياً: صفة الاستقلال، والاستقلال لا تعني بالضرورة المخالفة، ولكنها تعني بالدرجة الأولى عدم التبعية، وكان هذا في أصل عدم انتمائه إلى أي حزب أو هيئة، أو عدم ارتباطه بوظيفة، وقد تحمل صعوبات عديدة وأخذ نفسه بتقشف حتى لا يضطر ليمد يده، وأغناه الله من فضله في سنواته الأخيرة عندما تبرعت الشقيقة فوزية - رحمها الله - بثروتها التي آلت إليها نتيجة عمل أربعين عاماً هي وزوجها في السعودية، وكانت قرابة خمسمائة ألف جنيه أودعت البنك كوديعة يصرف من عائدها، وأنشأنا مؤسسة فوزية وجمال البنا للثقافة والإعلام الإسلامي، وبهذا أمكننا أن نطبع وننشر كتبنا دون حاجة إلى معونة خارجية.

هذه يا أستاذ نابلسي نقط عملية كان يمكن أن تركز عليها في تحليل شخصية جمال البنا وهي كلها حقائق، لا أن تعود إلى فرض تخميني خاطئ علمياً ومرفوض أدبياً.

لم يأخذ النابلسي منطلقه من هذه الحقائق الواقعية، ولكن أثر أن يلوذ بعلم النفس ويستخدم نظرياته الجدلية التي لا يمكن أن تثبت علمياً لأنها حكم على النفوس والسرائر طبقاً لقواعد وضعها فرويد نتيجة لتجاربه على المصابين باضطرابات عضوية ونفسية، وليس على الأصحاء، وبالتالي فإن كل أحكامها مشكوك فيها.

ولكن يبدو أن النابلسي أثره لأنه يمكنه من تشويه صورة جمال البنا بعد أن "فجع" فيه وظهر له أنه ليس من نَقْدَةِ الإسلام، ولكنه من حماة الإسلام، وأن ثوريته إنما هي على حكم الفقهاء وليس على الإسلام نفسه الذي يؤمن به ويدافع عنه، وأنه ليس من الذين يصفقون لأمريكا، ولكن يحكم عليها بعملها، فادعى أن جمال البنا لم يجد سبيلاً للشهرة إلا بنبض أعمال أبيه وأخيه !!

في أي شرع يكون الاختلاف في الفكر وسيلة رخيصة للشهرة، وهل كان أرسطو عندما اختلف عن أستاذه أفلاطون يسعى للشهرة؟، وهل أساء هذا إلى أرسطو أو أفلاطون؟، وهل كل الفلاسفة والمصلحين الذين يعلنون آراء جديدة مخالفة لما يسير عليه الناس يبتغون الشهرة؟

الأستاذ النابلسي لا يعرف شيئاً عن العلاقة الخاصة جداً بين الابن البكر وآخر العنقود ! كانت العلاقة بين حسن البنا وجمال البنا مشحونة بعاطفة حميمة تقوم على التقدير المتبادل، فأنا أرى في حسن البنا أحد المنظمين القلائل للجماهير، وهو في هذا يفوق لينين - المنظم الأكبر في العصر الحديث - وقد تحدثت عن حسن البنا في كتاب "ما بعد الإخوان" بما يفي بحقه من التقدير والإعجاب، كما تحدثت عنه في كتاب "خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه"، وكتبت ترجمة في قرابة ثلاثين صفحة إنصافاً للشيخ الوالد وتقديراً لعمله العظيم وهمته العالية، وبالطبع لم يقرأ النابلسي هذين الكتابين.

فهذه كانت علاقتي بالوالد والشقيق، ولم يؤثر عليها تحفظاتي على الإخوان التي كنت أدلي بها في جلسات عديدة للمرشد، فكان يسمع وابتسم دون أن يناقش أو يقبل أو يرفض ؛ لأنه يعرف أنه هكذا جمال البنا، له رؤيته الخاصة ولا أبالغ أنه كان يقدر هذه لرؤية، وروي لي الشيخ عبد العزيز الخياط الذي كان وزير الأوقاف الأسبق في الأردن أنه عندما كان يدرس العلم في الأزهر سنة ١٩٤٦م دخل هو ومجموعة من زملائه على المرشد فوجده يقرأ في رسالة صغيرة كنت قد أصدرتها للتو بعنوان "على هامش المفاوضات"، أي المفاوضات التي كانت تدور بين صدقي باشا رئيس وزراء مصر ومستر بيفين رئيس وزراء بريطانيا، فقال لهم "تعلموا السياسة من هذا الشاب"، فقد كتب جمال رسالة حسنة عن المفاوضات.. الخ !!

كانت هذه هي العلاقة ما بين جمال البنا وحسن البنا علاقة لا يفهما الذين لا يعلمون إلا علم النفس الفرويدي ويصدروا أحكاماً اعتباطية تحقق مآربهم، لأن نظرية "عقدة أوديب" و "عقدة اليكتر" وغيرها من العقد لا يحكم بها إلا معقدون ! ولا يقوم لها قائمة إلا في سوق العقد، أما في مجال الحياة، ولدى الأسوياء، فهناك اعتبارات، وقوى أخرى.

وعندما يقول شاكر النابلسي "وجد جمال البنا أن أسهل الطرق إلى الشهرة والنجومية هي معارضة ونقض معظم ما قاله شقيقه حسن البنا"، فإنه يقول إفكاً ويثبت أنه ليس فحسب جاهلاً بالحقيقة، ولكنه أيضاً مغرض.

* * *

ما الذي جعل النابلسي ينقلب من المعجب بجمال البنا إلى معارض له؟

لأن جمال البنا كتب مقالة بعنوان "لا راحة لأمريكا بعد اليوم" في أعقاب ذكرى أحدث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، لم يسر فيها مع القطيع، ولا مع مستر بوش وهجومه على الفاشية الإسلامية، ولكنه صعد الموضوع إلى ما سبق ١١ سبتمبر، إلى السياسة الأمريكية التي أغرت صدام حسين بإعلان الحرب على إيران وزودته بأسلحة الدمار الشامل، وقام صدام كأي ديكتاتور غبي بالمهمة التي استنزفت ثروة العراق وأجهضت الثورة الإيرانية الصاعدة، ثم أغرت مرة ثانية صدام بغزو الكويت عندما لوحث له السفارة الأمريكية بعدم وجود معاهدة مع الكويت فانطلق هذا الثور الهائج ليجتاح الكويت، وعندئذ أخذت أمريكا تحصد ثمرة مؤامرتها على المنطقة فأسرعت لنجدة الكويت والسعودية وأرسلت جنودها لتحتل قواعد في هاتين الدولتين، تقوم الدولتان بدفع تكلفتها، ولم يكن من المناظر السارة أن يشهد أي واحد عربدة الجنود والمجنذات الأمريكيين، في أقدس الأماكن،

ثم عمدت إلى تصفية المكاسب الهزيلة التي كانت القضية الفلسطينية قد حصلت عليها في أوسلو وأيدت السفاح شارون وقال عنه بوش أنه رجل سلام، وساندت إسرائيل في سياساتها الوحشية وتحدثت العالم كله في ذلك.

كانت مجموعة من الشباب المسلم ترقب هذه السلسلة من المؤامرات الأمريكية التي انتهت بالهيمنة الأمريكية الكاملة على المنطقة العربية، وأرادت أن تعطي أمريكا درساً فأحكمت هذه الخطة "المريعة الرائعة" كما ذكرت، وقلت أنها مريعة لأنها أدت إلى قتل ثلاثة آلاف مدني، وأنها رائعة لأن إخراجها ما كان يمكن لأي مخرج سينمائي أن يصل إليه.

لم يذكر النابلسي كلمة "المريعة" التي سبقت الرائعة، ولكنه ذكر الرائعة فحسب وفسرها كما يشاء، لا كما يوحي به السياق.

قلت بعد هذا أن حوادث ١١ سبتمبر فتحت مجالاً جديداً للمقاومات الشعبية لم يكن معروفاً ولم يطبق إلا في حالة فلسطين التي لها ظروفها الخاصة جداً، وقدمت (أي أحداث ١١ سبتمبر) مثلاً يمكن أن يتبع عندما تضيق الشعوب باستبداد حكامها، فلا تجد إلا هذه الطريقة، وبهذا فلن يكون لأمريكا - ولكل الدول المستبدة - راحة بعد اليوم.

إن أمريكا ذات التاريخ الأسود من استئصال أهل أمريكا الأصليين واغتصاب أرضهم، مروراً باسترقاق شباب أفريقيا وتسخيرهم في زراعتها حتى إلقاء قنبلتين نوويتين افتراءً وعتواً واستعلاءً عندما كانت اليابان على استعداد للتسليم، إن أمريكا هذه عليها أن تراجع تاريخها قبل أن تندد بالإرهاب المزعوم.

افهم أن هذا لا يعجب النابلسي المستنزل بالحماية الأمريكية، ولكنها رؤية لا يستطيع أحد أن يقول أنها زائفة أو مختلقة أو لم تقم على أسس.

لقد تقبلنا أن تتدخل أمريكا في العراق التي كان يحكمها طاغية شرير أرعن، ولم يكن هذا ممكناً بعد أن فشلت كل الجهود العربية، فجاء بوش - وهو أكثر رعونة من صدام - وخلص العراق منه.

كانت أمريكا يمكن أن تدخل كمبررة، ويمكن أن يلقاها الشعب العراقي بالورود، ولكنها طبقت سياسة "الكابوي" الفجة، الفظة، فخرست تأييد الشعب العراقي وقبلت أن تكون "محتلة" ومزقت الشعب ونهبت موارده، فأين هذه السياسة من سياسة بريطانيا في عشرينات القرن الماضي عندما أرسلت "جرتروود بل" للعراق لإعداده ليكون الملك فيصل ملكاً تحت الانتداب البريطاني، فقامت بهذه المهمة خير قيام ووحدت العشائر، وحمت التراث والآثار العراقية التي كانت راعية له، وهي الآثار التي نهبت "عيني عينك" في الأيام الأولى للاحتلال.

* * *

نحن لم نتغير يا سيد نابلسي إن روح جمال البنا واحدة في كل كتاباته ضد السياسات الاستعمارية قديماً وحديثاً، ضد الغطرسة، وضد سياسة تريد أن تفرض سيادتها وهيمنتها على العالم بقوة السلاح، وأنها تستطيع أن تدمر وتقتل.

نحن لم نتغير يا سيد نابلسي، وإنما الذي تغير هو أنت وبنسبة ١٨٠ درجة من مؤيد لجمال البنا إلى شائئ له لمجرد كتابه مقال ندد فيه بسياسة مستر بوش وصقوره.

وندع للقراء أن يفهموا دلالة هذا الانقلاب.

(٦)

أمريكا تنقلب على حلفائها

فاعتبروا يا أولى الألباب (*)

قال سياسي بريطاني أن بلاده ليس لها أعداء دائمون ولا أصدقاء دائمون، ولكن لها مصالح دائمة.

وهذا الخط هو الذي تنتهجه الدول كلها، وبوجه خاص الدول ذات الطبيعة العملية مثل بريطانيا في القديم، وأمريكا صاحبة فلسفة "البراجماتزم" التي تقيس كل فكرة أو تصرف بمقدار ما يحققه من فائدة ونفع.

وقد عمدت أمريكا إلى تطبيق هذا المبدأ فهي تختار حلفاءها عندما تكون في حاجة إليهم لتطبيق مصلحة معينة لها، وما أن تنتهي هذه المصلحة حتى تنتكر لهم، ويغلب أن تنقلب عليهم.

كان أول حلفائها - ولا تستغرب - هو ابن لادن، وقد وجدت فيه خير من يقود الكفاح الشعبي ضد الغزو السوفيتي لأفغانستان، فزودته بالسلاح وتقبلت دعوته "للجهاد" في كل الدول العربية، وقام ابن لادن بهذا الدور لا تحقيقاً لرغبة أمريكا، ولكن إيماناً منه بضرورة تطهير بلاده من دنس الاحتلال السوفيتي.

بعد أن قام ابن لادن بهذا الدور، لم تعد للولايات المتحدة مصلحة فيه، بل انقلبت عليه، لأنه أراد مواصلة مقاومة سيطرة العالم الغربي - وليس السوفيتي فحسب - على بلاد المسلمين.

وأصبح بن لادن هو العدو الأول للولايات المتحدة وأصبحت "القاعدة" هي الشبح المخيف أمام الولايات المتحدة.

واصطنعت الولايات المتحدة شاه إيران الذي ألقى إليها السلم وتعاون معها قلباً وقالباً، واعتبر نفسه شرطي أمريكا في المنطقة وزودته الولايات المتحدة بالسلاح والعتاد، ودربت رجال السافاك على فنون التعذيب والملاحقة واضطهاد المعارضين.. الخ، ولكن جهودها كلها باءت بالفشل على صخرة شيخ عجز عنيد، وعدو لدود للشاه، واستطاع هذا الشيخ الذي لم يكن يملك سوى سجادة صلواته أن يؤلب الشعب الإيراني، وأن يثير الشارع الإيراني، وأن يقوم بأول ثورة حقيقية في العصر الحديث لم تسبقها إلا ثورة البلشفيك بزعامة لينين سنة ١٩١٧م.

وتخلت أمريكا عن حليفها القديم وشرطيها الحارس عندما وجدت أنه فقد الحول والطول، وأنه أصبح شريداً ورفضت استضافته، وتملصت منه حتى آواه السادات.

واصطنعت صدام حسين لأنها وجدت فيه الطاغية الذي يمكن أن يحكم الشعب العراقي الأبوي الذي عرف بشجاعته وأفته، وزودته بأسلحة الدمار الشامل، فاستخدمها ضد الأكراد والشيعة، وقتل عشرات الألوف منهم، ونشر حكم الإرهاب في العراق حتى شاع بين الناس ما أراده طاغية العراق القديم زياد بن أبيه "أنج سعيد.. فقد هلك سعيد".

ورأت أمريكا أن صدام المجنون بأوهام العظمة والفتح هو خير من تسلطه على إيران حتى يجهض ثورتها الناهضة، فزج بنفسه وشعبه في حرب معها طوال ثمان سنوات، هلك فيها مئات الألوف من الجانبين

دون أن يحقق طائلاً أو يكسب انتصاراً، وتحقق لأمريكا ما أرادت فقد أوهنت حليفها حتى لا يتمرد عليها وأجهضت الثورة الإيرانية، وأفنت دفعتها على شفا السيوف، بدلاً من أن توجهها لخدمة الشعب وللنهضة بالصناعة والتجارة.

وسارت الولايات المتحدة خطوة أخرى، عندما أوحت سفيرة أمريكا في بغداد بطريقة غامضة أن أمريكا قد تغض الطرف إذا حقق صدام أمله القديم في استلحاق الكويت، وابتلع صدام الطعم، فدخل الكويت واعتبرها المحافظة رقم ١٩ للعراق، وضرب عرض الحائط بكل محاولات الجامعة العربية ومناشدة الرئيس مبارك أن يتراجع عن هذا التصرف الأخرق، وأن ينسحب حتى لا يعطى أمريكا ذريعة للتدخل، لأنها إذا دخلت، فلن تخرج، ولكنه ركب رأسه، وكأنما يريد أن يحقق لأمريكا هدفها، وعندئذ حانت لأمريكا فرصة العمر أن تتدخل بحجة حماية الكويت و"الشرعية الدولية"، وأن يكون لها وجود شرعي وثابت في المنطقة بحيث تستطيع أن تتحكم في أغنى منطقة نفطية في العالم، وقد كان وتدخلت أمريكا ومعها مجموعة دول العالم - منهم دول عربية عديدة - وهزمت صدام شر هزيمة في "أم المعارك"، وأعادته خاسراً إلى حدوده، ولكنها لم تأخذ قواتها وترحل، ولكنها توصلت إلى بقاء طويل برضاء دول المنطقة وعلى حسابها ! وأي شيء أفضل من هذا؟ أن تحكم المنطقة برضاء، وعلى حساب حكوماتها حتى لا يعاود صدام الهجوم.

لم يعد لصدام بعد ذلك أي مصلحة بالنسبة للولايات المتحدة فانقلبت عليه وأخذت تحاسبه على الأسلحة التي سلمتها إليه هي نفسها، وهذا هو سر إلحاح أمريكا على تدمير أسلحة الدمار الشامل لدى صدام، لأنها هي التي سلمتها إليه، ولأنها تعلم حق العلم مدى خبثه ودهائه ومراوغته، وأنه مهما أظهر من موافقة، ومهما أدعى تدميرها، فإنه يحتفظ بها في مكان ما، ومن ثم أصبح من الضروري القضاء عليه رغم كل مظاهرات العالم، وكل تأكيدات المفتشين الدوليين عن تعاون العراق، إن أمريكا أدري به.

ولا أعلم في سوابق التاريخ حاكماً يرتهن شعبه ويعرضه للدمار في سبيل سلامته الشخصية حتى بعد أن عرضت عليه سبل السلامة، كما لا أعلم شعباً يتمسك بطاغيته حتى تصل الأمور إلى هذه النهاية، ففي العادة يخلص عزرائيل الشعوب من طغاتها في الوقت المناسب !

* * *

إن سوابق أمريكا في علاقاتها بحلفائها جدية بأن تبعث الخوف والفرع في نفوس الحلفاء الذين جمعهم وإياها مصالح مشتركة وخير ضمان تجاه تقلب أمريكا وغدرها بحلفائها، هو أن لا يضع هؤلاء كل ثقتهم فيها ولا يضعوا "البيض" كله في سلة واحدة، وأهم من هذا أن يعتمد الحكام على ركيزة شعبية حقيقية تساندهم بقوة وإيمان، وليس بمظاهرات مدفوعة الأجر أو بمزايدات الله أعلم بها، إن هذا وحده هو الذي يحول دون غدر الولايات المتحدة بحلفائها، لأنها لا يمكن أن تدخل في معركة مع شعوب، فهي لا تطيق الدخول في معركة طويلة الأمد، ولا يمكن أن تحكم الشعوب بالحديد والنار، وتجربة فتنام كامنة في أعماقها، ولكنها تدخل المعركة ضد حكام تكفر بهم شعوبهم، ويمكن أن تستعين بفريق من الشعب نفسه ضدهم كما حدث في أفغانستان، وكما يحدث في الاستعانة بالشيعة والأكراد ضد صدام.

فاعتبروا يا أولى الألباب..

(٧)

تجديد الخطاب الديني (*)

دعا مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان عددًا من المفكرين لدراسة تجديد الخطاب الديني وأعطته اسم "اللقاء التشاوري النوعي حول السبل العلمية لتجديد الخطاب الديني" في باريس خلال المدة من ١٢-١٣ أغسطس سنة ٢٠٠٣م.

اعتذر عدد من الذين ظهرت أسماؤهم في جدول أعمال اللقاء وممن عهد لهم بكلمات مثل الأساتذة أدونيس، وهشام جعيط، ومحمد شحرور وعبد المعطي بيومي، ولا جدال أن عدم حضور هؤلاء نال من بلوغ اللقاء درجة من الكمال بالإضافة إلى أن عددًا كبيرًا من الحاضرين كانوا من الماركسيين أو القوميون وبعضهم أسهم في "استئصال" الإسلاميين في بلادهم، ولكن اللقاء مع هذا كان مفيدًا، لأن اختلاف الفكر لا يفسد المناقشة إذا كان موضوعيًا، وإنما هو يكشف عن أبعاد من الحقيقة.

بعد الكلمات التمهيدية والإجرائية العادية بدأت الكلمة الأولى التي ألقاها الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي وكانت بعنوان "نحن في حاجة إلى فقه جديد" أبرز فيها هذه الحاجة ووضع بعض الخطوط لها وقد رحبت به فارسًا في مجال التجديد الديني كما هو فارس في مجال الأدب والفن ورأيت أن مشاركته نوع من الاستجابة لما طالبت به من مشاركة المثقفين في الشأن الإسلامي الهام.. والفكر الإسلامي الذي لا يمكن تجاهل أثره ووزنه في المجتمع.

وفي الجلسة الثانية من اليوم نفسه نوقشت الكلمة التي قدمتها وكانت بعنوان "تجديد الخطاب الديني" وقلت إنه كائنا ما كان مدلول كلمة "الخطاب" والسر في اللوازم بها فإنها في النهاية تعود إلى الدين، وبالتالي "فهم الدين" فلن يكون هناك خطاب ديني سليم ما لم يكن هناك فهم سليم للدين ثم انتقلت إلى نقطة هامة هي أن البشرية سلخت معظم تاريخها في عبادات وثنية، وأن الأديان السماوية لم تظهر إلا أخيرًا جدًا بعد أن تأصلت بعض المفاهيم الوثنية في نسيات الناس مثل الجان والخرافة والقداسة والكرامات والسحر.. الخ، ولم تستطع الأديان السماوية التخلص منها تمامًا سواء في ذلك اليهودية أو المسيحية أو الإسلام ثم انتقلت إلى نقطة أن الإسلام بوجه خاص، وبالنسبة لانتشاره السريع تأثر بنفوذ الموالى وما يحملونه من رواسب ثقافية حضارية مختلفة عن الإسلام ثم كان تحول الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض وسيادة الاستبداد هذه العوامل أدت بالعلماء والفقهاء إلى العكوف على مجالات العبادة بعد أن أبعدهم الملوك والحكام عن المجتمع والحياة وشيئًا فشيئًا ظهر "تراث" ضخم فرض نفسه على الإسلام وتلقته الجماهير المعاصرة كأنه قضاءها وقدرها وعكفت عليه بقدر ما انصرفت عن القرآن أو عن عمل الرسول وهما سر قوة الإسلام. ودعت الورقة إلى تنحية هذا التراث من تفسير، وحديث وفقه، والعودة إلى القرآن نفسه وضبط السنة بضوابط من القرآن، وقلت إنني عندما فعلت هذا وجدت حرية الفكر والعقيدة على مصراعيها وأنه لا يوجد شيء اسمه حد الردة ووجدت المساواة ما بين الرجال والنساء ووجدت العدل في الحكم باعتباره المعيار الأعظم ووجدت أن الإسلام دين وأمة وليس دينًا ودولة باختصار وجدت اسمي المواثيق الدولية لحقوق الإسلام والحقوق المدنية السياسية.

وكانت الجلسة الثانية (بعد الظهر) لمناقشة ورقة الأستاذ فيصل دراج وهو ناقد وكاتب فلسطيني - انتقد فيها فكرة أسلمة العلوم التي تتجاهل الواقع الثقافي وجعل العلوم نوعاً من الفولكلور كما أفضى إلى "تأسلم السلطة.. وطالب "بالدولة الوطنية" ومجتمع متمائل.

وقدم الباقر العفيف (سوداني) ورقة بعنوان "كيفية تجديد الخطاب أفكار أولية للمناقشة" وقد بدأ ورقته بسؤال تقدم به السيد فيليب عباس غبوش إلى الدكتور حسن الترابي هل يمكن للرجل غير المسلم أن يكون رئيساً للدولة. ونفي ذلك الدكتور الترابي واعتبر الكاتب أن تلك هي "ضربة البداية في معارضة مشروع الدستور الإسلامي وفات الكاتب أن دولة كالولايات المتحدة تشترط في رئيسها ليس فحسب أن يكون مسيحياً بل وأن يكون بروتستنتي واعتبر انتخاب "كندي" وهو غير كاثوليكي تطوراً ثم أورد الأستاذ العفيف نص فتوى تحريم الانضمام لتنظيم الجبهة الديمقراطية "وأفعالها الكفرية" وأشار إلى بعض حالات التعصب التي تدعو إلى قتل المخالفين ورأي في هذه كلها مبررات قوية لضرورة الإصلاح الديني الذي يحقق حرية الضمير وجوهر الديمقراطية والمساواة الشاملة من جميع المواطنين خاصة النساء وغير المسلمين، ولما كان معظم الإخوة السودانيين الحاضرين من أنصار محمود محمد طه فقد رأوا أن آيات الأصول هي التي نزلت في مكة وهي التي تحقق الحريات وأن آيات الفروع هي التي نزلت في المدينة وهي التي تقيد الحريات ورأوا ضرورة الأخذ بالآيات المكية وغض النظر عن الآيات المدنية. وفي مداخلتني أوضحت ركافة هذه الفكرة فمن غير المعقول أن يعجز الرسول عن تطبيق آيات في القرآن على المدينة وهو سيدها المطاع ثم إن هذه الآيات المكية طبقت فعلاً في المدينة فكان الحكم شورياً ! ديمقراطياً حتى بالنسبة للرسول وكانت المساواة كاملة ما بين أسمى الأرسنقراطيات، وعامة الناس وبين العرب والعجم وكانت المساواة ما بين الرجال والنساء فاشترك النساء في بيعة العقبة الثانية وهي بيعة حرب واشتركوا في الحروب وأعطاهم الرسول حصة المحارب وكانوا يصلون في المسجد مع الرجال، بل كانوا يتوضئون مع الرجال من مجرى واحد في وقت واحد، أما حرية العقيدة فقد تعددت حالات الردة في حياة الرسول فما وقع عقوبة على أي مرتد.

ورأت الورقة رغم ذلك أن الشريعة تكره الناس على الدين وفق آية السيف وآية السيف أسطورة وضعها المفسرون وكل آيات القتال هي لحماية العقيدة ومقابلة حرب المشركين وأقصى ما فيها المعاملة بالمثل مع أنها توحى بالإحسان وعدم الاعتداء.

وقدم الأستاذ صلاح الدين الجورشي وهو إسلامي قديم أسس مع زملاء له هيئة ذات آراء حرة حتى اضطروا إلى ترك المجال الإسلامي الذي عاملته الحكومة التونسية التي يرأسها رجل بوليس - بوحشية وضراوة وانتقلوا إلى حقوق الإنسان حيث تحميهم إلى حد ما - ضمانات دولية.

تحدثت ورقة الأستاذ صلاح الدين الجورشي عن أن دعاة التحرير الإسلامي كانوا هم دعاة التحرير السياسي ولكن لما ولى الأمر قيادات سياسية بعيدة عن الإسلام حدث انفصال بل عدا بين الفريقين واعترفت الورقة بأن جناحاً من التيار العلماني لم يعترف بالإسلام كأحد مكونات المشروع الحداثي الوطني، وأرادت حصره في أضيق الحدود وأن التيار الإسلامي بدوره قاوم هذه السياسة وعرض الأستاذ الجورشي النقاط التي يجب تسويتها وهي الدين والسياسة، والاجتهاد والتعددية، وحرية التفكير والجهاد والعنف والمرأة، واستطردت الورقة: تلك أبرز القضايا المطروحة التي تتطلب مزيداً من المراجعات والنقاشات وما ينقص المكتبة الحقوقية هو سلسلة من الكراسات التي تجمع بشكل مكثف أهم ما توصل إليه الفكر الإسلامي المعاصر من إجابات.

وختمت الورقة بملاحظات منهجية تطرقت إلى ضرورة استقلالية دعاة التجديد عن السلطة وأنه ليس بالضرورة أن يكون لهم استراتيجية واحدة ولكن يجب أن يعنوا بقضايا حقوق الإنسان ، وتأسيس هذا الفكر على أسس إسلامية حتى لا يظن أنه استجابة لضغوط أمريكية.

ودعت الورقة إلى التعامل مع "القناة المسجدية" ومع وسائل الإعلام وبرامج التعليم والمؤسسات الدينية والحركات الإسلامية.

وتعد ورقة الأستاذ الجورشي من أفضل ما قدم في موضوعيتها وشمولها.

وأرسل الدكتور نصر حامد أبو زيد ورقة بعنوان نحو منهج إسلامي جديد للتأويل استعرض فيه كتابات المجددين مثل محمود محمد طه ومحمد شحرور في كتابه "الكتاب والقرآن" ومحاولات "جمال البنا وخليل عبد الكريم" ... الخ، وقد كان من حظي أن أناقش هذه الورقة التي أظهرت مدى التجاوز في الجمع ما بين جمال البنا وخليل عبد الكريم كما أنه رأى في محاولاتي استعادة "دعوة أخي حسن البنا وأطروحات كل من أبو الأعلى المودودي وسيد قطب" وهذا خلط لا يقول به من لديه أدنى تقدير للتمييز على أن د. أبو زيد كان زميلي في دورة بألمانيا وأعطيته كتبا ومنها "نحو فقه جديد" الذي لم يشر إليه.

وعاد الدكتور نصر أبو زيد إلى الموضوع المحبب لديه ألا وهو "أن تجديد الخطاب الديني لا يمكن أن يكون تجديدًا ناجزًا إذا ظل التعامل مع النصوص التأسيسية - القرآن والسنة - ينطلق من نفس الأسس اللاهوتية التي استقرت على الفكر.. الخ.

وركز الحديث في سؤاله الأول والجوهري هو ماذا يعني أن القرآن كلام الله ويتطرق فيه إلى طبيعة الوحي ثم تحول إلى ما تحفل به بعض الكتب القديمة عن القرآن من روايات ركيكة عن الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول كانت عدة المستشرقين في الطعن على الإسلام وهو الموقف نفسه الذي ارتضاه نصر أبو زيد نفسه.

ما قيمه أن يكون القرآن مخلوقًا أو غير مخلوق وقد أقام المعتزلة أكبر حركة اضطهاد لحرية الفكر تحت هذه الدعوى، وما هي طبيعة الوحي؟ هذه كلها متاهات لاهوتية لا يمكن التوصل إليها وحتى لو أمكن التوصل إليها فما قيمتها فيما نحن بصدده من النهضة بالمجتمع والاقتصاد والسياسة، أن هؤلاء الأكاديميين يظنون أن التقدم رهن بمناقشاتهم وأطروحاتهم - اللاهوتية والبيزنطية مع أن العدو على الأبواب !

(٨)

ضرب الديمقراطية باسم الديمقراطية(*)

رأيت على إحدى القنوات الفضائية ندوة عن الهيئات الإسلامية - ما لها وما عليها.. ما يحمدها وما يكره منها، وكانت الندوة تجمع - كما هي العادة - مناصرين ومعارضين.

القضية التي أثارها البعض، والتي تستحق معالجة صريحة، وواضحة، هي تبرير ضرب النظم الحاكمة للدعوات الإسلامية بحجة أن هذه الدعوات لا تؤمن بالديمقراطية، وإنما هي تدعيها لكي تصل إلى السلطة، فتضرب كل النظم الديمقراطية وهو يستشهدون بأقوال عديدة وردت في كتابات بعض زعماء هذه الهيئات.

نقول إذا جاز لهم أن يستشهدوا بأقوال الهيئات الإسلامية تعارض الديمقراطية، فلماذا لا يستشهدون بأقوالهم المؤيدة للديمقراطية؟ خاصة وأن أقوالهم المؤيدة هي آخر الأمرين.

إن بيان الإخوان المسلمين الصادر سنة ١٩٩٤م يقرر صراحة التعددية الحزبية وتداول الحكم وحق المرأة في العمل وتولى المناصب القيادية، فبأي حق نقول إنهم لا يصرون عن صدق، ولكن عن إدعاء ولماذا لا يكون هذا التحول من مبدأ قديم إلى مبدأ جديد نتيجة للخبرة والتجربة، وما أثبتته الأيام من خطأ، وأن جماعة النهضة (الغنوشي) أعلنت تخليها عن المنافسة على الحكم حتى تحسم شافة هذه الظنون، وكانت قد أعلنت في إحدى وثائقها أن الشعب التونسي إذا رفض الشريعة فنحن لا نملك إكراهه عليها.

أما فكرة أنهم يتظاهرون بتأييد الديمقراطية وهم في قرارة قلوبهم يضمرون البطش بها، فهذا رجم بالغيب لا يجوز أن يصدر عن يدعى العلم، وقد قالها الرسول ﷺ من ألف وأربعمائة عام "هلا شققت عن قلبه"، وفي أي شرع تترك الكتابات الصريحة الموثقة، ويعتمد إلى النوايا والسرائر وما يعتزمونه إذا ولوا الحكم.

ولكن فسر مع الكذاب إلى باب الدار..

فحتى لو فرضنا إن هذه المزاعم كانت موجودة فهل يبزر ذلك للسلطة - التي عادة ما تتمثل في الجيش - ضرب مجموعة شعبية كبيرة نالت ثقة الشعب ومصادرة حريتها في العمل، أو حتى في الوجود - بحجة احتمالها ضرب الديمقراطية.

إن أولى بدائه الديمقراطية أنها سيادة الشعب فإذا عبر الشعب عن إرادته، فلا يجوز لأي قوة أخرى أن تضرب هذه الإرادة ما دمت في مجتمع ديمقراطي.

وإذا كان الملك فاروق قد ترك العرش "نزولاً على إرادة الشعب" أفلاً يستحي دعاء الديمقراطية والجمهورية من ضربهم إرادة الشعب بالمدافع والبنادق.

وحتى لو كان ما أدعوه صادقاً فإن التصرف السليم هو تركهم حتى يبدعوا في تدمير الديمقراطية، وعندئذ يمكن للجيش أو أي قوة أن تثور عليهم بعد أن حكمت عليهم بأفعالهم بالفعل ولن يلومهم أحد.

إنهم بحجة هذا الاحتمال قد ضربوا الديمقراطية بالفعل، ونكلوا بالهيئات المعارضة، بقوة السلاح وبأسنة الرماح، وبفرض القوانين التي تكبل الحرية، وترمي المعارضين في السجون، وماذا كان يمكن أن تفعل

الهيئات الإسلامية أكثر من هذا؟ لو صدقنا ما زعموه عنها، وهي على كل حال لا تملك جيشاً ولا دبابات ولا مدافع، ولا قوه القاهرة تقهر بها الإرادات وتخرس الأصوات.

لقد قاموا بالفعل، بأسوأ ما كان يمكن أن تقوم به هذه الهيئات. فكأننا جعلنا الاحتمال أمراً واقعاً، والبعيد واقعاً مثلاً.

في شرع أي ديمقراطية يمكن للجيش أن يلغى انتخابات حرة أختار فيها الشعب الجزائري نوابه اختياراً حراً، فيرفض إرادة الأمة ويحل محلها حكم العسكر، هل هذا من الديمقراطية في شيء. وما يحدث في تركيا أسوأ، ويؤكد سبق الإصرار والتعمد، لا مرة، ولكن مرات عديدة.

لقد أُلّف فريق من الشعب التركي حزباً إسلامياً، وناصر الشعب هذا الحزب حتى ولى الحكم، وكان حكمه بشهادة الأعداء والخصوم من أفضل صور الحكم، فرفع أجور الفقراء، وحارب الفساد ونشط الصناعة وعمل لتخليص الاقتصاد التركي من شبكة الهيمنة الأجنبية.

ولكن هذا كله لم يشفع له، فحيكت له الدسائس حتى أودى به.

وعندما أُلّف اتباعه حزباً آخر، أصدرت المحاكم التركية أمراً بحله.

والذي يفهمه الجميع من حقوق الإنسان حق الفرد والجماعة في التعبير عما تؤمن به، سواء كان إسلاماً، أو ماركسية.

فإن تصدر محكمة تركية حكماً بحل حزب إسلامي انتخبه ملايين الأتراك هو مصادرة للديمقراطية، وضرب لإرادة الشعب، وانتهاك لحقوق الإنسان.

وأن يتم هذا على يد الجيش المدجج بالسلاح، والذي يدين في الجزائر وتركيا بالولاء لأعداء هذين الشعبين، هو ما يزيد الطين بلة.

على أن أسوأ ما في الموضوع لم يأت بعد فقد حكمت المحكمة الدستورية للاتحاد الأوروبي بسلامة هذا الإجراء، أي حل الحزب الإسلامي التركي، لأن الشريعة تخالف حقوق الإنسان !!!

هل لو كان هذا الحزب حزباً ماركسياً يؤمن أعضائه بديكتاتورية البلوريتاريا وبالحزب الواحد، ويحرمون الأفراد من ملكية وسائل الإنتاج، هل كانت محكمة الاتحاد الأوروبي توافق على حله لأنه يخالف حقوق الإنسان السياسية والاقتصادية؟

إن هذا الحكم الأخير ينقل المعركة إلى مجال آخر، فليس هينا أن تقول محكمة إن الشريعة الإسلامية تخالف حقوق الإنسان.

وليس أدل على هوان الشريعة لدى هؤلاء الناس من هذا الحكم.

فهل ينبري شيخ الأزهر ليعطى للمحكمة درساً في أصول الشريعة تجعلها تعرف خطأها الجسيم وحكمها الغشيم وما تورطت فيه من إساءة لمليارات الناس، ومن مخالفة صارخة للحقيقة، ومن جهل تام بحقيقة الشريعة.

هل يقوم فضيلة شيخ الأزهر بالدفاع عن الشريعة، والتحقيق في هذه القضية بدلاً من أن تكون الحسبة، والدفاع عن شرع الله قضايا ترفع للتفريق بين الأزواج والزوجات.

(٩)

الطريق إلى فقه جديد للمرأة*

المعالجات الإسلامية لقضية المرأة عديدة، وكلها تنتهي إلى باب مسدود، كلها تبدأ بعبارات عن "تكريم المرأة"، وكلها تنتهي بممارسات امتهان للمرأة، ولا فرق بين هذا وذاك من الكاتبين إلا في اللهجة أو الدرجة أو طريقة التحايل ولكن الحكم النهائي واحد.

ذلك لأنهم جميعاً يصرون عن الفقه التقليدي.

ومن هنا فإن قضية المرأة من زي، أو اختلاط أو عمل أو زواج.. الخ، هي أحد الموضوعات التي توضح لنا الحاجة إلى فقه جديد، وتلقم الذين ينددون به حجراً.

والحقيقة أن هؤلاء إما حمقى أو شائنون، فالحمقى يجهلون أننا نريد بالفقه الجديد استلهام القرآن والشائون يدعون أننا نسير في أذيال "الحدائث" و "المستشرقين".

وسيطوهم التطور جميعاً وتغرقهم أمواجه، ولن تبكي عليهم أرض أو سماء، وسيذهبون في أمم قد خلت، قال القرآن فيهم "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ" (البقرة: ١٧٠).

لقد كنتم وآبائكم في ضلال بعيد.

ليس أدل على أن معالجة قضية المرأة لا يمكن أن تتم في ضوء الفقه المتبع، من أن قواعد هذا الفقه تقرر الآتي:

أولاً: إن المرأة عورة ولهذا يجب حبسها في البيوت وحجبها في الطرقات والحيلولة بكل الطرق دون الاختلاط بين الجنسين.

ثانياً: ليس هناك أي داع لنشاط عام للمرأة، أو عمل أو مساهمة في السياسة، فهذا كله يفتح أبواب الفساد والانحراف وحل قضية المرأة في الزواج، فما دام هناك بيت يأويها وزوج يحميها، فليس للمرأة ما يشغلها أو تفكر به أو تطمح إليه.

ثالثاً: أن للرجل أن يتزوج مثنى وثلاثاً ورباعاً ما دام يرى أنه قادر ويستطيع العدل وأي تدخل يعد انتهاكاً لهذا المبدأ المقدس.

ولنا أن نتصور قيمة حكم يصدره القاضي نفسه لنفسه !

رابعاً: إن الهدف من الزواج الاستمتاع، وأن عقد الزواج عقد ملك ومبرر الإنفاق الاحتباس فإذا انتفى الاستمتاع أو الاحتباس انتفى الإنفاق.

خامساً: إن الطلاق بيد الرجل وحده وتبعاً لإرادته، وكل تقييد لذلك يعد انتهاكاً لهذا الحق، وللرجل أن يطلق متى يشاء، له وأن يقول "أنت طالق" فتهدم حياة المرأة بهذه الكلمة الواحدة، وهناك صيغ لهذه الكلمة تضحك التكلى، تتبارى كتب الفقه في إيرادها وأشرنا إليها في كتابات سابقة.

فإذا كانت هذه أسس الفقه التقليدي المقدسة فلا فائدة منه ولا جدوى من إصلاحه بل إن الإبقاء على معظم هذه المبادئ يُعد جريمة في حق الإسلام لأنها مخالفة قاطعة روح ونصوص القرآن الكريم والقيم النبيلة التي جاء بها الإسلام: الحرية والمساواة والعدل.

فالقرآن الكريم ساوى بين النساء والرجال.

• "وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (البقرة ٢٢٨).

• "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (التوبة: ٧١).

• "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَلْزَمْنَا هَاجِرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقَاتَلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ" (آل عمران ١٩٥).

إن القرآن الكريم في هذه الآيات كلها يخاطب النساء والرجال ولم يجعل للرجال من فضل عليهن إلا "درجة" وهذه الدرجة توجد ما بين الأنبياء بعضهم على بعض وما بين الأتقياء بعضهم وبعض وقد حذر القرآن في آيات عديدة - يضيّق عنها المقال - من ظلم المرأة والحيف على حقوقها ومضايقتها، وكانت آخر وصية للرسول ﷺ في حجة الوداع عن الصلاة والنساء.

وهذا ما يجعلنا نقطع بأن أحكام الفقه التقليدي في أحكام الزواج والطلاق بوجه خاص تخالف النصوص التي أشرنا إليها عن ضرورة ملاحظة العدل والخضوع له، وكيف يتفق مع العدل أن يتفق اثنان على أن يعيشا معاً إلى ما شاء الله، وأن يتم هذا بعقد وشهود وإشهار وإيجاب وقبول، ثم يملك الرجل وحده، وبكلمة واحدة، هدم هذا كله وتشريد المرأة.

فإذا كانت أحكام الفقه التقليدي عن المرأة من حجابها حتى طلاقها تخالف مخالفة صريحة القيم التي جاء بها القرآن، فأى عجب أو خروج إذا طرحتها، وأخذنا بما أمر به القرآن الكريم.

أي عجب إذا جعلنا العدل والمساواة اللذين أمر بهما القرآن الكريم الأصل لكل ما يمس الإنسان - رجلاً كان أو امرأة - زواجاً أو طلاقاً اقتصاداً أو سياسة.

قد يقولون هناك نصوص عن الزواج والطلاق والزيء الخ. في القرآن، فنقول:

إن في القرآن الكريم ثوابت وهي: أولاً العقيدة أي الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، فهذه العقيدة هي صلب الأديان وهي ما يجعل الدين ديناً ومن أجل هذا نجدنا واحدة تقريباً في كل الأديان وجودها يعني الإخلال بأصول وثوابت الإسلام.

كما يدخل في الثوابت أيضاً: القيم التي جاءت بها الأديان بدءاً من "الاعتراف السلبي" الذي نجده في كتاب الأموات لدى قدماء المصريين، وفي الوصايا العشر حتى حجة الوداع، وهذه القيم عديدة، وأبرزها الحرية والمساواة، والعدل والخير والحب، فكل انتهاك لهذه القيم هو انتهاك لروح الأديان.

بالإضافة إلى هذين توجد في الكتب المقدسة - بما فيها القرآن الكريم - نصوص عديدة عن بعض القضايا الدنيوية في الاقتصاد والاجتماع والسياسة، أراد بها القرآن معالجة هذه القضايا بما لا يخالف القيم، وفي الوقت نفسه بما لا تحول ظروف المجتمع دون أن تطبق أو ما تتضمنه هذه الظروف من أحكام وجعل لكل حكم علة أو حكمة.

وكل ما جاء عن المرأة من نصوص يدخل في هذا.

ويحدث أن يؤدي التطور إلى انتفاء الحكمة أو العلة التي من أجلها وضع النص، وعندئذ ينتفي الحكم لأن الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدمًا.

وهذا الموقف هو الذي وقفه عمر بن الخطاب إزاء نصوص جليلة وصريحة في القرآن الكريم، فإنه لم يجدها أو يعطلها، وإنما رأى بالفطرة التي هي في أصل الإسلام وبالعقل الذي يميز ما بين الخطأ والصواب، إن الغرض أو القصد من هذه الأحكام قد انتفى.

وهذا هو الموقف الذي نقفه الآن إزاء أحكام عديدة تضمنتها الشريعة مثل الرق وأحكام الغنائم وغيرها، مما استبعده التطور ولم يعد له وجود.

وبالاختصار الذي تفرضه مقالة في جريدة فإننا بكل بساطة، بل بكل عزيمة وإيجاب نطوي غير أسفين كل هذه الأحكام التقليدية عن المرأة لنضع أحكاماً جديدة تستلهم القيم التي جاء لها الإسلام ودعا إليها القرآن، وأبرزها: الحرية، المساواة، العدالة.

(١٠)

إِلهَام آيَة (*)

كنت اقرأ في القرآن الكريم عندما مررت بهذه الآية من سورة الزمر ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ { ٤١ الزمر}، شعرت كأنما أمسكتني هذه الآية، ووجدت نفسي مشدوداً إليها لا أستطيع أن أريم عنها وكأنني ذلك العاشق القديم الذي:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متقدم عنه ولا متأخر

فهذه ١٤ كلمة على وجه التحديد، يمكن القول إنها ضمت جماع الإسلام.

فقد بدأت "إننا" إشارة إلى الله تعالى وما يعنيه هذا من أصل القوة والحكمة والروعة وخالق الأكوان والوجود الذي لا تعد كرتنا الأرضية إلا نره فيه.

تليها "أنزلنا" وهي كلمة تومئ إلى البون الشاسع ما بين مقام الألوهية، وعالم البشر، وهي تعطي هذا المعنى بحيث يستقر في النفس دون أن يأخذ هذا بالضرورة شكلاً معيناً.

"عليك" أي على الرسول لأن الوحي إنما ينزل "على" الأنبياء والقرآن يستخدم تعبير عليك ليوحي بالمعنى كما في ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ { ١٩٤ الشعراء}.

وماذا أنزل الله على رسوله؟

"الكتاب"، فالوحي هو الكتاب.. هو القرآن الكريم.

تأتى بعدها للناس لتربط ما بين تنزيل الكتاب والناس وما يوجبه هذا من معنى أن الناس هم الهدف الذي تغياه القرآن، فالغاية هنا هي الناس، وبمعنى أدق هداية الناس، والقرآن هو وسيلة هذه الهداية.

ثم تأتي الكلمة الهامة "بالحق" التي تمثل مضمون الكتاب كله في كلمة واحدة لا نجد لها مثيلاً بهذا المعنى في أي لغة أخرى غير العربية.

جاء الكتاب بالحق الذي يمثل الموضوعية العظمى كما توضح ذلك آيات عديدة تجعله أساس الخلق كله والرسالات كلها:

- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ {الأحقاف: ٣}.
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَشَأُ يُدْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ {١٩ إبراهيم}.
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ {٨٥ الحجر}.
- ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ {١٠٥ الإسراء}.
- ﴿... وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ...﴾ {٢١٣ البقرة}.

(*) نشرت بجريدة القاهرة يوم الثلاثاء الموافق ٢٢/١/٢٠٠٢م، العدد (٩٣).

• ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ { ١٠٥ النساء } .

وعندما يخص القرآن الكريم الحق بأنه معيار الحكم فإن الحق يتحول إلى العدل، لأن العدل هو إعطاء كل ذي حق حقه، والعدل هو الحق مطبقاً، أما إذا لم تستخدم كلمة الحق كمعيار للحكم فإنها تشير إلى - هذا السر الأعظم - الحق الذي أنزل الله به السماوات والأرض.

وفى الكلمات الثمان التالية ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ، يوضح لنا القرآن في صياغته تلك مبدئين من أهم المبادئ المبدأ الأول حرية الاعتقاد، والمبدأ الثاني أن المعتقد أي الإيمان أو الضلال قضية شخصية فردية تبدأ من الفرد وتنتهي إليه وتعود أثارها عليه بحيث لا تعد من قضايا "النظام العام"، وهذان المبدئان هما مما لم تعرفه المجتمعات القديمة حتى العصور الحديثة، وما كافتحت البشرية في سبيلهما قروناً متطاولة ودعا له الفلاسفة والمفكرون وضحوا بحياتهم في سبيله، والغريب أن أنصار الملك العضوض الذين ولوا شئون المسلمين من عهد معاوية حتى الآن، حاولوا بكل قوة لكي يحجبوا هذين المبدئين عن الشعب ليستأثروا بالحكم ولتكون لهم سلطة التحكم في ضمائر الناس وليرفعوا سيف "التكفير" على أعدائهم.

فأنظر إلى هذا العالم العجيب العظيم الشامل الهادي المتحرر وقد بسطه القرآن في كلمات معدودات بسيطة وواضحة لا يشق على أي قارئ أن يدركها إذا تأمل ولم يقرأها كراً كراً، كأنه اسطوانة حية أو يؤتى ثمرته ليثبت حفظه ويأخذ أجره ! وما هكذا يقرأ القرآن.

عزيزي القارئ..

ليس هذا تفسيراً للقرآن لأنني أؤمن أنه ليس من أحد له مقام تفسير القرآن الكريم، وأين هو من القرآن حتى يفسره؟ وهل القرآن محتاج إلى تفسير سيادته؟ فليتواضع كل من يدعى التفسير وليعرف مقامه ومنزلته، وإذا أراد أن يتحدث عن القرآن الكريم فليتحدث عما فهمه هو أو ما ألهمته آيات القرآن بحيث ينصب الحديث عليه وليس من القرآن، فإذا أصاب ببركة القرآن وإذا اخطأ فمن قصور الإنسان، وغلبة النقص عليه.

(١١)

الحرية.. الحرية.. الحرية (*)

في إحدى أمسيات عام ١٩٥١م، وفي دار الحزب الاشتراكي (مصر الفتاة سابقاً) بشارع ضريح سعد، أو البيت الأخضر كما كان يطلق عليه جلس الأستاذ أحمد حسين ليكتب افتتاحية مجلة الاشتراكية، وكانت الافتتاحية بعنوان "الثورة.. الثورة.. الثورة"، وكان المانشت بالحبر الأحمر وبحروف رقعة غليظة ويشغل قرابة ربع الصفحة.

ولم يسجن الأستاذ أحمد حسين، بل حتى لم يحقق معه.

كان الأستاذ أحمد حسين رحمه الله داعياً مطبوعاً، وكان فيه شيء من مقدرة السيد المسيح الذي يجعله يحول صياد السمك الفقير إلى صياد الجماهير.

ولم أكن أعرفه معرفة شخصية، ولكن عندما أفرج عني من المعتقل عام ١٩٥٠ زارني مهنتاً، وكنا قد أوينا إلى شقة متواضعة في أحد أزقة القاهرة بعد أن خسرتنا شقتنا الرحبية الواسعة التي تطل على أجمل شارعين في الحلمية: شارع إلهامي وشارع تيمور.

عندما زرته لأشكره وأعبر له عن تقديري، اقترح على الانضمام إلى الحزب الاشتراكي، ولكنني أوضحت له أن موقفي المقرر هو عدم الانضمام إلى هيئات أو أحزاب، بما في ذلك الإخوان المسلمين، التي كانت أقرب إلى من أي هيئة أخرى، ولكن يمكن التعاون معاً في بعض مجالات النشاط، وقبل هذا فأخذت أكتب بعض المقالات في الاشتراكية، وكنت معه ونحن نتفحص مجموعة من صور شحاذي القاهرة ونختار أشدها بؤساً لتملاً الصفحتين المتقابلتين من الاشتراكية تحت مانشيت عريض "ارعاياك يا مولاي".

كما أسست قسم خدمة الشباب الذي انضم إليه عدد من طلبة الجامعة في الحزب، لعل بعضهم لا يزال باقياً يذكره، ولا بد أن أعمارهم الآن ما بين الستين والسبعين.

في هذا الوقت كان أحمد حسين، كما كان إحسان عبد القدوس يهينان المجتمع المصري للثورة ويعدان الجماهير لتقبلها.

وقد حدثت "الثورة" وإن لم تكن بالصورة التي أرادها تماماً، وفي إحدى مراحلها، كانا معا من ضحاياها، كما كان شأن معظم الصحفيين الأحرار.

اليوم نحن الآن في حاجة إلى شعار صريح جريء مثل شعار الثورة.. الثورة.. الثورة، فالبلاد تقف على أبواب منعطف خطير، والبشرية كلها تقف على مفصل من مفاصل التاريخ.

ما هو الشعار الذي يحمل روح العهد المقبل والمرحلة الجديدة؟

لسنا في حاجة إلى برامج مفصلة، فهذه من السهل وضعها في أحسن صورة ولدينا عدد كبير من الخبراء في وضع مثل هذه البرامج..

(*) نشر بجريدة القاهرة مايو ٢٠٠٣م.

نريد شعاراً يبلور الروح التي هي مفتاح العهد، وأداة التغيير.

لا أجد هذا الشعار إلا في "الحرية.. الحرية.. الحرية".

عندما أصدرت كتابي "مطلبنا الأول هو الحرية"، تساءلت في مقدمته: لماذا يكون مطلبنا الأول هو الحرية، وليس تطبيق الشريعة مثلاً أو حتى أن تكون كلمة الله هي العليا.

وردت على هذا التساؤل...

لأن الحرية هي التي تكفل لنا المناداة بهذه المبادئ أو النظم التي نؤمن بها، وبدون الحرية لن نستطيع أن ندعو - ومن باب أولى نعمل - لها.

وحتى إذا حققنا هدفنا، فإن الحرية هي التي توضح لنا أولاً بأول ما نقع فيه من خطأ أو ما يحدث من انحراف، وهذا أمر لا بد منه لأننا لسنا ملائكة وليس لنا عصمة الأنبياء، فالحرية هنا هي التي تكشف لنا الأخطاء فنصحها أولاً بأول، ولو لم تكشفها لتفاقت حتى تهدم كل ما عملناه.

من هنا كان إيماننا بالحرية..

وكان هذا الإيمان بالنسبة لحرية الفكر لا يعرف حداً.

ويتملكنا الرثاء عندما يقول البعض نعم نحن نؤمن بالحرية أيضاً، باستثناء الثوابت، أو القوانين أو الدستور، فضلاً عن الخطوط الحمراء التي من يجاوزها فذنبه على جنبه! فنقول إن حرية الفكر لا تعرف قيوداً عليها وهذه الموضوعات بالذات هي أهم ما يجب أن تتوجه إليها الحرية حتى لا تتوثن أو تأسن.

لقد دعانا القرآن الكريم لأن نفكر في عظمة الله تعالى وأن نتدبر القرآن ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ، فكيف يدعون على الحرية محرمات؟ وهل هناك مقدسات أعظم من الله تعالى ومن "القرآن"؟

إن مصيبتنا الحقيقية إنه ليس هناك بين الفصائل التي توجه المجتمع، من يؤمن بالحرية حقاً، "فالمجتمع المصري يخضع لتوجيه ثلاث مجموعات".

المجموعة الأولى: اليسارية والماركسية.

المجموعة الثانية: العسكرية.

المجموعة الثالثة: المؤسسة الدينية التقليدية.

إن عداء الحرية أصل عريق في الفكر الماركسي، وعندما عرض دستور جوتا على ماركس ووجد فيه "دولة حرة"، استنكر ذلك قال: دولة حرة.. ما هذا؟

وأراد لبيكنخت الألماني أن يرضيه فحذف من اسم الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني كلمة "الديمقراطي"، وأصبح اسم الحزب حزب العمال الاشتراكيين الألمانين، ولكنه لم يرض لأنه كان يريد النص على ديكتاتورية البلوريتاريا.

أما لينين فيمكن القول دون مبالغة أنه أكبر عدو للحرية في العصر الحديث فهو الذي أحدث شعار لا حرية لأعداء الشعب! وهو الذي حول أسماء الأحزاب الاشتراكيين الديمقراطيين إلى الحزب الشيوعي ووضع ٢١ مادة تجعلها هي والنقابات أسيرة جسداً وروحاً للكومنترن، واستأصل المعارضة سواء كانت أحزاباً أو صحافة وأوجد أكبر جهاز مخابرات عرفه التاريخ وأسماه "درع الثورة" وأطلق يده في قتل كل من تحوم حوله شبهة.

أما زميله تروتسكي - وزير الدفاع، ووزير الخارجية - فإنه ألف كتابا باسم "دفاع عن الإرهاب" ندد فيه بنقد قطب الاشتراكية كاوتسكي وقال إن الإرهاب جزء لا يتجزأ من آلية الدولة الاشتراكية، ليس فحسب لاستخدامه ضد أعدائها، ولكن ليكون سيفاً مصلتا على أصدقائها ودعا إلى "عسكرة" العمل، وأن يصبح دور النقابات ثكنات تعبى العمال لتحقيق خطة التنمية وتتبع قواعد الضبط والربط العسكري.

وقد كان الاتحاد السوفيتي هو مدرسة الدولة الشمولية التي تعلم منها هتلر وموسوليني.

هذا هو موقف الاشتراكيين وأحفادهم اليساريين من الحرية، وهم اليوم الذين يتباكون عليها، وفي الوقت نفسه يقبضون بيد من حديد على أجهزة الإعلام.

أما الجهاز العسكري فقد بلوناه وعشنا مآسيه وجرائمه من ١٩٥٢م حتى الآن بما في ذلك الاستئثار بالحكم وانتخابات ٩٩% وحل الأحزاب (أو تكوينها بالأذن!) والمعتقلات والتعذيب وهزيمة ١٩٥٦م التي كانت بروفة للهزيمة الكبرى ١٩٦٧م التي أخرجتنا مائة سنة إلى الوراء ولا تزال تتعثر في عقابيلها.

إن مبدأ العسكريين في العالم أجمع، هو "الطاعة" والضبط والربط، وما أبعد هذا عن الحرية؟

أما المؤسسة الدينية وقلعة الفقه السلفي فهي تقوم على التقليد، أي أداء العمل دون السؤال عن حكمته، وهم يدعون الاجتهاد بأفواههم ولو علموا أن أحداً يختلف عن الشافعي أو أبي حنيفة أو أنه يفكر في وضع مذهب خامس لحشروه في جهنم.

إطباق هذا الثلاث الرهيب الذي لا يؤمن بالحرية على المجتمع المصري جعله مظلماً، يختنق ويتململ ويهدم ولا يستطيع انطلاقة، ولا يحقق إبداعاً ولا يأتي بإضافة.

كان الشعار قبل ١٩٥٢م هو الثورة.. الثورة.. الثورة، أما اليوم فالشعار هو الحرية.. الحرية.. الحرية.

العالم كله يريد الحرية...

والشعب بأسره يريد الحرية، يريد الحرية بحق وحقيق.

لا قوانين سيئة السمعة، ولا قوانين طوارئ.

حرية كاملة بما في ذلك إقامة الأحزاب والمعارضة السياسية، وإصدار الصحف وتكوين النقابات والجمعيات.

لا اعتقالات ولا تعذيب ولا محاكم عسكرية أو أمن دولة.

الشعب يريد مجلس نواب حقيقي لا رمزي.

مجلس نواب يملك سحب الثقة من الوزارة ومناقشة الميزانية كاملة.

أعطوه الحرية حتى لا يضطر لأخذها بيده.

أعطوه الحرية حتى لا يأتي من يدعيها ويريد تطبيقها بالحديد والنار والمدافع والقنابل.

إن لم تفعلوا فستلقون بالشعب الذي يريد الفرار من رمضاء الداخل إلى نار الأمريكان وبنس المصير.